«المسلمون مسوقون بنابل دينهم الى طلب»
«ما يكسبهم الرفعة والسؤدد والعزة والمجد»
«ولا يرضيهم من ذلك مادون الغاية ولا»
«يتوفر شيء من وسائل ذلك الا بالعلم»
(الاستاذ المرحوم الشيخ محمد عبده)

(تأليف)

لصالح حمدي حماد

١٣٢٥ — ١٩٠٧

مطبعة مدرسة والدة عباس الاول

(بالطرقة الشرقية بشارع خيرت بالقاهرة)

﴿ رفع الكتاب ﴾

(الى كريم الاعتاب السنية)

أعتاب سمو مليكنا المعظم وخديونا الاكرم عباس باشا الثانى أعز الله ملكه وأيد عادل سلطانه

تعلو جدك يسعد الدهر   والى فخارك ينتهى الفخر

مولاى :

أرفع الى مقامكم السامى وأنا العاجز الضعيف هذا الكتاب ليشرف المؤلف والمؤلف بفخر هو كل الفخار، وشرف هو منتهى الشرف، وما أنا يامولاى إلا غرس النعمة وخادم تلك السدة كما كان أبي من قبل غرس نعمة الجد الأكبر وخادم الأباء الاكرمين وإن اختلف عملانا، وان منتهى فخرى وكل أمنيتى ان يحظى كتابي هـذا الصغير الكبير الذى تطفلت بوضعه فى «أدب الاسلام» ديننا القويم وروح المدنية الصحيحة بالرضا والقبول لدى مولاى ويشرف باسمه الكريم أيد الله تعالى سمو مولاى المليك بروح منه وأعز ملكه ودولة نهضة عصره الزاهي الزاهر وحفظ مولاى ولى العهد وسائر الأنجال الكرام آمين آمين

هذا وإنى لسمو مولاى الخادم الخاضع الامين

صالح حمدى حماد
ابن المرحوم حماد باشا

الحمد لله الذى منح الانسان نعمة العقل، ووهبه مواهب الفكر، وخصه بالحكمة وفصل الخطاب، وألهمه التقوى وألزمه كلمتها، وتعبده بالعلم والمعرفة بذاته وصفاته والوقوف عند حدوده وأوجب عليه تحرى الادب ونشد الكمال، وتطلب جليل الخلال وجميل الفعال، وجعل الفلاح مقروناً بهذا كله فى الدنيا كما فى الآخرة، والصلاة والسلام على سيدنا محمد أعظم مرسل بمكارم هذه الاخلاق وأجل مبعوث رحمة للعالمين بشيراً ونذيراً وداعياً الى الله بأذنه وسراجاً منيراً.

أما بعد فهذه رسالة فى «أدب الاسلام» جاءت «كقطرة» من بحره الزاخر أتيحت لى الفرصة السعيدة من عون الله تعالى وحسن تيسيره وتوفيقه بان ألتقطها وأجمعها بين دفتي هذا الكتاب معتمداً فى استخراجها على اجلة الكتب الاسلامية والاسفار المحمدية مما يمكن تشبيه حال صنيعي له فيه بحال ذلك الانسان الذى رأى نفسه فى وسط حديقة غناء دعته رائحة أزهارها الطيبة وشذى عطرها ومناظرها الجميلة الى ان يلتقط من قطوفها الدانية فجعل يقتطف زهرة من هنا وزهرة من هناك فما لبث ان رأى فى يده «باقة» من الازهار نضرة المنظر زكية الاريج جديرة بأن تقدم الى «عروس العقول» من «عالم الادب العصرى» لا لانها قد جمعت فأوعت أو إنه قد روعي الحسن والتدقيق في اختيار

اشبالها بل لأنها مع ماقد راعيت فيها من الايجاز والبساطة رتبتها ونسقتها كما ترى تنسيقاً «بوافق أذواقنا العصرية وقابلياتنا الزمانية وفهمنا لآداب ديننا ومايجدر بنا العمل به منه» ولكل عصر ذوقه ولكل جيل قابلياته ولكل مقام مقال ولكل أيام دولة ورجال .

والذى دعانى الى التطفل لوضع هذه الرسالة على هذا النمط مع قصر الباع وقلة البضاعة إنما هو ماقام بالنفس من باعث الرغبة فى خدمة «الادب العصري الحي بشيء حى يناسبه من أدب الاسلام» فمن ثم تكون رسالتى هذه بالنسبة الى المسلم العصرى «كمذكرة» أو «مفكرة» صغيرة جلية بآداب دينه القويم وبالنظر الى غير المسلم تكون «كأنموذج» بسيط فى التعريف بالحق عن المبادىء الاسلامية في أدب الاعتقادات والمعاملات والنظامات ثم فى أدب النفوس فيما بين الخلق وبعضهم وفيما بينهم وبين الخالق جل شأنه وعز سلطانه والاسلام فى كل هذا يرمى الى أشرف المقاصد العمرانية واسمي الغايات الانسانية كما ستراه مبسوطاً بقدر ماينا سب ما اشترطت من الايجاز فى هذه الرسالة . ولقد قال العلامة المرحوم الاستاذ الشيخ محمد عبده هذه الجملة بل هذه الحكمة الجليلة الكاشفة عن مرمى المبادىء الاسلامية وقد حليت بها صدر هذا الكتاب «المسلمون مسوقون بنابل دينهم الى طلب مايكسبهم الرفعة والسؤود والعزة والمجد ولا يرضيهم من ذلك مادون الغاية ولايتوفر شيء من وسائل ذلك الا بالعلم» وأرى القارىء الكريم وقد اطلع على هذه الجملة الحكيمة من الامام الحكيم رحمه الله إلا سابقى الى القول بأن «نعمت الغاية ونعمت الواسطة»

القاهرة فى غاية محرم الحرام سنة ١٣٢٥ هـ صالح حمدى حماد

الباب الاول

(أدب الاعتقادات)

مبنى الاسلام على التوحيد — توحيد العرب قبل الاسلام — دلائل الكون المنصوبة للعقل الدالة على الصانع الأيمان بالرسل والملائكة — الأيمان بما بعد الموت — تفصيل مجمل — نظام العالم دليل الصانع — نظرية حدوث العالم — هو الاول والآخر تعالى ان يكون جوهراً متحيزا — نفي الجسمية والعرضية — نفي الاختصاص بجهة — معنى الاستواء على العرش . الرؤية — المية — الصفات — القدرة العلم — الحياة — الارادة — السمع والبصر — الكلام — قدم الصفات — افعال الله تعالى — الجزء الكسبي الاختيارى للانسان — نظرية تكليف ما لا يطاق — نظرية إيلام الخلق وتعذيبهم من غير جرم سابق — معرفة الله واجبة بأيجاب الله — بعثة الرسل — بعثة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم — الحشر والنشر — سؤال الملكين — عذاب القبر — الميزان والصراط حق — الجنة والنار حق .

مبنى عقيدتنا معشر أهل الاسلام على التوحيد الخالص لله تعالى والقيام بتأدية العبادة له عز وجل لانه المستحق بالحق للعبادة . ومدار القرآن المجيد كله في العقائد إنما يدور على هذا القطب وتقرير المحاجة عنه بالتي هي أحسن قال تعالى «إنما الحكم الله الذى لا اله الا هو» «إنما الله اله واحد سبحانه» «قل هو الله احد الله الصمد» «الله لا إلا هو الحي القيوم» وقال تعالى في عبادته وحده «وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً» «وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء» وقال سبحانه

وتعالى فى النهى عن الشرك والمحاجة عن الوحدانية « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً » « ولا تدع مع الله الها آخر » « ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء » « لو أن فيهما آلهة الا الله لفسدتا » « قل لو كان معه آلهة كما يقولون اذن لا بتغوا الى ذى العرش سبيلا » الى غير ذلك من الآيات الباهرات فى الدلالة على وحدانية الله تعالى وافراده بالعبادة مصداقا لقوله تعالى « وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون » مما كان متحرى الاديان السماوية قبل ديننا والرسل الكرام فى دعوتهم قبل رسولنا صلى الله عليه وعليهم وسلم كما قال تعالى مبيناً لذلك « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذى أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » « وما أرسلنا قبلك من رسول الا نوحي اليه أنه لا اله الا أنا فاعبدون »

ولقد كان التوحيد شائعاً فى شبه جزيرة العرب قبل الاسلام منذ عهد ابراهيم واسماعيل عليهما السلام غير أنه بتمادى الدهور دخلت عليهم الاحداث وعبادة الاصنام فكانوا كما وصفهم الله تعالى فى القرآن المجيد « وما يؤمن أكثرهم بالله الا وهم مشركون » فجاء الاسلام ماحياً لما كانوا عليه مجدداً للتوحيد

على أكمل الوجوه وأشرف المبادئ، ناسخاً ما تقدمه من الاحداث والتغييرات التي شابت الدين الخالص بعد الرسل واضعاً مع ذلك عن الامم والشعوب كثيراً من الآصار وأغلال التكاليف التي وضعتها في أعناقهم التقاليد التي جروا عليها ولا غرو فالاسلام هو بالحق دين الفطرة التي فطر الله الناس عليها وفي القرآن المجيد « ان الدين عند الله الاسلام » « ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه »

ودلائل الوحدانية واثبات الصانع تعالى المنصوبة للعقل بازاء عالم الحس والمشاهدة من الطبيعة بجذافيرها قد نص عليها هذا القرآن الذي يهدي للتي هي أقوم قال تعالى « الله الذي خلق السموات والارض وأنزل من السماء ماء فاخرج به من الثمرات رزقا لكم وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره وسخر لكم الانهار وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار وأتاكم من كل ما سألتموه وان تعدوا نعمة الله لاتحصوها »

وقال في خلق الانسان وتدرجه في نشأته « هو الذي خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم يخرجكم طفلاً ثم

لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخا ومنكم من يتوفى من قبل ولتبلغوا أجلا مسمى ولعلكم تعقلون هو الذى يحيي ويميت فاذا قضى أمراً فانما يقول له كن فيكون »

وقال فى الارض والجبال والليل والنهار الخ « ألم نجعل الارض مهاداً والجبال أوتاداً وخلقناكم أزواجا وجعلنا نومكم سباتاً وجعلنا الليل لباساً وجعلنا النهار معاشا وبنينا فوقكم سبعاً شداداً وجعلنا سراجا وهاجا وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا لنخرج به حباً ونباتاً وجنات الفافاً »

وقال في آية أخرى « ان فى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيي به الارض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض لآيات لقوم يعقلون »

والآيات فى القرآن المجيد على هذا النمط من التنبيه على عظمة الخالق تعالى والتنويه بتفرده بالخلق والانشاء والابداع واسباغ النعم أكثر من أن تحصى ولله ما أجمل وأفخم تلكم الدلائل الكونية العظيمة منها والدقيقة المنصوبة للعقل البشرى والتى

يصادفها الانسان أني تأمل وحيثما أجال نظره شاهدة ناطقة بتفرد الله تعالى بصفات الجلال والكمال والقدرة العظيمة حتى لقد صرح ذلك العربي القح اذ سئل ما الدليل على وجود الصانع تعالى فقال « ان البعرة لتدل على البعير فسماء ذات أبراج وارض ذات فجاج ألا تدل على صانعها القدير ! »

وقال تعالى أيضاً مما يشبه ما سلف ويجب على كل مسلم تدبره وتعقله كله واستخدام وسائل العلوم الكونية لاستكناه أسراره العجيبة لانه وامثاله الكثيرة المودعة بطن كتابنا العزيز مطلوب لنا دينياً فضلا عن نفعه وثمرته دنيويا « الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجري لاجل مسمى يدبر الامر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون ، وهو الذى مد الارض وجعل فيها رواسي وأنهاراً ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشى الليل النهار ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ، وفى الارض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون »

وجاء في آية أخرى « ومن آياته ان خلقكم من تراب ثم اذا أنتم بشر تنتشرون ومن آياته أن خلق لكم من انفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ومن آياته خلق السموات والارض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ان في ذلك لآيات للعالمين ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله ان فى ذلك لآيات لقوم يسمعون ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا وينزل من السماء ماء فيحيي به الارض بعد موتها ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ومن آياته أن تقوم السماء والارض بأمره ثم اذا دعاكم دعوة من الارض اذا أنتم تخرجون »

فترى من هذه الآيات الجليلة وأمثالها الكثيرة فى القرآن المجيد مايبرهن اجل برهنة على وجود الخالق العظيم ووحدانيته تعالى وجميل صنعه وتصرفه فى خلقه بالتدبير المحكم وان للعقل الذى وهبنا اياه وتعبدنا به حقه لان يستخدم ويستعمل ثم[1]

---

(١) قال الشافعى فى رسالة الفقه الاكبر « اول الواجبات على المكلف النظر والاستدلال الي معرفة الله تعالى ومعنى النظر هو فكر القلب والتأمل فى حال المنظور فيه طلباً لمعرفته وبه يتوصل الى معرفة ماغاب عن الحس بالضرورة وهو واجب فى احوال الدين لقوله تعالى انظروا الى ثمره اذا اثمر وقوله فاعتبروا يا أولى الابصار وقل انظروا ماذا فى السموات والارض ثم استطرد فيما يرمي اليه من النظر فى العالم ذلك الاسم الجامع لما سوي الله تعالي من خلقه اهـ مؤلف

وعندى أن هذا الضرب من العلم أجل وأشرف العلوم التى
يجب أن يعتمد عليها فى المدارس الاسلامية الدينية بمقدار مايذلل
من صعاب تلك العلوم الفقهية واللغوية التى ينبغى أن يجري فيها
بما يناسب الزمان وأذواقه تصنيفاً وتعليماً بهذا يأخذ العقل
والفكر الاسلامي قسطه من الانطلاق المطلوب له في الآيات
القرآنية الآنفة وأن لا يحجر عليه ذلك الحجر الذى أوجدته
التقاليد السالفة بين متن وشرح وحاشية وتقرير وما أردأها من
أساليب معيبة لا توافق مناهج العصر ولا ما تقتضيه أحواله
الارتقائية الا اذا رضينا بالقعود والاخلاد الى أرض الانحطاط
والتقهقر الذى يبرأ منه ديننا ويجب نفض غباره عن انفسنا
وسيأتي فى آخر هذا الكتاب كيف يتطلب أدب النفس بازاء
البارى تعالى اطلاق الفكر والتفكر والتدبر فى مصنوعات الله
تعالى للتقوى فى الدين والدنيا مما لا يتوصل له الا باستخدام
العلوم الطبيعية والاجتماعية الادبية

وبعد الايمان بالله سبحانه وتعالى والاقرار له بالوحدانية
والتصرف والقضاء بالتدبير الجميل فى الخلق وعدم الاشراك
به تعالى ينبغى اسلاميا الايمان بالرسل رسل الله والملائكة الكرام

والكتب السماوية كما نص عليه تعالى في محكم هذه الآيات « آمن الرسول بما انزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لانفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا واليك المصير »

ولما كانت الدنيا ليست بالدار ذات الخلد والقرار بل هى كما جاء في الحديث الشريف مزرعة الآخرة تلك الدار الباقية حيث الحياة الابدية حيث السعادة السرمدية والنعيم المقيم ، حيث الحياة بأشرف كمالاتها ومعانيها . كما يقول به ويعتقده الكثير من بنى البشر خصوصاً أصحاب الاديان السماوية والاسلام في مقدمتها كما نطقت به آيات القرآن الكثيرة فلهذا وجب الايمان فيه والاعتقاد بما بعد الموت من الجنة والنار والحشر والنشر ، فالجنة للمؤمنين بالله ورسله العاملين بما امروا به وكلفوه فى هذه الدار من الاعمال الصالحة والتكاليف الواجبة ، والنار مثوى للكافرين العاصين المخالفين لاوامره ، وان هناك حساباً وميزاناً يحاسب العبد بهما (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) والآيات في القرآن الكريم والاحاديث في هذا كثيرة ولتفصيل هذا الاجمال أقول

كل امرىء عاقل أنار الله بصيرته وجلا صداء فكره وثقف بالعلم الصحيح لبه لا يفوته عند التأمل الدقيق والتدبر الحسن في نظام هذا العالم وعجائب الصنع في الكون المكشوف للقلوب والبصائر كما هو مكشوف للأعين والابصار فيما حوى من سموات وأرضين وحيوان ونبات ومعدن وشعوب مختلفة وقبائل انسانية متباينة على ظهر كرتنا هذه الارضية الحقيرة التى هي بالنسبة الى الكون أو ملكوت الله كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «كحلقة ملقاة في فلاة» اذ هذا «الخلق» العجيب والصنع الجميل لا بد له من خالق عظيم وصانع حكيم صنعه وهو يدبره أحسن التدبير، وهذا الصانع الكريم في اعتقاد أهل الاسلام هو «الله» سبحانه وتعالى فاطر السموات والارض عالم الغيب والشهادة وقد دل على نفسه بنفسه وأنبأ عن ذاته وصفاته بالنظر الينا في القرآن الذى أنزله على محمد صلى الله عليه وسلم نبي الاسلام والذى ارسله رحمة للعالمين فضلا عما سلف في نبوة الانبياء والكتب الماضية وعما غرسه تعالى في الفطر الانسانية السليمة [١] لترى الدلائل المنصوبة في العالم نفسه

---

(١) كان للامم الحكيمة القديمة كاليونان ونحوهم هدايتها في معرفة الصانع الاعظم بطريق الرياضة العقلية. راجع رسالة الفوز الاصغر لابن مسكويه ونحوها

وان هذا العالم «حادث» يرجع الى «محدث» لعدم الاستغناء عنه وبرهان حدوث العالم أن اجزاء هذا العالم إما متحركة أو غير متحركة والحركة والسكون قد يعلم بالبداهة حدوثهما كما يعلم كذلك أن مالا يخلو من الحوادث فهو مثلهما فى الحدوث فالعالم اذن حادث ومحدثه بالاتفاق عند اهل الأديان السماوية ومن نحى نحوهم هو الله تعالى كما قال تعالى مشيراً الى ذلك من اعترافهم «ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله»

واذا كان هذا العالم العظيم الصنع حادثا فلا ريب أن الله محدثه تعالى قديم أزلى لا بداية له . وبرهانه انه لو كان حادثا لاحتاج الى محدث واحتاج محدثه الى محدث وهلم جراً وما تسلسل فى الحوادث لا بد من الانتهاء به الى محدث قديم هو الاول ، في الحديث الشريف «كنت كنزاً مخفياً فأحببت ان أعرف فخلقت الخلق فبي عرفونى» فالله تعالى قديم لا بداية له وما حوادث الكون في تسلسلها وارتباطاتها مهما عظم قدمها ومهما قيل فى كيفية خلقها الا وتنتهي الي مبدعها الله الذى أنشأ النشأة الاولى واليه ترجع النشأة الآخرة لان ماوصف بالقدم المطلق استحال عليه العدم البتة فالله سبحانه كما لا أول له فهو

كذلك لا آخر له بل هو تعالى كما وصف نفسه في الكتاب العزيز « الاول والآخر والباطن والظاهر » تفنى الحوادث والعوالم وهو باق أزلياً سرمديا تقدس في علاه

وهو تعالي ليس بجوهر متحيز لان الجواهر المتحيزة كما قال جماعة المتكلمين مختصة بأحيازها ولا تخلو من أن تكون ساكنة فيها أو متحركة عنها ومالا يخلو من الحوادث فهو حادث ، ولو تصور متحيز قديم لتصور فى العقل قدم جواهر العالم. على أن من سماه تعالى جوهراً ولم يرد به المتحيز لا يكون مخطئاً الا من حيث اللفظ دون المعنى

واذا كان الله سبحانه وتعالى ليس بجوهر متحيز فنه يعلم بالضرورة انه ليس « بجسم » لان الجسم مؤلف من جواهر متركبة وماكان مركبا احتاج الى حيز والى اجزاء قابلة للافتراق والاجتماع والحركة والسكون والهيئة والمقدار وهذه كلها من صفات الحدوث في المخلوقين فصانع العالم اذن ليس بجسم

واذا كان تعالى ليس بجسم فيكون بالاولى ليس بعرض حال في جسم كذلك لانه اذا كانت الاجسام محدثة لما تقدم من تركبها وافتقارها الى الاحيازفالاعراض القائمة بها تعلم بالضرورة

حدوثها بل هى أحرى بان توصف بصفة الحدوث من الاجسام
القائمة هى بها والله تعالى خالق الاجسام والاعراض ومبدع
دقائقها ورقائقها من المركبات والبسائط واليه تعالى مرجع
القوة جميعا فيها ما ظهر منها وما بطن

ثم إنه تعالى منزه الذات عن الاختصاص بجهة من
الجهات لان الجهة إما فوق وإما تحت وإما عن اليمين وإما عن
اليسار وإما أمام وإما خلف والجهات محدثة مخلوقة بواسطة
خلق الانسان بكيفية ان له طرفين يعتمد بأحدهما على الارض
التى تقله وهما رجلاه والطرف الآخر يقابله وهو الرأس فأحدث
الانسان اسم الفوق لما يلى ناحية رأسه وخصص اسم التحت
لما يلى قدميه الخ وبهذا الاصطلاح يكون مثلا أهل نصف
الكرة الارضية التى تقابلنا مسمين أبداً فوقاً مانسميه نحن تحتاً
وكذلك يخالفونا فى تعيين الجهات الاربع بحسب الاوضاع .
فمن ثمّ نعلم حدوث الجهة وتعيينها اصطلاحا وما كان كذلك
فالله تعالى منزه أن يتخصص بناحية منه ولو كان الانسان خلق
مستديراً كرىّ الشكل لما كان لهذه المسميات وجود البتة
بالنظر اليه كالكرة الارضية وكالكواكب السابحة فى فضاء الله

العظيم من السموات . فالجهة محدثة بهذا الاصطلاح والله تعالى أرفع من أن يختص بجهة حادثة اصطلح عليها محدث بالتعيين والتخصيص والله تعالى يقول «فأين ما تكونوا فثمّ وجه الله» بالمعنى المقصود له تعالى من القرب والتقريب الى العباد على ان ماجاء في أدب الاسلام من رفع الايدي فى الدعاء الى السماء فهو ابداً للتعظيم والرفعة ولان الله تعالى فوق عباده بالسلطان والعظمة ولان السماء المكشوفة لحقيري سكان الارض مشهد من مشاهد ملكوت الله تعالى مصدر الرحمات والفيوضات العظيمة . أما تولية الوجوه فى الصلاة شطر الكعبة بيت الله الحرام ، بيت الخليل ابراهيم عليه السلام فللتقريب والتسهيل فى التعيين أيضاً ولان الكعبة «أول بيت وضع للناس مباركا» فاختارها النبي صلى الله عليه وسلم قبلة له وأرضى الله بها عباده المسلمين

أما مسئلة الاستواء على «العرش» التي نص عليها الكتاب المجيد «الرحمن على العرش استوى» فليس المراد منها كما قال أجلة علماء السلف وبالمعنى الذى اراده الله تعالى أنه استواء استقرار وتمكن يلزم منه الجسمية لذات الله تقدس وتنزه فى علاه وهو محال وانما هو استواء قهر واستيلاء كالمفهوم من

قوله تعالى في آية الكرسي « وسع كرسيه السموات والارض ولا يؤده حفظهما وهو العلي العظيم »

ورؤية الله تعالى في الدنيا غير مقول بها لقوله تلك « لا تدركه الابصار وهو يدرك الابصار » وقوله تعالى في خطاب موسى عليه الصلاة والسلام « لن تراني » وان كانت الرؤية جائزة عقلا بغير تعيين جهة أو صورة لانه اذا كان تعالى ليس مختصاً بجهة فبالضرورة جازت الرؤية عقلا كذلك من غير كيفية ولا صورة أو جهة . أما مسئلة المعية بحق الخلق « وهو معكم أينما كنتم » فتعتقد اسلامياً مع نفي الأينية الجسمية أو الحلول بحقه تعالى لان قربه تعالى ليس كقرب الاجسام قال الشيخ محمد المغربي الصوفي الشاذلي هذه الحكمة العالية في المعية قال « معيته تعالى أزلية ليس لها ابتداء وكانت الاشياء كلها ثابته في علمه أزلا يقيناً بلا بداية لانها متعلقة به تعلقاً يستحيل عليه العدم لاستحالة وجود علمه الواجب وجوده بغير معلوم واستحالة طريان تعلقه بها لما يلزم عليه من حدوث علمه تعالى بعد ان لم يكن . وكما إن معيته أزلية كذلك هي أبدية ليس لها انتهاء فهو تعالى معها بعد حدوثها من العدم عينا على وفق ما في العلم يقيناً

وهكذا يكون الحال أينما كانت فى عوالم بساطتها وتراكيبها واضافتها وتجريدها من الازل الى ما لانهاية له »

***

هذه هى امهات الباب فى أدب الاعتقاد بالنسبة الى ذات الله تعالى القدسية من الوجود والوحدانية والقدم والبقاء ومخالفة الحوادث بجملة أما أدب الاعتقاد الاسلامى بالنظر الى الصفات صفات الله تعالى القدسية فأولها الاعتقاد « بالقدرة » للصانع العظيم والمدبر الحكيم ، وهذه الصفة من القادر والقدير والخالق والمبدع والمنشيء والمعيد الخ كلها طافح بها القرآن المجيد ، وبرهان القدرة قدرة الله تعالى العظيمة من العقل أن العالم محكم الصنع متقن النظام لان من رأى حديقة منسقة الغراس مرتبة الشجر منتظمة المسالك وتوهم صدورها من غير ناطور ماهر حاذق فى فنه وبعبارة اخرى عن غير قادر على ترتيب ذلك بمهارة وعقل كان منخلعاً عن غريزة العقل نفسه منخرطاً فى سلك أهل الجهل والغباوة .

ثم الاعتقاد « بالعلم » وإحاطة الله تعالى بجميع المخلوقات فانه تعالى لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى الارض ولا فى السماء

والقرآن كله ناطق بان الله محيط بجميع المعلومات ولا يعزب عن علمه شيء دق أو جل خفي او ظهر لا في الارض ولا في السموات العلا فالله بكل شيء عليم ولقد جاء من بين الآيات القرآنية الكثيرة في علم الله هذه الآية على طريقة الاستفهام التعجبي استهزاء بقول بعض الجاحدين «ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير» وفي الآية الارشاد الى الاستدلال بالخلق على علم الله تعالى إذ لا ريب في دلالة الخلق اللطيف والصنع المتقن المزين بالترتيب ولو في الشيء الحقير الضعيف على عظيم علم الصانع بكيفية الترتيب والاتقان والاحاطة بكل شيء .

وفي كل من صفة القدرة والعلم مايدل بالضرورة على صفة «الحياة» له تعالى لانه لا يتصور صدور القدرة والعلم والخلق والابداع عن غير حي كما لا يتصور مثلا من انسان أنه قادر وعالم وفاعل بلا حياة وهو مالا يقول به عاقل أو يتصور في عقل انسان

« الارادة » من صفات الله تعالى فهو « المبدىء المعيد الفعال لما يريد » فلا موجود الا وهو عن مشيئته وارادته وحكمته وكيف لا يكون مريداً مختاراً وكل فعل يصدر منه تعالى أمكن ان يصدر منه ضده ومالا ضد له أمكن ان يصدر منه ذلك

بعينه قبله أو بعده والقدرة صالحة للضدين والوقتين فلا بد من الارادة الصارفة الى أحد المقدورين ولو أغنى العلم عن الارادة فى تخصيص المعلوم حتى يقال انما وجد في الوقت الذى سبق العلم بوجوده لجاز ان يغنى عن القدرة لانه يقال وجد بغير قدرة لسبق العلم به وليست ارادة الله فى السنن الكونيه بالتى هي كالتى للخلق من حيث انفاذ مقصد والعدول عنه إذ ذلك محال بحق الله تعالى واجب الوجود لان هذا من توابع حاجات البشر ونقصهم فى العلم فتتغير الارادات بحسب ذلك من البواعث .

« السمع والبصر » من صفات الله تعالى التي وصف بهما سبحانه وتعالى نفسه في الكتاب العزيز في آيات كثيرة « انني معكما اسمع وأرى » « وكان الله سميعاً بصيراً » « ليس كمثله شيء وهو السميع البصير » فالله تعالى سميع بصير لا يعزب عن رؤيته هو اجس الضمير وخفايا الوهم والتفكير ولا يشذ عن سمعه دبيب أصغر الميكروبات التى لا تراها أعين الآدميين فضلاً عن سماع حركاتها فى غدواتها وروحاتها ، واذا كان من كمال الخالق السمع والبصر فكيف لا تكون صفة هذا الكمال للخالق العظيم تعالى على ما يناسب كماله بلا جارحة ولا أعضاء .

ومن الصفات الواجب اعتقادها بحق الرب تعالى «الكلام» وهي صفة قائمة بذاته العلية لاتكون بصوت ولا بحرف وبرهان كلام الله تعالي ظاهر من الوحي الى الانبياء وخطابهم بلارؤية مصداقاً للآيه الشريفة « ماكان لبشر ان يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى بأذنه مايشاء » وبرهان الكلام على تلك الصورة « وكلم الله موسي تكليماً » « ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه » « فأوحي الى عبده ماأوحى » ولا يشبه كلام الله تعالى بهذا المعنى كلام المخلوقين كما لا يشبه وجوده وجود غيره والكلام بالحقيقة كلام النفس وماقطعت الاصوات والحروف بحق المخلوقين الا لضبط الكلام بحسب الاصطلاحات وسهولة الدلالات كما قد يدل عليه بالاشارات والحركات .

وكل من الكلام القائم بالذات وكذا جميع الصفات التى سبقت لله تعالى قديمة كذاته تعالى لانه يستحيل ان يكون محلاً للحوادث لما تقدم من ان محل الحوادث حادث بل هو تعالى لم يزل فى قدمه تعالى موصوفاً بمحاسن الصفات ولن يزال في أبده منعوتاً بصفات القدم والجلال منزهاً عن تغير الحالات

وكذا علمه تعالى قديم فانه لم يزل عالماً بذاته وصفاته وما يحدثه في مخلوقاته بالعلم الازلى والقدرة الازلية والارادة او المشيئة الازلية المتعلقة باحداث الحوادث وفق سبق علمه الازلى بها .

*
* *

واذ قد انتهيت من بحث الصفات فلأنتقل الى أدب ما يجب اعتقاده اسلامياً بخصوص أفعال الله تعالى فاعلم ياهداك الله أن كل مايحدث في العالم عالم الكائنات فهو فعله تعالى وخلقه واختراعه لا خالق له سواه ولا محدث فى الحقيقة الا أياه وكذا القدرة التي للعباد مخلوقة له تعالى وكذا حركاتهم وسكناتهم متعلقة بقدرته كما قيل « الحركة والسكون بيد الله » وفي الآيات القرآنية برهان هذا ومصداق امره قال تعالى « الله خالق كل شئ » وقال جل شأنه « والله خلقكم وما تعملون » ومن هنا تعلم ان انفراد الله تعالى بخلق حركات العباد لا يخرج ما لهم من « عمل » أو ما يجب اعتقاده فيه لدلالة الآيات القرآنية الكثيرة عليه من ذلك « الجزء الكسبي الاختياري » الواقع في افعالنا وارادتنا الذى وقعت عليه التكاليف والذى خوطب البشر وادينوا به وجوزوا عليه الجزاء الحق بمقتضى الشرائع

من تعبدية وتعاملية كما وعدوا عليه الجزاء الاخروى ، وهذا
الجزء الاختياري فى افعالنا عظيم مبناه على العقل البشرى
المستمد نوره من نور الله ومصداقه من القرآن كثير فهو من
جهة خلق للرب ومن جهة اخرى كسب أى فعل للعبد وتفرد
الله بعلم ماهو كائن له منه فقدرة العبد خلق للرب كسب للعبد
وكذا الحركة والاختيار الواقعان منه وأنت إذا تأملت هذا
جيداً تر أن الاسلام أو بعبارة اخرى المبداء السنى منه قد كمل
أدبه بهذا الاعتقاد وأعتدل قوله وخلص مبدأوه بالنظر الى
أفعال البشر فلم يدخل فى « الجبر » المحض كما قال به « الجبرية »
القدماء ومن اهل الاسلام ايضاً كما لم يقل بمبادىء « المعتزلة »
القدرية اولئك الفلاسفة الاسلاميين الذاهبين الى أن البشر إنما
هم الذين يحدثون أفعالهم وارادتهم وليس لله فيها من أثر البتة فمن
ثمّ وقف المبدأ السنى بين بين حتى يخرج من شناعة اهل الجبر فيما
ذهبوا اليه وجرأة الفلاسفة الاعتزاليين فيما تجرأوا به على الله
تعالى ويوفق بين الآيات الدالة على تصريف الله فى عباده بما شاء
وشاء مبدأ الخلق له تعالى وفق العلم الازلى وأمر التكليف فى
الاعتقادات والعبادات والشرائع وتزكية النفوس والجزاء

بالثواب والعقاب الاخروبين خصوصاً مقابل الطاعات ومقابل الذنوب.(١)

ففعل العبد على مقتضى هذا المبدأ السني المعتدل وإن كان كسباً للعبد الا أنه في الحقيقة لايخرج عن كونه بقضاء الله تعالى وسابقاً فى علمه للجزم فى العقيدة عقيدة أهل السنة والجماعة بأن مايجرى فى الملك والملكوت إنما هو بقضاء الله وقدره فمنه تعالى الخير ومنه تعالى الشر ماشاء كان ومالم يشأ لم يكن وهو معنى دقيق طالما زلت فيه أفهام وحارت عقول على ان الآيات ناطقة به صريحاً فما عصى عاص ولا اهتدى مهتد الا بتوفيق الله تعالى وهدايته وسابق علمه فيه وان كانت سبل الهداية قد بينت من قبله تعالى للجزاء عليها بحق المهتدين كما بينت طرق الغواية والشرور لتجنبها بحق الضالين ولله تعالى فى خلقه شؤون وتصاريف تعجز عن كنهها عقول القاصرين مع ان هناك آيات ناطقة به «ولو شاء ربك لهدى الناس جميعاً» «ولو شاء ربك لجعل الناس امة واحدة» انما مهما يكن من هذا المبدأ

---

(١) حكى فى الصدد الامام ابن تيمية اقوالا نفيسة فى رسالة شرح حديث أبى ذر كما فصلها غيره من الائمة أيضاً أحسن تفصيل اه مؤلف

الاعتقادي فليس للانسان وهو المكلف في حد ذاته إلا أن يعمل لما فيه الخير ليوافق مراد الله تعالى لعباده منه كما نطقت به آيات اخري قال تعالى « قد افلح من ذكاها وقد خاب من دساها » (عليكم أنفسكم لا يغمركم من ضل اذا اهتديتم) من يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » « فأستبقوا الخيرات »

وقال تعالى في خطاب المؤمنين لملازمة التقوى « ياأيها الذين آمنو ان تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً ويكفر عنكم سيآتكم ويغفر لكم والله ذوالفضل العظيم » وأيه « ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لايحتسب » وقال تعالى « ان تجتنبوا كبائر ماتنهون عنه نكفر عنكم سيآتكم » وقال تعالى في آية اخرى « فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فقد وقع اجره على الله » والآيات في المعنى كثيرة .

ومن كمال الادب في الاعتقادات الاسلامية السنية أن يعتقد أن الله تعالى كما قد تفضل بالخلق وتفرد بالانشاء تطول كذلك بتكليف العباد وتعريفهم طريق هدايته ولم يكن الخلق ولا التكليف واجبا عليه البتة كما ذهب اليه المعتزلة وإنما وجد

للسابق في علمه الازلى وحكمته العظيمة ومشيئته الكريمة وانه يجوز لعموم التكليف الذى تفضل به تعالى لمصلحة العباد انفسهم أن يكلف العباد ما لا يطيقون وبعبارة اخرى مالاحظ لهم من توفيقه وهدايته لهم تعالى فيه للسابق في علمه بحق بعضهم ولنا برهان ذلك فى ابلاغ رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم أن أبا جهل لايصدقه ولا يؤمن به ثم أمره إياه بان يأمره أن يصدقه ويؤمن بالله العظيم . وليس هذا فى شيء من معنى الآية الكريمة القرآنية « لا يكلف الله نفساً الا وسعها »

ومن تمام هذا الادب فى الاعتقاد عند أهل السنة والجماعة اعتقاد جواز أن لله تعالى إيلام الخلق وتعذيبهم من غير جرم سابق ولا ثواب لاحق لانه متصرف فى ملكه ولا يعد المتصرف في ملكه ظالما كما شاغب به المعتزلة فى مقولاتهم. هذا هو مبداء « الجواز » الواجب التسليم به اعتقادياً غير أن لله تعالى في مقابله مع ذلك الرحمة غير المتناهية كما قد نطقت به الآيات ودلت عليه الآثار بل وأرشد اليه العقل السليم لان أفعال الله كلها مبنية على الحكمة التى تقصر دونها عقولنا وتمام العدل والرحمة فهو تعالى لم يتفضل بالخلق عبثاً ولا كلفهم من التكاليف بحسب

المقصود بها هنا فوق طاقتهم ووعد بالثواب على الحسنات العملية أضعافاً مضاعفة وتوعد بالعقاب « جزاء سيئة بمثلها »

ومع ما غرز في عقولنا وأمرنا به من العمل لمصلحتنا بمعونته وتوفيقه في حياتنا أثاب على ما قد نبتلى به من المحن والآفات والامراض وأرشد العقول وهدى الفهوم الى الوسائط العلمية والعملية لدرائها وإزالتها مع التزام « الصبر » والتدرع بالاناة والاطاعة لامره وحكمته وقضائه وقدره فى الاحوال السيئة حسياً ومعنوياً بلا تسخط ولا تضجر حتى لا يحبط أجرنا وننال الثواب العظيم ثواب « الصبر » وجزاء الذى بشر به « وبشر الصابرين » ولهذا المبحث بقيه سترد في آخر هذه الرسالة

والقرآن المجيد والسنة البيضاء كلها ملأى بهذا وأمثاله الكثيرة فالله تعالى لا يضيع عمل عامل ولا جزاء صابر ولا يخل بمعونة من استعان به في الخير لاجىء الى بابه مستروح بامداده ولتمام الرحمة الصمدانية جعل أن لا يعذب الا بعد البلاغ وتمام الرسالة « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » كما قد قيد الاهلاك والا لاشة الدنيوية بالتزام الفساد والاسراف فى الامور وعدم الصلاح للخلافة الارضية « وماكان ربك ليهلك

القرى بظلم وأهلها مصلحون »

ومعرفة الله تعالى واجبة بايجاب الله تعالى وشرعه وبالعقل فيما يقتضي الاستدلال المنصوص عنه شرعا لا بالعقل فقط كما هو مذهب المعتزلة لان العقل وحده لا يؤدى الى التصديق بالله وبشرائعه بمفرده وأنت بأدنى تأمل في أحوال الامم واختلافها فى التقاليد والمعتقدات تر أن العقل لا يؤدى في الغالب الا الى السبل المتفرقة وان عرف الصانع فمن ثم بعث الله تعالى النبيين والمرسلين مبشرين ومنذرين للحكمة البالغة وسبق العلم الازلى بان لا صلاح للعالم الا بهذا وأن لا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، ومع اختلاف الشرائع وطرق تأدية العبادة التى جاء بها الرسل ونحوها فان مبداء الاعتقاد الذى أتى به الجميع واحد من حيث التوحيد وعدم الاشراك بالله وتنزيهه تعالى وتقديسه وهو أعظم العبادة المطلوبة بل هو الاصل فى النجاة الاخروية وهذه العبادة وما يتبعها من مراعاة الشرائع والعمل بها بحسب المقتضيات الزمانية لم يكن شيء من ذلك البتة الا فى مصلحة البشر أنفسهم لان الله تعالى غنى عن العالمين لا ينتفع بعبادة عابد ولا يضره كفر كافر ، فالرسل في البشر كالاطباء فكلما احتاج

الناس الى الاطباء فى تطبيب أبدانهم وسلامتها من المطب احتاجوا كذلك بشكل أكبر وأشرف الى اطباء النفوس من الرسل والنبيين لان أمراض النفوس شر من أمراض الابدان وهذا لا ينافى مافى هداية العقول البشرية التى جعلها الله لها لانها قابلة للخطاء والضلالة من حيث قد ترجوا الحق للجهل به فمن ثم احتاجت الى مرشد سماوى يريها الهدى هدى والضلال فيما أرشد الله تعالى اليه وبينه ضلالا وبعد هذا الارشاد وذلك التبيين تصير غير معذورة بل تصير مسؤولة فيما أرشدت اليه في مصالحها الدينية والدنيوية

واذ كانت بعثة الرسل جائزة ولازمة كما هو مبين باكثر من هذا فى كتب العقائد ومحققة بعن بعثهم الله تعالى من الرسل السالفين والانبياء المتقدمين وقد قامت البراهين والحجج على صدقهم وبالاستمداد من انوار شرائعهم استفادت الامم مؤمنة وغير مؤمنه، وإذ كان هذا الامر أمر بعثة الرسل جارياً فى سنن الخليقة ومسلما به لدى الآدميين فى الجملة بالذى يجب اعتقاده بحقهم على ماهو مفصل فى كتب العقائد، وإذ كان لكل شيء عند الله وقته وللسابق في علمه تمالى من حاجة البشر وافتقارهم

الى تجديد الاصلاح ونصب أعلام التوحيد على أمتن أساس في الوقت الذي أراده واختاره سبحانه وتعالى لهذا بعث سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين وأشرف المرسلين بشريعة الاسلام محيياً للايمان منادياً بالاسلام في الزمن الذي انتقاه والوقت الذي اختاره مؤيداً بالحجة البالغة والمعجزات الباهرة خصوصا معجزة القرآن المجيد الذي بين فيه حقيقة الايمان وهداية النفوس باشرف المبادىء الادبية والاجتماعية واصول التوحيد بمقتضي قواعد عامة تصلح لكل زمان ومكان فلما جاء الرسول بهذا ولما قام من براهين بشارات الانبياء السالفين بحقه لهذا لزم الخلق تصديقه والايمان بما جاء من عند الله به للفوز بالسعادة الحقيقية الابدية على نحو ما بشر الله به المؤمنين الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ولا أحسن ولا أشرف ولا أوسط في اعتبارنا معشر المسلمين مما جاء به سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، فرسالة هذا النبي الكريم والرسول السند العظيم جاءت نعمة عامة من الله تعالى كما قال سبحانه وتعالى « وما أرسلناك الا رحمة للعالمين » « وأرسلناك للناس بشيرا ونذيرا » (١).

---

١ يراجع في الفضائل الشفا للقاضي عياض وبالنسبة لتقرير امر الرسالة الجواب الصحيح لابن تيمية اه مؤلف

٭٭٭

أما السمعيات الواجب الاعتقاد بها وتصديقها من حيث الحشر والنشر وقد ورد بهما الشرع ومعناهما الاعادة بعد الانشاء الدنيوى فهو فى العقل ممكن لانه من مقدور الله تعالى ولان فيهما الجزاء الحقيقى والحياة الصحيحة بعد مجاوزة عقبتها من الموت قال تعالى «كما بدأنا أول خلق نعيده» وقال تعالى « قال من يحيي العظام وهي رميم قل يحييها الذى انشأها أول مرة » وقال عز من قائل « ماخلقكم ولا بعثكم الا كنفس واحدة »(١)

ومن السمعيات الواجب التصديق بها سوآل الملكين في القبر فقد وردت به السنة وهو ممكن فى نفسه إذ ليس يستدعي ذلك غير اعادة الروح الى جزء من اجزاء البدن التى يفهم بها الخطاب وعدم سماع الاحياء للسوأل هو كما لا نرى من النائم غير سكونه بظاهره مع انه قد يكون مدركاً بباطنه لآلام وللذات قد يحس بها هو ويشعر عند تنبيهه ، واقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمع كلام جبريل عليه السلام ويشاهده ومن حوله لا يرونه ولا يسمعون كلامه .

---

(١) يراجع تفسير الرازى والفصل لابن حزم فى مسئلة الحشر والنشر والاعادة الخ اه مؤلف

وكذا عذاب القبر وقد جاء فى الحديث «القبر إما روضة من رياض الجنة وإما حفرة من حفر النار» ولا يمنع منه تفرق اجزاء البدن مثلا فى بطون السباع وحواصل الطير الى نحو ذلك إذ المدرك للذة أو ألم العذاب من الانسان إنما هو جزء يعلمه الله من نفس الانسان

والميزان حق ويجب التصديق به . قال تعالى « ونضع الموازين القسط ليوم القيامة » وقال عز من قائل « فمن ثقلت موازينه فاولئك هم المفلحون ومن خفت موازينه الخ » وكذا الصراط يجب التصديق به لورود الخبر به أما صفته وصفة الميزان فما لا يعلم حقيقتهما الا الله تعالى .

ويجب التصديق بالجنة والنار وانهما مخلوقتان قال تعالى «سارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والارض أعدت للمتقين» وقال تعالى «ومثوى الكافرين النار» والآيات في الجنة وفي النار والجزاء بهما على الاعمال إن خيراً فالجنة وإن شراً فالنار كثيرة وكذا الاحاديث للترغيب والترغيب « ذلك هدى الله يهدى به من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين » (١)

(١) يراجع على هذا الفصل تفسير الرازى واحياء الغزالى والاقتصاد فى الاعتقاد له اه مؤلف

الباب الثانى

(أدب العبادات)

العبادات — الطهارة — اقسام الطهارة — الوضوء — الغسل - التيمم — طهارة الثوب واجزاء البدن — النظافة من الايمان - الصلاة عماد الدين — خمس صلاة كتبهن الله — عدد الركعات واوقات الصلوات — اركان الصلاة — المندوبات تسبيح الركوع وتسبيح السجود — القنوت - مكروهات الصلاة — فريضة الجمعة — النوافل الاذان والجماعة - روح الصلاة — فرض زكاة الاموال — على من تجب الزكاة ومقدارها — مقدار زكاة النعم — زكاة الزرع — لمن تصرف الزكاة زكاة الفطر الاوقاف والحبوس — الصوم وفضله — لوازم الافطار — سنن الصيام — آدابه الجميلة ذكرى البيت الحرام - اركان الحج · فضل الحج — زيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم — القرآن المجيد — ادب تلاوته الذكر والدعاء والصلاة على النبي .

قال الله تعالى « ما خلقت الجن والانس الا ليعبدون »

فعبادة الله تعالى فى شريعة الاسلام فرض على كل مسلم عاقل وهى تتركب من معتقد وقد تقدم بيانه وأفعال إما بدنية وإما مالية وكلها راجعة الى فائدة البشر ومصلحتهم أنفسهم إذ الله تعالى أجل وأعز من أن تفيده عبادة عابد أو أن يضره كفر كافر كما سبقت الاشارة اليه وإنما مرجع الفائدة والمضرة بل والحكمة فى العبادة وأسرارها الادبية التى هى روحها وقوامها الى الخلق من ثواب وعقاب وقرب وبعد كما قد نطقت به الآيات القرآنية والآثار النبوية .

*
* *

ولنبدأ بالطهارة أي نظافة أجزاء البدن من النجاسات والاقذار بالماء الطاهر للدخول في العبادة من الصلاة التي هي أهم أركان العبادة وعماد هذا الدين اذ ذلك تزيين للظاهر لان من يدخل في حضرة الملك يجب عليه ان يكون نظيف الظاهر فكذلك الله تعالى ملك الملوك فان من يقف بحضرته وبين يديه في الصلاة لا بد له من أن يدخل هذا المدخل ويقف ذلك الموقف نظيفاً طاهر الظاهر كما يدخل نقي الباطن مخلص القلب « والله يحب التوابين ويحب المتطهرين »

والطهارة عندنا معاشر أهل الاسلام تنقسم الى طهارة « خبث » وهي طهارة بدن المصلي وثوبه ومكان صلاته من أعيان مستقذرة ، وطهارة « حدث » وهي طهارة البدن من أحوال اعتبارية تسمي احداثا يعتبر قيامها في بدن الانسان عند حدوث امور مخصوصة ، وهي تقسم قسمان طهارة صغرى وتسمى « وضوأ » وكبرى وتسمي « غسلا » والتيمم بالصعيد الطيب من التراب أو ما في حكمه يقوم حكماً مقام الماء في إباحة الصلاة لضرورة كما سيأتي بيانه بعد ، فمفتاح الصلاة الطهور وهي لا تقبل الا به كما

في الحديث الشريف « لا تقبل صلاة بغير طهور » والحديث الاخر « لا تقبل صلاة من أحدث حتى يتوضأ »

والوضوء كما تراه مبسوطا في كتب الفقه (١) منه فرض ومنه سنة ، فالفرض بعد التسمية ما ذكر الله تعالى في الآية المتعلقة بالوضوء من الكتاب العزيز « ياأيها الذين آمنوا اذا قمتم الى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم الى المرافق وامسحوا برؤسكم وأرجلكم الى الكعبين » ومابقي من المضمضة والاستنشاق والاستنثار والتكرير ثلاثة والاسباغ فسنة . والوضوء ركن من أركان الصلاه وهو لا يقع الا فى الحدث الاصغر من مثل خروج خارج من أحد السبيلين عينا كان أو ريحا وباقى النواقض الموجبة لتجديد الوضوء خروج دم أو قيح أو قيء ملء الفم أو النوم مضطجعاً او مستندا الى اخر ما تراه مستوفى الشرح فى كتب الفقه الاسلامي ، وللوضوء فضائل ومزايا جليلة حتى لقد يستحب تجديده ولو لم يكن ثم موجب من ناقض عند القيام الى الصلاة وفى الحديث الشريف « ان أمتى ليدعون يوم

(١) كتب الفقه بحسب المذاهب الاربعة عندنا كثيرة فى كل مذهب قررأئمته وعلماؤه فى فروع العبادات والمعاملات بحسبه الامور الكثيرة وكلها قد لاتختلف عن بعضها الا اختلافاً يسيراً اه مؤلف

القيامة غراً محجلين من آثار الوضوء فمن استطاع منكم ان يطيل غرته فليفعل »

أما الغسل وحكمه من القرآن المجيد قوله تعالى «وان كنتم جنباً فاطهروا» وقوله عز وجل «لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ولا جنباً الا عابرى سبيل حتى تغتسلوا» ويبدأ الغسل بالوضوء ثم بافاضة الماء على عموم الجسد والدلك وتخليل الشعر الى آخر مافى الباب مما قد تكفلت بتفصيله كتب الفقه والسنن وكذا حكمه بالنسبة الى الحيض عند النساء وفي النفاس مما هو من اهم شروط حفظ صحة البدن في جميع أحواله [1]

والتيمم فرض اذا تعذر استعمال الماء سواء للوضوء أو للغسل إما لفقده وإما لشدة الحاجة اليه لسد العطش أو كان بالانسان مرض من جراحة ونحوها يخاف عليها منه اذا استعمل الماء والتيمم لا يتناول غير المسح على الوجه والايدى مرة واحدة بالضرب على الصعيد الطيب الطاهر أو ما في حكمه ولا يجزى الا في الصلاة الواحدة ، وبما ان التيمم ما شرع الا لدفع الحرج الذى ينشأ عند فقدان الماء أو عدم القدرة على استعماله ، وحيث

---

(١) راجع الشرح الصغير للشيخ الدردير وصحيح البخارى ومسلم وغيرهم اه مؤلف

ان الصعيد الطيب من التراب الطاهر أو ما في حكمه من حجر صلد ونحوه لا سبيل لفقد شيء منه البتة فمن ثم فرض التيمم به لدفع هذا الحرج من فقدان الماء في الطهارة ليقوم مقامه في إباحة الصلاة مع اشعار النفس بالخضوع للخالق تعالى الذى أوجدها من هذا التراب الذى نصادفه أو ما في حكمه انى ذهبنا وحيثما كنا فنستعيض به عن الماء في اداء هذا الركن من أركان هذه الصلاة من حكم الطهارة ورسمها بلا حرج وكل هذا من أمر التيمم وحكمه وكيفيته وسببه يفهم من آية التيمم التالية لآية الوضوء والطهارة « وان كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون »

وطهارة الخبث في الثوب من النجاسات الطارئة وكذا اجزاء البدن واجبة، والحكمية أي التي ليس لها جرم مخصوص يكفي اجراء الماء على مواردها، وطهارة مكان الصلاة من النجاسات والاخباث واجبة أيضا

واقضاء الحاجة آداب وخصال جميلة من التستر وازالة الفضلات الباقية على الاعضاء من بول أو غائط بالاستنجاء بالماء والتجمر من البول للتنشيف ويجرى كله باليد اليسرى

أما النظافة المستحبة فالاول إزالة ما يتجمع فى الشعر من درن وقمل فالتنظيف فيه مستحب بالغسل والترجيل والتدهين لازالة الشعث عنه ، كان صلى الله عليه وسلم يدهن شعره ويرجله ويأمر به . وجاء فى الحديث عنه عليه الصلاة والسلام «من كان له شعرة فليكرمها » أى يصنها من الاوساخ ، وكذا فى نظافة اللحية للتجمل والتزين المحبوبين والامر بالخضاب بالحناء مشهور .

الثانى مايتجمع فى الآذان والانف والاسنان من الاوساخ فيستحب التنظيف فيه بالازالة والغسل والمضمضة وما سن السواك الذى جاء في الحديث انه مطهرة للفم الا لهذه الحكمة الكريمة فضلا عن انه يطيب النكهة ويقوى اللثة

الثالث غسل (البراجم والرواجب) وهى ظهور الأنامل ورؤسها وماتحت الاظفار مما يلتصق بها حتى تبدو نظيفة. كانت العرب على عهد النبي صلى الله عليه وسلم لا تكثر من غسل الايدى قبل الطعام ولا بعده فيجتمع عليها الوسخ فامرهم رسول

الله صلى الله عليه وسلم بغسلها وتنظيفها وامرهم كذلك بتقليم الاظافر وتنظيفها ونتف الأبط وحلق العانة وقص الشارب وإحفاف اللحى وعدم نتف ما فيها من شيب وجواز خضابها بالحناء أو ما فى حكمها ولهذا كله وختان الاطفال تلك السنة الشرقية القديمة مزيته وفضله كما هو مبين فى مظانه من كتب الاسلام وآدابه العملية .

الرابع الاستحمام لازالة ما قد يعترى البدن من الدرن والاوساخ والغبار وذلك يزيله الحمام ولدخول الحمام آداب من ستر العورة وكراهية النظر الى الغير وتقديم النية فى التزيين المحبوب فى العبادة وعدم الاسراف فى الماء الى آخر ما هناك من الخصال والآداب الجميلة (١)

*
* *

أما الصلاة فهى عماد الدين كما جاء فى الحديث الشريف ومن اعظم فرائض الله على العباد قال تعالى «ان الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً » وهى باستيفاء شروطها واركانها الحسية والمعنوية تنهي عن الفحشاء والمنكر كما قال تعالى فى الآية

---

١ الاحياء للامام الغزالى اه مؤلف

الكريمة ولذلك جاء في الحديث الشريف « من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله الا بعداً » ويدل على مزيد فضلها وعظيم اهميتها في العبادة الاولية في الذكر غب الشهادة كما في الحديث المرتب لمباني الاسلام « بني الاسلام على خمس شهادة أن لا اله الا الله واقام الصلاة وايتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت من استطاع اليه سبيلا »

والمفروض من الصلاة في الاسلام خمس صلوات كتبهن الله في اليوم والليلة على الانسان المسلم البالغ العاقل بشرط استقبال القبلة وستر العورة والطهارة التي سبق شرحها والاتيان بالاركان الآتي بيانها قال النبي عليه الصلاة والسلام «خمس صلوات كتبهن الله على العباد فمن جاء بهن ولم يضيع منهن شيئاً استخفافا بحقهن كان له عند الله عهداً ان يدخله الجنة ومن لم يأت بهن فليس له عند الله عهد ان شاء عذبه وان شاء ادخله الجنة» ولله ما اجمل ما شبهها به صلى الله عليه وسلم في حديث آخر قال « مثل الصلوات الخمس كمثل نهر عذب غمر باب احدكم يقتحم فيه كل يوم خمس مرات فما ترون يبقى من درنه قالوا لا شيء قال صلى الله عليه وسلم فان الصلوات الخمس كمثل نهر عذب تذهب

بالذنوب كما يذهب الماء بالدرن» وفي حديث آخر «الصلوات
كفارة لما بينهن ما اجتنبت الكبائر»

وعدد ركعات الصلوات الخمس المكتوبة سبعة عشر ركعة
اثنتان للصبح ووقته من طلوع الفجر الصادق الى طلوع الشمس،
واربع للظهر ووقته من الزوال الى وقت العصر من امتداد ظل
الانسان قد قامته، واربع للعصر ووقته من امتداد ظل الانسان
قد قامته الى قرب غروب الشمس، وثلاث للمغرب ووقته
من غروب الشمس الى قرب غياب الشفق، واربع للعشاء
الاخرة ووقتها من غياب الشفق الى قبيل طلوع الفجر.

هذه هي الصلوات المفروضة التي أمرنا بالمحافظة عليها
والمثابرة على ادائها كما قال تعالى «حافظوا على الصلوات والصلاة
الوسطى وقوموا لله قانتين» وهي قد لا تستغرق من وقت
الانسان كله ساعة زمانية او ساعتين على الاكثر.

أما اركانها فاربعة عشر خصلة فرضاً واربعة عشر خصلة
سنناً فالاولى: النية، تكبيرة الاحرام، القيام لها، قراءة الفاتحة
القيام لها، الركوع، الرفع منه، السجود، الجلوس بين السجدتين
التسليم، الجلوس له الطمأنينة في جميع الاركان، الاعتدال ب...

الركوع والسجود على الجبهة وحال السلام، الترتيب اى مراعاة الاركان بحسب الترتيب السابق

أما السنن الاربعة عشر فهي : قراءة ولو آية بعد الفاتحة فى الركعة الاولى والثانية ، القيام لها ، الجهر بها في الصبح والجمعة والركعتين الاوليين من المغرب والعشاء ، الاسرار بها في الظهر والعصر وهذه السنن الاربع مخصوصة بالفرض ، كل تكبيرة بعد تكبيرة الاحرام ، قول سمع الله لمن حمده لامام وفذ حال رفعه من الركوع لا مأموم ، قراءة التشهد ونصه « المحفوظ للمؤلف المالكي المذهب » (التحيات لله ، الزكيات لله ، الطيبات الصلوات لله ، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، اشهد ان لا اله الا الله واشهد ان محمداً عبده ورسوله) وجلوس له ، الصلاة على النبي بعد التشهد الاخير وافضل صيغتها (اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم ، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم فى العالمين انك حميد مجيد) السجود على صدر القدمين والركبتين والكفين ، رد المقتدى السلام على امامه وعلى من

على يساره ويجزى فيه (سلام عليكم وعليكم السلام) بلا جهر، جهر بتسليمة التحليل، انصات مقتد في الجهر، الزائد على الطمأنينة بقدر الواجب

والمندوبات. نية الاداء، نية القضاء، الخشوع، استحضار عظمة الله تعالى وامتثال امره، رفع اليدين حين تكبيرة الاحرام حذو المنكبين وارسالهما بوقار وكره القبض في فرض، اكمال سورة بعد الفاتحة وكره تكريرها بذاتها في الركعتين بفرض، تطويل قرأة في الصبح ثم في الظهر لفذ، امام جماعة معينين طلبوه منه تقصيرها في العصر والمغرب، التوسط في العشاء، تقصير الركعة الثانية عن الاولى والمساواة جائزة، اسماع النفس في السر، قرأة في السرية خلف الامام، التأمين لفذ بعد الفاتحة، تسوية الظهر حال الركوع، وضع اليدين على الركبتين وتمكينهما منهما، نصب الركبتين

وندب التسبيح في الركوع بقول «سبحان الله العظيم وبحمده سبحان ربي الاعلى» وفي السجود، وندب فيه ايضاً الدعاء كما جاء في السنة، التوسط في المباعدة بين المرفقين عن الجنبين. قول الفذ والمأموم «ربنا ولك الحمد» بعد قول «سمع

الله لمن حمده » حال القيام اذ يعمر الرفع بقول «سمع الله لمن حمده » التكبير حال الخفض وحال الرفع من السجود الا فى القيام من التشهد الاول حتى يستقل قائماً فيكبر

وندب : تمكين الجبهة من الارض أو ما أتصل بها ، تقديم اليدين على الركبتين حال الانحطاط للسجود وتأخيرهما عن الركبتين حال القيام منه للقرأة ، وضع اليدين حذو الاذنين حال السجود وتوجيه الاصابع لجهة القبلة ، المجافاة بين المرفقين عن الركبتين والمجافاة بين الضبعين والجنبين بخلاف المرأة فتكون منضمة فى جميع احوالها هذه ، رفع العجزة عن الرأس بان يكون محل السجود مساوياً لمحل القدمين ، دعاء فى السجود بامور الدين أو الدنيا له ولغيره خصوصاً وعموماً بلا حد كالتسبيح وقد تقدم ، الافضاء فى الجلوس كله وهو جعل الرجل اليسرى مع الالية للارض وتقديم اليسرى نحو اليمنى قليلاً ونصب قدم اليمنى عليها وجعل باطن ابامها الى الارض ، وضع الكفين فى الجلوس على الفخذين بحيث تساوى رؤس اصابعهما الركبتين وتفريج الفخذين بخلاف المرأة ، عقد ما عدا السبابة والابهام أى الخنصر والبنصر والوسطى من اليد اليمنى فى حال التشهد

بجعل رؤوسها بلحمة الابهام مادا السبابة لجهة الامام كالمشير، تحريك السبابة في التشهد الى اليمين واليسار تحريكاً وسطاً

وندب القنوت في الصبح قبل الركوع الثاني ولفظه عند المالكية «اللهم انا نستعينك ونستغفرك ونؤمن بك ونتوكل عليك ونثني عليك الخير كله، نشكرك ولا نكفرك ونخنع لك ونخلع من يكفرك، اللهم إياك نعبد ولك نصلي ونسجد واليك نسعى ونحفد، نرجو رحمتك ونخاف عذابك ان عذابك الجد بالكافرين ملحق»

وندب دعاء باسرار وتعميم قبل السلام وبعد الصلاة على النبي السالف ذكر صيغتها وصيغته المشهورة عند المالكية كما في الشرح الصغير للامام الدردير «اللهم اغفر لنا ولوالدينا ولأئمتنا ولمن سبقنا بالايمان مغفرة عزما اللهم اغفر لنا ماقدمنا وما اخرنا وما اسررنا وما اعلنا وما انت اعلم به منا، ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الاخرة حسنة وقنا عذاب النار»

وندب التيامن بتسليمة التحليل اذا كان المصلي مأموماً أما الامام والفذ فيشير عند النطق بها للقبلة ويثنيها بالتيامن عند النطق بالكاف والميم من «عليكم» حتى يرى من خلفه صفحة وجهه

وندب سترة الامام والفذ لمنع المارين بمحل سجودهما ويأثم المصلي اذا تعرض بصلاته من غير سترة في محل يظن به المرور

وللصلاة مكروهات ومبطلات قد اضربت عنها لعدم التطويل كالضحك والقهقهة والكلام في الصلاة ونحو ذلك

ولقد ورد جواز الصلاة والمرء قاعد لمرض أو علة كما جاء جواز القصر والجمع فيها في حال السفر وحكمها في ذلك وبيانها مفصل في كتب المذاهب والسنة فليرجع اليها وكذا بالنظر الى السهو وسجوده «وترقيع الصلاة» به

وصلاة « الجمعة » فرض وخطبتها سنة قال تعالى في فرضها « يا أيها الذين آمنوا اذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فأسعوا الى ذكر الله وذروا البيع » وخطبتها السنة قد يستحسن فيها مع الاختصار والوضوح بيان المواعظ الوقتية والمهام العصرية مما يتعلق بالشؤون والمصالح الدينية والدنيوية ولا أقبح من حال خطباء العصر الجامدين فيما يتلون من خطب محفوظة عن أقوام مضت أيامهم وسلفت مصالحهم المباينة للمصالح العصرية وبذلك قد لا تحصل الفوائد المطلوبة والثمار المقصودة من سنة خطبة الجمعة ولا تؤثر أثرها الذى سنت من أجله ٠

وجملة القول أن فضل الجمعة كبير واجرها عند الله عظيم بل ويومها كاه يوم كريم مبارك يجب ان يصرف بعمل من العبادة مرضي من مثل تلاوة القرآن والذكر والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، والغسل فيه للخروج الى الصلاة صلاة الجمعة واجب والتزين والتجمل والتطيب مستحب ، وشروط الجمعة من الوقت والجماعة والخطبة وباقى سننها وآدابها الجميلة مستفيضة بها كتب السنة والفقه فلا أطيل فيها فى هذا المختصر .

والنوافل من الصلاة منها سنة مؤكدة ومنها مستحب ومنها تطوع وهى تختلف باختلاف المذاهب واستنباطات الأئمة المقتدى بهم مما لا يعد في الحقيقة اختلافاً يذكر فلأذكر منها ماهو على وجه العموم من اؤكدها وأفضلها كركعتى الفجر والسنن الرواتب عند كل صلاة ماعدا العصر فانه لا صلاة بعده ، وكذا ركعة الوتر في العشاء والتهجد بالليل فان له فضلا كبيراً قال تعالى مخاطباً الرسول للتشريع « ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسي أن يبعثك ربك مقاماً محموداً »

وصلاة العيدين عيد الفطر وعيد الاضحى بسبع تكبيرات في الركعة الاولى بما فيها تكبيرة الاحرام وخمس في الثانية بعد

تكبيرة القيام والخطبة بعد اداء ركعتيهما سنة

وصلاة الكسوف والخسوف للشمس والقمر ركعتان يطيل القراءة فيهما .

وصلاة الجنازة باربع تكبيرات وبلا ركوع ولا سجود والدعاء للميت

وصلاة التراويح في رمضان عشرون ركعة بعد العشاء

أما الصلوات المستحبة والتطوعات الجميلة في الليل أوفى النهار فغير داخلة تحت حصر أو قيد فللمرء شأنه بمقدار ممندوحة حاله ومبلغ رغبته فان شاء فعل وان شاء اكتفى بما فرض الله واكدته السنة .

والآذان للصلاة سنة والجماعة فى المساجد خصوصاً تفضل صلاة الفذ بسبعين درجة كما جاء فى الحديث الشريف وللامامة شروط وآداب جليلة

هذا ولقد تقدم أن من أجمل السنن في الصلاة حضور القلب في الصلاة والخشوع والخضوع والمحافظة على ادائها بأوقاتها «حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين» وقد جاءت الآيات والاحاديث الكثيرة فى تفضيل ذلك كله وفى

كراهية الذهول فى الصلاة وعدم مراعاة روحها من الحضور القلبي حتى لا ينال المرء من صلاته سوى تعب القيام والقعود دون نوال أجر أو ثواب أو ظهور أثر في تهذيب الاخلاق وتطهير الوجدان المقصود بالذات وما الصلاة الا الصلة بين العبد وبين الرب تعالى فلا يفوتن مسلم العناية بهذه الصلة وليحسن ربطها بالخشوع والاخلاص فيحسن الله تعالى كل حاله الحسى منه والمعنوى .

*
* *

أما فرض الزكاة زكاة الاموال على أفراد المسلمين والتى يريد جماعة من الاشتراكيين المصريين أن يرجع الى مثلها في ضرائب الاموال الاميرية والثروات القومية فى الامم العصرية فقد كلف الله بها عباده المسلمين للمصلحة لهم والنفع العائد اجتماعياً عليهم دنيا واخرى » فى الدنيا صلاح الامور الذاتية والعمومية[1] وضبطها والبركة والنماء فى الارزاق واعالة من تصرف اليهم بعض الزكاة من الفقراء فقراء الهيئة الاسلامية ، وفى الآخرة ثواب الله العظيم لعباده المحسنين العاملين للخير . والزكاة فرض عين

---

١ يراجع فى هذا الصدد كتاب حجة الله البالغة للشيخ احمد شاه ولى الدهلوى

على كل غني قادر بشرطه قال تعالى في الامر بالزكاة «أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة» وقال تعالى فى الامر بأخذها من المسلمين لمصالحهم «خذ من اموالهم صدقة تطهرهم» وقال تعالى فيما يكسب الراحة والبر الاجتماعي «لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون» وقال تعالى في مدح من يعرف حق الفقير من زكاة ماله «والذين فى أموالهم حق للسائل والمحروم» ولقد ضرب الله تعالى أحسن المثل لمخرجي زكاة اموالهم فيما يخلفهم به عنها من خير وبركة وثواب عظيم قال «ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت اكلها ضعفين فان لم يصبها وابل فطل والله بصير بما تعملون» وقال تعالى «ومثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبه والله يضاعف لمن يشاء» وجعل تعالى اخراج الزكاة والصدقات كالاقراض له تعالى المضاعف اجره «ان تقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعفه لكم»: «واقرضوا الله قرضاً حسناً وما تقدموا لانفسكم تجدوه عند الله هو خيراً وأعظم اجرا» وجعل عقاب مانع الزكاة شديداً «والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم يوم

يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لانفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون » ولله ما أبلغ هذا التقريع لمانعي الزكاة في الهيئة الاجتماعية

وتجب الزكاة على كل مسلم حر ولو غير بالغ ووجوبها والخراج والجزية قديماً على غير المسلمين للحول كالاموال الاميرية والضرائب الشخصية في النظامات الحديثة المالية وهي تحصر في النقود وعروض التجارة والنعم من الماشية وما يخرج من الحبوب أو الثمر اوالركاز فما يخرج من النقدين سواء كان ذهبا أو فضة ربع العشر (أي اثنين ونصف في المائة) ففي المائتين درهم خمسة دراهم وفي العشرين ديناراً نصف دينار وفي عروض التجارة وتقوم بما اشتريت به اذا بلغت قيمتها نصابا [١] ربع العشر أيضاً.

أما النعم فاذا كانت ابلا « فشاة » في كل خمس وهكذا الى خمس وعشرين فتكون زكاتها « بنت مخاض » [٢] من الابل الى ٣٦ ففيها « بنت لبون » [٣] الى ست واربعين ففيها « حقة » [٤] الى ٦١ ففيها « جذعة » [٥] الى ٧٦ ففيها « بنتا لبون » الى ٩١

(١) اى المقدار الذى تجب فيه الزكاة (٢) التى دخلت فى السنة الثانية (٣) وهي التي دخلت في الثالثة (٤) وهي التى دخلت فى السنة الرابعة (٥) وهى التى دخلت فى السنة الخامسة من سنها

ففيها حقتان الى ١٢٠ وفى ١٢١ الى ١٢٩ إما حقتان أو ثلاث بنات لبون فان زادت على ١٢٩ ففي كل عشر تتغير الفريضة أى الواجب فيجب فى كل ٤٠ بنت لبون وفى كل خمسين حقة ففي ١٣٠ حقة وبنتا لبون وفى ١٤٠ حقتان وبنت لبون وفى ١٥٠ ثلاث حقاق وفي ١٦٠ أربع بنات لبون وفي ١٧٩ حقة وثلاث بنات لبون وفى ١٨٠ حقتان وبنتالبون وفي ١٩٠ ثلاث حقاق وبنت لبون وفي ٢٠٠ اما اربع حقاق اوخمس بنات لبون

واذا كانت النعم بقراً ففي ٣٠ «تبيع» دخل فى الثالثة وفى ٤٠ «مسنة» دخلت فى الرابعة الى ٦٠ ففيها «تبيعان» الى ٧٠ ففيها «مسنة وتبيع» الي ٨٠ ففيها «مسنتان» وفي ٩٠ ثلاثة أتبعة وفي ١٠٠ «مسنة وتبيعان» وفى ١١٠ «مسنتان وتبيع» وفي ١٢٠ «ثلاث مسنات او اربعة أتبعة» والجاموس كالبقر في الحكم حكم الزكاة

واذا كانت النعم غنما ففى ٤٠ رأساً «شاة جذعة أوجذع» ذوسنة الى ١٢١ ففيها «شاتان» الى ٢٠٠ وفى ٢٠١ الى ٣٩٩ «ثلاث شياة» الى ٤٠٠ ففيها «اربع شياة» ثم في كل مائة شاة، والمعز كالضان. وليس على الخيل والبغال والحمير زكاة لحكمة انها معدة للنفع الذاتى أولانها من رأس المال المساعد وليست مصدر استغلال

في حد ذاتها ولانها لا ينتفع بلحومها والبانها وأشعارها كالماشية من النعم التي كانت مصدراً لثروة العرب ولم تزل في أنحاء كثيرة من العالم الاسلامي وغيره مصدراً ومستغلا للثروة العظيمة .

وزكاة الزرع مما أخرجته الارض بالسيح أو المطر ففيه العشر أو نصفه اذا سقيت بآلة وبلغ نصابه اى خمسة أوسق (٦٠ صاعاً) بشرط أن يقصد منه الاستغلال فالحطب والقصب والحشيش والسعف لا تدخل في الباب لفقدها الشرط الا اذا قصد بها الاستغلال في التجارة ، وكل حب لا يصلح للزراعة كبذر البطيخ والقثاء فلا زكاة عليه لكونه غير مقصود بنفسه وانما المقصود به البطيخ والقثاء وكذا كل تابع للارض كالنخيل والاشجار لانه بمنزلة جزء الارض والشريعة لم تقرر في مبداء الزكاة بحسب مقتضيات ذلك الوقت على العقار والارض (ماعدا الخراج على الاراضي الخراجية) لحكمة أن المنتفع بالاكثر من الزرع هو الزارع المستغل للحب ونحوه مالكا كان المزارع أو مستأجراً ولان في محصول الشجر من غير التمر والعنب مالا يقوم بمثل مستغلات الحبوب وما في حكمها مثلا ولان زكاة الاموال عامة وهي في نظر الشرع تؤخذ من مالك

نصابها فالمالك متى ما توفر لديه نصاب الزكاة من مستغل ما يملك من عقار أو نحوه وجبت عليه الزكاة والمزارع تؤخذ منه عشراً أو نصفه فى مستغلاته بحسب السياق السالف وبمقتضى قاعدته المتبعة حتى الآن فى طريقة أخذ الضرائب فى بلاد الدولة العلية

أما الركاز ففيه الخمس والركاز كما تقدم معدن الذهب والفضة المستخرج من باطن الارض

أما من تصرف اليهم الزكاة من أصناف الخلق فثمانية نص عليهم فى القرآن المجيد :

(١) الفقراء الذين لا يملكون الا شيئاً قليلا

(٢) المساكين الذين لا يملكون شيئاً ما

(٣) العاملون على الزكاة لتصرف فى وجوهها من عمال الامام أو الحاكم المخصصين لجبايتها وتحصيلها وتوزيعها بمعرفته على مستحقيها

(٤) المؤلفة قلوبهم على الاسلام لتقريرهم وترغيب غيرهم فيه

(٥) المكاتبون من الارقاء لاداء نجومهم فتفك رقابهم من ذل الرق

(٦) الغارمون الذين عليهم ديون استغرقت فى الطاعات

فيعطون من الزكاة بمقدار ما يسدون به غرمائهم

(٧) الغزاة في سبيل الله المدافعون عن الاسلام والذابون عن بيضته وبلاده ولو كانوا اغنياء يعطوا منها إعانة لهم وتنشيطا لهممهم

(٨) أبناء السبيل من السفار الذين انقطعوا عن أموالهم فيعطوا منها بمقدار ما يعيدهم الى أوطانهم [١]

وزكاة الفطر فى رمضان نصف صاع من بر أو دقيق أو زبيب أو صاع من تمر أو شعير وهو ثمانية أرطال أو مايقوم مقامها من نقود ويخرجها من ملك نصاباً من أي مال عن نفسه وعن أولاده الصغار وعبيده وتصرف هذه الزكاة زكاة الفطر في مصرف الزكاة الاصلية [٢]

أما الصدقة صدقة التطوع فسنة جميلة ومن أوكد أعمال البر الاسلامى وهى تصرف الى الفقراء فى أى وقت بلاقيد الملة والنحلة ولقد جاء في فضلها آثار جليلة قال عليه الصلاة والسلام «تصدقوا ولو بشق تمرة فانها لتسد من الجائع وتطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النار» وقال عليه السلام «ان صدقة السر لتطفىء غضب الرب» وقال فى حديث آخر «اتقوا النار ولو بشق

---

١ الصرط المستقيم للشيخ زناتي والشرح الصغير وغيرها

٢ الشرح الصغير وغيره

تمرة فان لم تجدوا فبكلمة طيبة » وقال عليه الصلاة والسلام «ما من عبد مسلم يتصدق بصدقة من كسب طيب — ولا يقبل الله الا طيباً — الا كان الله آخذا بيمينه فيربيها كما يربى احدكم فصيله حتى تبلغ التمرة مثل أحد» وقال فى حديث آخر «الصدقة على وجهها واصطناع المعروف وبر الوالدين وصلة الرحم تحول الشقاء سعادة وتزيد فى العمر وتقى مصارع السوء» وفى حديث آخر « اذا أردت أن يلين قلبك فاطعم المسكين وامسح على رأس اليتيم » (١)

وهناك في الاسلام ذلك المبدأ الخيرى العظيم من الصدقة الجارية بحبس الحبوس والاوقاف على المساجد والمدارس والمستشفيات والملاجىء الخ وهى من أجل أنواع الصدقات الجارية والقربات المفيدة فى الهيئة الاجتماعية ولها أحكامها وشروطها الحسنة فى الشريعة (٢) كما ان للزكاة والصدقات على انواعها حكمتها من اصلاح احوال الهيئة الاجتماعية

وحيث الامر كذلك فلا أحسن من مراعاة روح العصر فى تقريرها وصرفها فى وجوه البر والمنافع العامة فالضرائب

---

١ الجامع الصغير للسيوطى وغيره من كتب الاحاديث والسنن
٢ تراجع كتب الوقف الخصيصة وابوابه فى كتب الفقه الجامعة

الشرعية سواء على العقار كالخراج والاعشار أوعلى الاموال كالزكاة ونحوها تعتبر من اهمها لانها ركن اقامة المصالح الحكومية في الهيئة وعمار بيت المال والتضافر بالتصرف على امداد المدارس والمستشفيات والمساجد والملاجيء ليفضل صرفها على الكسالى والعطلة من الشحاذين أولئك الذين يسألون الناس الحافا وأولئك الذين يتخذون من مندوحة ذلك المبدإ الاسلامي خير وسيلة وفرصة لاحتراف الشحاذة والكدية مخالفين في ذلك أوامر الدين نفسه وللهيئة حيال هـذا حقها للضمان حتى لا تصرف صدقاتها الا في وجوه البر التي تصلح من شأنها في فقرائها وعجزتها لاما يكثر من كسالاها وعطلتها

***

أما الصيام فمن أعظم واشرف العبادات الدينية وأجمل الفرائض التي فرضها الله تعالى على عباده المسلمين في شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن، وهو امساك الانسان عن الاكل والشرب والجماع من وقت طلوع الفجر الصادق الى وقت غروب قرص الشمس وفرض الصيام مأخوذ من الاية الكريمة « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من

قبلكم لعلكم تتقون أياما معدودات فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر »(١)

والاحاديث فى فضل الصوم كثيرة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في خلوف فم الصائم وثوابه العظيم «والذى نفسى بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك، يقول الله عز وجل إنما يذر شهوته وطعامه وشرابه لاجلى فالصوم لى وأنا الذى أجزي به » وما شرف الصوم بالنسبة الى الله تعالى وان كانت العبادات كلها له تعالى كما شرف البيت الحرام بالانتساب اليه والارض كلها له الا لمعنيين أحدهما أن الصوم كف وترك وهو في نفسه سر ليس فيه عمل يشاهد وجميع أعمال الطاعات بمشهد من الخلق ومرأى والصوم لا يراه أحد ولا يطلع عليه الا الله عز وجل لانه عمل فى الباطن بالصبر المجرد وفيه قمع الشهوات التى هى وسائل الشيطان الى النفس

وواجبات صوم رمضان للمسلم العاقل الصحيح القادر منها دخول شهر رمضان وتبييت النية ويجزى فيها عند المالكية أول ليلة منه وعدم ادخال شيء الى الجوف عمداً والامساك

١ صحيح البخارى وكتب التفاسير

عن الجماع والامساك عن اخراج القيء عمداً .

ولوازم الافطار . القضاء ، الكفارة الفدية . أما القضاء فوجوبه عام على كل مسلم ترك الصوم لعذر من مرض وحيض وسفر ولا يشترط فى القضاء التتابع ، أما الكفارة فتجب في الجماع عتق رقبة فان أعسر فصيام شهرين متتابعين ، أما الفدية فتجب على الحامل والمرضع والشيخ الهرم اذا أفطروا عن كل يوم مد حنطة أو ما فى حكمه بشرط القدرة

أما السنن في الصيام فعدة سنن منها تأخير السحور وتعجيل الفطور وترك السواك من بعد الزوال وقيل بجوازه النهار كله عند المقتضي الشرعى والجود فى رمضان لحديث « انبسطوا فى النفقة فى رمضان فان النفقة فيه كالنفقة فى سبيل الله » و « من فطر صائماً كان له مثل أجره غير انه لا ينقص من أجر الصائم شيء » وهى من السنن الجميلة والآداب العربية النبيلة ومن جميلات تلك السنن فى هذا الشهر المبارك مدارسة القرآن والاعتكاف فى المساجد لا سيما في العشر الاواخر التي هى مظنة ليلة القدر التى هى خير من الف شهر ، وقيام رمضان بالتراويح ونحوها من السنن الجميلة لحديث « من قام رمضان

ايماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه في غير حقوق العباد»
كما هو مفهوم كل الاحاديث التي على هذا النمط

ومن أجمل الآداب في الصيام وأشرف الخلال ان يكف
المرء جوارحه فيه عن الرذائل الامر المطلوب في كل الاحوال
فبالأحرى في رمضان — فيكف الانسان عن الهذيان والكذب
والغيبة والنميمة والفحش والخصومة قال صلى الله عليه وسلم
« إنما الصوم جنة فاذا كان أحدكم صائماً فلا يرفث ولا يجهل
وان امرؤ قاتله او شاتمه فليقل اللهم انى صائم »

ولقد كره الاستكثار من الطعام عند تناول الافطار لانه
كيف يتدارك أمر كسر الشهوة المقصودة من الصيام اذا كان
يعوض المرء على نفسه فى الافطار عما فاته من الطعام فى نهاره
كله فضلا عن ان الاكثار مضر بالصحة بعد خلاء الجوف
نهاراً كاملا (1)

*
* *

تحفظ التقاليد الاسلامية وبعبارة اخرى التقاليد العربية
السامية لمكة والكعبة البيت الحرام مقاماً سامياً وذكرى كريمة

---

١ الشرح الصغير والاحياء للغزالى وغيرهما

ألا وهى ذكرى حادثة نقل ابراهيم خليل الله لابنه اسماعيل عليهما السلام وامه هاجر الي تلك البرية العربية ثم بناء البيت بيت الله الحرام وآذانه في الناس بالحج كما نص عليه القرآن المجيد

ولقد بقى أمر الحج الى البيت شائعاً فى العرب الى ان جاء الاسلام فأقره فريضة على كل مسلم قادر مراعيا فى ذلك المصلحة العمومية الدينية والسياسية من اجتماع خلق كثير من المسلمين سنويا فى صعيد واحد للقيام بهذا النسك وذكر الله وآداء هذه الفريضة ذات الفوائد الكثير وزيارة قبر النبي المصطفي النبي صلى الله عليه وسلم فى المدينة المنورة يثرب الفاخرة الزاهرة

والآثار فى فضل الحج كثيرة قال تبارك وتعالى اشهاراً لامر البيت وفضله وقدمه فى البيوت المقدسة «ان اول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين فيه آيات بينات مقام ابراهيم ومن دخله كان آمنا ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا ومن كفر فان الله غنى عن العالمين» وقال تعالى عن أمره لابراهيم بالحج «وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات علي ما رزقهم من

بهيمة الانعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق »[١]

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ثواب الحج «من حج فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته امه » وقال صلى الله عليه وسلم «حجة مبرورة خير من الدنيا ومافيها » «وحجة مبرورة ليس لها جزاء الا الجنة» والاحاديث في الباب باب فضل الحج والعمرة بالنسبة الى صلاح النفوس والاحوال أكثر من ان تحصر فى مثل هذا المختصر

أما شروط وجوب الحج وأركانه وآدابه . فشرط صحته الوقت والاسلام والحرية والبلوغ والعقل والاستطاعة ، ومن لزمه فرض الحج لزمه فرض العمرة ، وللاستطاعة حكمان وجود الراحلة والزاد وأمن الطريق. أما الاركان فخمسة الاحرام والطواف والسعي بين الصفا والمروة بعده والوقوف بعرفة في يومه ، وأركان العمرة كذلك خلا الوقوف بعرفة ، ويجوز الافراد بالحج والافراد بالعمرة والجمع بينهما ، ومن آداب الحج ان يغتسل عند الاحرام في ميقاته المشهور ويلبس ثوبى الاحرام .

---

١ يراجع الطبرى والرازى ونحوهما

الا بيضين تاركا ثيابه المخيطة وينوى عند السير عقب ذلك الاحرام بالحج أو بالعمرة أو بهما جميعاً معاً ويكفى مجرد النية والسنة أن يقرن بها لفظ التلبية « لبيك اللهم لبيك لا شريك لك لبيك ان الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك » وتدب تجديد التلبية بحسب تغير الاحوال وخلف الصلاة مع التوسط وعدم رفع الصوت حتى لا يبح

وهنالك آداب وسنن لطيفة فى دخول مكة وكيفية الطواف والسعي والوقوف فى المناسك كلها من عرفة ومنى ومزدلفة والنحر ورمى الجمرات لا يحتملها هذا المختصر وترى مبسوطة فى كتب الفقه وأسفار المناسك مناسك الحج الاسلامى .

أما زيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم فى المدينة المنورة مدينة يثرب دار هجرته ومكان قبره الشريف ومسجده المبارك وحرمه المكرم فواجب القيام بها عند القيام باداء فريضة الحج خصوصاً على ما سبقت به العادة الاسلامية ولقد قال النبي صلى الله عليه وسلم «من حج وزار قبرى فقد وجبت له شفاعتى » وفى حديث آخر « من زار قبري بعد وفاتى فكأنما زارنى فى حياتى »

*
* *

القرآن عندنا معشر أهل الاسلام كتاب الله الينا الذى أنزله على رسوله الكريم محمد صلى الله عليه وسلم بالوحي اليه به منجماً أى مقطعاً مجزأً فى بضع وعشرين سنة هى سنى النبوة الاسلامية وقد جمع فيه اصول شرعنا وإيماننا فهو عندنا كما وصفه رسول الله صلى الله عليه وسلم حبل الله المتين والهدى والنور والسراط المستقيم ، وإذ قد جمع الله فيه كل مايهمنا من اصول الدين ومبادىء الخير فى الدنيا والآخرة ومدد العقول والقلوب في الامور الاعتقادية والاجتماعية والادبية والعلمية فلا جرم كان واجب التلاوة والتعلم والاهتداء به فى الدين والدنيا عند كل مسلم. ولقد جاء في فضل القرآن وتلاوته بالتدبر والتمعن آيات واحاديث جمة قال صلى الله عليه وسلم « تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدى كتاب الله وسنتى » وقال عليه السلام « من قرأ القرآن ثم رأى ان أحداً أوتى أفضل منه فقد استصغر ما عظمه الله تعالى » وقال عليه السلام « أفضل عبادة امتى تلاوة القرآن » وقال صلى الله عليه وسلم « خيركم من تعلم القرآن وعلمه » وعن ابن مسعود قال « اذا أردتم العلم فانثروا القرآن فان فيه

علم الاولين والآخرين» وقال عمرو بن العاص «من قرأ القرآن فقد أدرجت النبوة بين جنبيه الا انه لا يوحى اليه» ولا غرو فالقرآن فيه الهدى والشفاء كما قال تعالى «وننزل من القرآن ما فيه شفاء ورحمة» وكما قال تعالى في اية اخرى «إن هذا القرآن يهدى للتي هي أقوم»

ولتلاوة القرآن آداب وفضائل جليلة لا على قاعدة من يتخذ تلاوته مهنة ومحترفاً مما قد يدخل في تلاوة الغافلين ولا على قاعدة من يتخذ بعض آياته ويدونها رقى واحجبة ووصفات عجائز فان هذا كله ليس من المراد من تلاوة القرآن بالتدبر والعمل بحلاله واجتناب حرامه في شيء بل هو كما هو مشاهد فيه من امتهان كلام الله تعالى القديم ما فيه وإنما المقصود بالتلاوة التلاوة الاسلامية الصحيحة المبنية على العبادة والاستفادة والاستمداد بروح القرآن في كل الشؤون لانها من أفضلها وأقربها للمبدإ الاسلامي ولهذه التلاوة عشرة آداب أو قواعد ضابطة:[1]

(١) ان يكون قارىء القرآن على وضوء واقفاً أو جالساً على هيئة الادب مستقبلا للقبلة خصوصاً

---

١ الاحياء للغزالي

(٢) ان يراعي الاكثار أو الاقلال بحسب ظروف الاحوال التي له وخير الامور الوسط للتأني المطلوب للتدبر والذكر سمعت عائشة رضي الله تعالى عنها رجلا يهذر بالقران هذراً فقالت « إن هذا ما قرأ القران ولا سكت » وما ورد عن بعض السلف من ان بعضهم كان يختم القران في الليلة أو نحو ذلك فهذا بحسب مبلغ اجتهادهم وتفرغهم ٠

(٣) وللسهوله لزمت قسمة القران في التلاوة بان يخصص المرء لكل يوم منه جزءاً أو اكثر أو أقل والقرآن كما لا يخفى مقسم بحسب الرسم العثماني الى أجزاء وأحزاب أحدثت في المصاحف لهذه الغاية من التسهيل في التلاوة ٠

(٤) الترتيل لقوله تعالى « ورتل القران ترتيلا » لان الترتيل مفيد على العموم للتفهم والتفكر ، ولقد وصفت أم سلمة زوج النبي عليه الصلاة والسلام قراءته للقران فاذا هي تنعت قراءته وتصفها مفسرة حرفاً بحرف . وقال ابن عباس رضي الله عنه « لان اقرأ البقرة وآل عمران ارتلهما وأتدبرهما أحب الىّ من أن اقرأ القرآن كله هزرمة »

(٥) إحضار القلب خشية ورهبة وشوقا وهو المقصود

لقول الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم «أتلوا القرآن وأبكو فان لم تبكوا فتباكوا» فاحضار القلب عند آيات الوعيد والزواجر خشية قد يملأ القلوب خشوعا وعظة كما قد يملأ هذا القلب فرحا ونشاطاً وشوقاً عند ايات الوعد والبشارة وأن الله لا يضيع أجر العاملين في خيرى الدنيا والاخرة وهذا كله يتبع أحوال المرء في قوة نفسه وأخذه واستحضار فكره وذهنه عند التلاوة وقوة الايمان.

(٦) مراعاة حق الآيات المختصة بالسجدة فيسجد لها سجدة التلاوة وفي القرآن كله أربعة عشر سجدة ولا يسجد الا على طهارة

(٧) افتتاح القراءة بالاستعاذة والبسملة : «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم» واختتامها بقول القارئ «صدق الله العظيم» وفى تضاعيف القراءة اذا مرّ بآية دعاء دعا إما بقلبه وإما بلسانه ، وكذا في آيات الاستغفار اذا مرّ بآية منها يستغفر وإن مر بآية رجاء سأل الله وان مر بآية خوف استعاذ بالله تعالى ، ولختم القرآن دعاء مأثور مشهور عن النبي صلى الله عليه وسلم وهو مثبت في آخر المصاحف العثمانية المتداولة .

(٨) الجهر بالقراءة لحد أن يسمع نفسه اذ القراءة عبارة عن تقطيع الصوت بالحروف ولا بد من صوت فأقله ما يسمع به المرء نفسه

(٩) تحسين القراءة وتزيينها بالصوت الحسن قال صلى الله عليه وسلم « زينو القرآن باصواتكم »

(١٠) القراءآت المشهورة سبع فللمرء أن يختار منها ماشاء ليقرأ القرآن بها وإن كانت اكثر المصاحف الحالية قد قصرت على احدها وهي قراءة أبي حفص عمر فلذلك يفضل لغير الفقيه الاقتصار عليها ناهيك وأنها من أفصحها .

ولا أطيل في الآداب الباطنة إذ القرآن كله مواعظ وحكم وعبر وبشارة ووعد ووعيد ودلائل آيات في خلق الكون بينات وكله متى التزم المرء فيه أدب التلاوة ولذة التدبر والتأمل بشوق وعزيمة وجد من نفسه لنفسه خشية وخشوعاً وحسن نظر وتدبر في صفات الله تعالى وأفعاله وعظيم قدرته وابداعه لمصنوعاته وجميل أفعاله وتصرفاته في خلقه ولطفه ومننه ورحمته وحكمته وعدله في ربوبيته ووحدانيته وتنزهه عن الشريك والمثيل والند والنظير وسيأتى مزيد إفصاح عن القرآن وتفسيره

خصوصاً في باب أدب العلم

*
* *

وليس بعد تلاوة القرآن ومدارسته في أدب العبادات أجمل ولا افضل من ذكر الله — ولذكر الله اكبر — والذكر باللسان وبالجنان وليس المراد بالذكر هنا تلك المجالس التي انحط فيها المسلمون لدرجة البدع والرقص على نشيد المنشدين أو نقر الدفوف فان هذا وأمثاله من اعمال جهلة المتصوفة خارج عما أنا بصدده البتة لانه ناد عما كان عليه السلف الاول ولا يناسب روح عصرنا الحالي وإنما المقصود بالذكر الذكر الذي أمرنا الله به من احضار القلب عظمة الرب وذكره وتسبيحه بناء على هذا بالقلب الخالص سواء في السر أو في العلن وسواء على انفراد أو في جماعة سيما عقب الصلوات مستصحباً المرء فيه الخشية والخضوع وطهارة الباطن خصوصاً أما ذلك الرقص والتغني بالقصائد المملوءة بالغزل والنسيب البارد والشخر والنخر والطبل والزمر فما هو الا البدعة بعينها والضلالة كل الضلالة

وأنت أيها المسلم العصري إذا تأملت بثاقب الفكرة قوله تعالى « الذين يذكرون الله قياما وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون

في خلق السموات والارض ربنا ماخلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار» علمت حقيقة هذا الذكر الذى عناه الله بقوله تعالى « ولذكر الله اكبر » وفهمت سره ومراد الله تعالى منه في امرنا به «واذكروا الله » و «أذكر ربك في نفسك تضرعا وخفية» لا ماأخذ القوم به من قشور وبدع وضلالات لم يجن منها الاسلام فائدة ما

ومن أفضل الذكر التهليل عند الوضوء والتسبيح عقب الصلوات والاستغفار « وبالليل هم يستغفرون» «ومن يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيما» والدعاء والضراعة الى الله تعالى لقوله تعالى «أدعونى استجب لكم » «أدعوا الله مخلصين له الدين» وقوله تعالى « فاذكرونى اذكركم واشكروا لى ولا تكفرون »

وأفضل الدعاء المأثور وللمرء أنه يدعو بما شاء من خير له ولغيره بشرط أن لا يتخطى ما أحل الله لعباده أو بما لا يخرج عن حد المعقول كما دلت عليه الآثار الشريفة خصوصاً عقب الصلوات وبالاسحار والليل الذى هو متجلى الرحمات ويدعو بأى اسم شاء من أسماء الله الحسنى «أياً ما تدعوا فله الاسماء الحسنى»

وللدعاء شروط وآداب كاستقبال القبلة ورصد الاوقات

الفاضلة والاحوال الشريفة وخفض الصوت بين المخافتة والجهر. وعدم تكلف المحسنات اللفظية من السجع أو الترصيع والتزام الخشوع والخضوع واستحضار القلب والتوبة من الذنوب ورد المظالم الى اهلها وتكرير الدعاء . كان صلى الله عليه وسلم اذا دعا دعا ثلاثا لحكمة التشريع في إلفات النفس الى ما هي بصدده من الامر والموقف العظيم فلا تغفل عن موقفها فتيقن بالاجابة وهو واجب الاعتقاد بشرطه — وتصدق الرجاء والامل وتعظم الرغبة والشوق ، قال صلى الله عليه وسلم « أدعوا الله وأنتم موقنون بالاجابة وأعلموا ان الله عز وجل لا يستجيب دعاء من قلب غافل »

وورد في الكتاب والسنة الامر بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، قال تعالى « ان الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما » والصلاة من الله تعالى الرحمة ومن الملائكة الاستغفار (يستغفرون لمن في الارض) ومن الناس الدعاء وجاء في الحديث «من صلى عليّ واحدة صلى الله عليه عشراً ومن صلى عليّ عشراً صلى الله عليه مائة » وصيغ الصلوات كثيرة افضلها المأثور في كتب السنة المعتمدة .

الباب الثالث

(أدب العلم)

شرف الانسان — فضل العلم — فضل التعليم والتعلم — العلم فى الصغر — تفاضل العلوم — ابتداء أمر العلم فى لاسلام — العلوم التي اشتغل بها المسلمون — المقدار اللازم من العلم الذى هو فرض عين — ادب التوحيد — الفقه — علم التفسير — علم الادب — العلوم الآلية — ما يلزمنا الآن معاشر المسلمين بالنظر الي الجمهور

يمتاز الانسان عن الحيوان الاعجم بقوة العقل والفكر والنطق وهذه الميزة والكرامة من الخالق جل شأنه تجعل الانسان جملته اهلا للخلافة اى السيادة على الارض يستعمرها ويسود عليها ويستخدم مواليدها وقواها الطبيعية فى شؤونه بالعمل والكدح ولذلك كان من أهم واجباته أن يستزيد مما يقربه ويسهل عليه مهمته هذه ولا شيء ينيله ذلك غير وسائل العلم والمعرفة ولهذا جاء الدين الاسلامي حاثاً على العلم آمراً به موجبا له كفرض عين على كل مسلم فى امري الدين والدنيا حتى يعلم الانسان المفروض عليه فى اعتقاداته وعباداته وامر معاشه فى الهيئة وأدب الاجتماع البشرى واصلاح هذه الدنيا التى ينتفع بها واتقان ذلك بالعلم والمعرفة وفى هذا منتهي الشرف والرفعة

لنوع الانسان وتفاضله من اجلها بين بعضه البعض وكتاب الله تعالى ناطق بفضل العلم والعلماء « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » « انما يخشى الله من عباده العلماء وقال صلى الله عليه وسلم « فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب » وقال عليه السلام « الايمان عريان ولباسه التقوى وزينته الحياء وثمرته العلم » وقال ايضاً « اذا أتى عليّ يوم لا ازداد فيه علما يقربنى من الله عز وجل فلا بورك لى في طلوع شمس ذلك اليوم » وقال ايضاً عليه السلام « العلماء ورثة الانبياء » وفى حديث آخر « من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين ويلهمه رشده »

وقال الامام على رضى الله عنه لكميل «يا كميل العلم خير من المال العلم يحرسك وانت تحرس المال والعلم حاكم والمال محكوم عليه ، والمال تنقصه النفقة والعلم يزكو على الانفاق » وقال الزهرى « ماعبد الله بشيء افضل من العلم »

هذا قل من جل مما قيل فى فضل العلم على الاطلاق وماقيل عند أهل الاسلام فى فضل التعلم والتعليم بالتبعية لذلك. هو ايضا كثير قال تعالى « ومن أحسن قولا ممن دعا الى الله

وعمل صالحا » ولا شك ان الدعوة الى الله تعالى لا وسيلة لها الا بالعلم والتعليم اللذين ثمرتهما العمل ولقد حث القرآن المجيد على نشر العلم وطلبه قال تعالى « فلولا نفر من كل فرقة نفر ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون » وقال تعالى « واذ اخذ الله من النبيين ميثاقهم لتبيننه للناس ولا تكتمونه » أراد به الله تعالى نشر العلم أو ما هو من أخصه معرفة الله تعالى وشرائعه

وقال تعالى «أدع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة»

وما الحكمة والموعظة الحسنة الا العلم الجامع الشامل لخيرى الدنيا والدين كالذى يطلب اليوم وينشد من « جامعات العلوم » و « كليات المدارس » وهذا هو منتهى الفخر والسؤدد الذى جاء للترغيب في الاستزادة منه « قل رب زدنى علما » وجاء في الحث على طلب العلم « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » وحديث آخر « اطلب العلم ولو بالصين » وحديث « طلب العلم افضل عند الله من الصلاة والصيام والحج والجهاد في سبيل الله عز وجل » وحديث « افضل الصدقة ان يتعلم المرء المسلم علما ثم يعلمه اخاه المسلم » وهاك حديث آخر دال على فضل

العلم وطالبه « ان الملائكة لتضع اجنحتها لطالب العلم »

والآثار فى الباب باب مدح العلم والتعلم كثيرة لا يكاد يحصيها مثل هذا المختصر ولقد شبه بعض العلماء حاجة الانسان الي العلم بحاجة المريض الى الدواء فالعلم ضرورى للنفس والتعلم واجب على المرء ولقد قال الامام على كرم الله وجهه « ليس الخير ان يكثر مالك وولدك ولكن الخيران يكثر علمك » وسئل ابن شهاب أأفضل العلم أم العمل فقال «العلم لمن جهل والعمل لمن علم » وقال الشافعى رضي الله عنه « طلب العلم أفضل من صلاة النافلة »

وأفضل العلم مالقن في الصغر لانه يكون كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « العلم في الصغر كالنقش في الحجر » وقال عليه السلام فى الترغيب فى تعليم الاطفال « ما نحل والد ولده نحلة أفضل من ادب حسن يفيده اياه أو جهل قبيح يكفه عنه ويمنعه منه » وقيل « من أدب ولده فقد أرغم ضده ومن لم يجلس فى الصغر حيث يكره لم يجلس فى الكبر حيث يحب » لكن اذا كانت هذه الدنيا من المهد الى اللحد دار عمل وكدح وتجربة وتعلم لذلك لم يكن لامرىء بد فيها من الاستزادة من

العلم والنور وقد مرّ بك قوله تعالى « وقل رب زدني علما » والحديث الشريف « اذا أتي عليّ يوم لا أزداد فيه علماً ولا بورك لى فى طلوع شمس ذلك اليوم » مع ان مقامه صلى الله عليه وسلم أرفع من ان يحتاج فيه الى التعليم الدنيوي وانما حكاه للتشريع ككل ماجاء مثله للتشريع للامة وتعليمها وارشادها حتى لا يقعد بالكبير والعظيم همتهما دون الاستفادة والاستزادة من علم ينفع وحكمة تلتقط وعمل جليل يختار ، ولقد سأل بعض الناس عالما عظيما من السلف الصالح « أيحسن بى أن أتعلم وأنا كبير — فقال له ذلك العالم على الفور — اذا كان يحسن بك ان تعيش فانه يحسن بك أن تتعلم » وكان [illegible] وهو فى التسعين من سنيه « وددت لو أحسن العربية »

فالعلم والعمل به هو السعادة الابدية لانه وسيلتها العظمى ونقطة ارتكازها الكبرى فى الدنيا والآخرة بل هو مطية السعادة الذاتية ومنتهى لذة الحياة وتقدمها ولقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث شريف « من طلب الدنيا فعليه بالعلم ومن طلب الآخرة فعليه بالعلم » وقال في حديث آخر « إنما العلم بالتعلم وإنما الحلم بالتحلم من يطلب الخير يؤته ومن يتق الشر

بوته » ولا شر شر من الجهل [1]

***

والعلوم البشرية تتفاضل بحسب الفائدة التي تحصل منها والثمار التي تجنى وزيادة النفع بالنسبة الى الظروف المحدقة والمقتضيات الزمانية غير ان ما كان على العموم من العلوم والمعارف أمس ّ بأحوال الناس الاجتماعية وألصق بأمورهم النفعية كالشرائع والآداب ونحوها عد أشد وجوباً من غيره في التعليم ثم يأتي بعده الامثل فالامثل من العلوم والمعارف البشرية مرتبة بحسب مراتبها النفعية كالطب لحفظ صحة الابدان وكالحساب والهندسة للزومهما في قيام مصالح وعمارة هذا العالم ثم العلوم الكونية الطبيعية لمعرفة ما في الكون من عجائب وغرائب وقوى واسرار ومنافع ناهيك بأن فيها وفي نواميسها الدقيقة المحكمة النظام والترتيب اجل براهين وجود الصانع تعالى وبديع حكمته .

ولقد جعلت الشريعة الاسلامية العلوم والمعارف درجات بعضها فوق بعض فكان منها بمقتضي هذا الترتيب ما تعلمه في نظر الشريعة « فرض عين » كالعقائد والشرائع التعبدية وبعض

---

١ الاحياء والجمع الصغير وغيرهما

التعاملية والآداب النفسانية ومنها ما هو « فرض كفاية » اذا
قام به البعض سقط عن الآخرين كالهندسة وكالطب الى اشباه
ذلك فترى من هذا ان الدين الاسلامي قد أحكم الاختيار في
تحرى العلوم بالنظر الى مصالح البشر الصحيحة مما يعتنى له وينشده
علماء العصر في تبسيط امهات الشرائع والآداب العملية الى
اشباه ذلك لانهم يرونها كما رأتها من قبل مبادئنا الاسلامية من
لوازم البشر فى اجتماعاتهم بالنسبة الى العلوم فى درجة نفعها
ولزومها لسير العمران من اصول الآداب الاجتماعية والشرائع
ثم وسائل ذلك من اصول المعارف الاخرى الضرورية ثم تخصيص
العلوم العالية والتعمقات الفنية بفئات مخصوصة كالتى هى فى حكم
الفرض الكفائى في شريعتنا الاسلامية

ولما كان المسلمون قلالا ولأول عهدهم بالحضارة الاسلامية
كان تحصيل العلم بينهم قاصراً على فهم امور الشريعة وآى القرآن
واستنباط الاحكام منها ومن السنة بالتلقين والرواية والحفظ
دون اهتمام بتدوين كبير لها فى الاسفار والكتب ولكن لم يلبث
الحال طويلا على ذلك حتي غيروا تلك الحال بأرقى منها فكثر
تعلم الخط العربى بينهم ودوّنت من ثمّ الكتب والاسفار الجليلة

فى سائر العلوم وصار تعليم العلم صناعة من بين الصنائع تكثر وتقل بحسب الظروف المحدقة بالهيئة الاسلامية فى تقلباتها المختلفة

واكثر أصول العلوم التى يشتغل بها المتأخرون قد أولاها المسلمون من قبل عنايتهم واشتغلوا بها بقدر طاقتهم ومبلغ ما اقتضته تقدمات عصورهم ورقي أزمنتهم وسعة معارفهم ولكن أيام دولة ورجال وحال من الرقى يناسب الحال .

أما العلوم الفقهية فقد وفوها حقها بما لا مزيد عليه لمستزيد اصولا وفروعا بالنظر الى ما ناسب وقائع زمانهم وظواهر حوادثه وكذا العلوم الكلامية من العقائد والالهيات . على تقسيم تفسير القرآن وعلوم الحديث حديث رسول الله صلى الله عليه [illegible] الاخلاق وآداب النفوس والسلوك على طريقة الصوفيه أو على طريقة الفلاسفة اليونانيين ثم علوم اللغة العربية من النحو والصرف والمعانى والبديع والبيان واللغة والشعر وأدواته ثم المنطق والفلسفه والجدل ثم الطبيعيات والرياضيات والطب والفلك أو الهيئة مما يدلنا على ان قومنا وسلفنا الصالح الاول لم يفتهم شيء مما يشتغل به أهل الغرب اليوم من العلوم والمعارف الا بمقدار ما [illegible] أبناء العصور المتأخره بمقتضى ناموس الارتقاء و[illegible] الاساليب

والاكتشافات والاختراعات التي انبنى عليها نسخ كثير من آراء المتقدمين واقوالهم لا في الاصول الحقة الثابتة ولكن في الآراء الطارئة بحسب تلك المكتشفات في العلوم الطبيعية خصوصاً .

وحيث أني هنا بصدد بيان أدب الاسلام وبعبارة اخرى بصدد ما بني عليه من الاصول الحقة والامور العامة الداخلة في الادب الاجتماعي الانساني والتمدن البشري وبيان واشتغل به المسلمون قديماً وما تأدبوا او ترقوا بتحصيله من فروع العلوم البشرية اللازمة وفاق ما رأوه في ترتيبها وأهميتها من الوجهة النفعيه والمكانة العملية بحسب أحوال الهيئة الاجتماعية الاسلامية في تلكم العصور الماضية خصوصاً فلنكتف اذن بسرد بيان أهم فروع تلك العلوم التي اشتغل بها المسلمون مبتدئين بالعلوم الخصيصة منها بالالصاق بالدين فأقول .

الاول التوحيد — اختلف علماء الملة قديماً في بيان العلم الذي هو فرض عين على كل مسلم بالغ عاقل فقال الفقهاء هو الفقه المبين للشرائع المبينة للحلال والحرام وسائر المعاملات خصوصاً ، وقال أهل التفسير وأهل الحديث هو علم الكتاب وعلم السنة إذ بهما يتوصل الى العلوم كلها ، وقال المتصوفة

والاخلاقيون هو علم العبد بحاله ومقامه من الله تعالى والاخلاص له وآفات النفوس وتزكيتها من الارجاس والرذائل ، وقال العالم أبو طالب المكي هو العلم بما تضمنه حديث بنى الاسلام على خمس الذى سبق ذكره وهذ الذى اختاره اكثر أجلة المتكلمين فيكون من أدب الاسلام ان أول ما يجب معرفته من الفروض العينية « التوحيد » ثم « الفقه » وهذا وذاك يقتضى النظر فى كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم فوجب «التفسير» ووجب «الحديث» واذ كان كل هذا فيما ظهر من أفعال العباد والمقصود بها جميعاً تزكية الباطن مع الله تعالى ذلك الذي جاء فيه الحديث الشريف « من أحسن فيما بينه وبين الله كفاه الله ما بينه وبين الناس ومن أصلح سريرته أصلح الله علانيته » فمن ثم لزم الوقوف على آداب النفوس والعمل على تزكيتها لتنال حقيقة السعادة ونحن اذا نظرنا الى باقي العلوم الشرعية وما بنى عليها من العلوم الآلية والتى جعلت كالوسيلة اليها وجدنا انها كلها متسلسله الحلقات مفتقر بعضها الى بعض فى أدب الاسلام بالمقدار المناسب للكافة في صلاح احوالهم وبالقدر الواجب للخاصة من أربابها فى صناعاتها وهذا بعينه ما تراه فى احوال

المتأخرين فيما رأوه ضروريا من انواع العلوم والمعارف فالشرائع والآداب والمعارف الضرورية لاستصلاح أحوال العالم لا بد من ان يلم أبناء الهيئة كلهم بالمبادىء الاولية الضرورية منها من الوجهة العملية خصوصاً على مثال ما نراه في التربية المصرية عند المتأخرين فيما يحتاجون اليه من العلوم والمعارف النافعة في التربية العمومية اما التعمق والتبحر فى الاصول والفروع منها فيختص بأرباب الفن القائمين به والذين هم قادة وهداة لغيرهم فيه

*
* *

لقد تقدم في اول هذا الكتاب في باب «أدب الاعتقادات» جملة مما فيه الكفاية من الوجهة العملية والنظرية فى «التوحيد» فيما يتعلق بمبدئه اسلامياً أما تعلمه والتأدب به بحق الكافة من المسلمين كلهم يجب تعلمه لانه فرض عين على كل مكلف فينحصر في معرفة العقائد الدينية واجبها وجائزها ومستحيلها بحق الذات العلية ذات الله تعالى القدسية ثم ما يتبع ذلك من العقائد وحكمه كما ترى الوجوب العيني على كل مكلف من ذكر وانثي واولها معرفة الصفات العشرين الواجب اعتقادها بحق الله تعالى وهى [1]

---

(١) الاحياء للغزالي وشروح السنوسية في التوحيد

الوجود ، القدم ، البقاء ، مخالفة الحوادث ، قيامه تعالى بنفسه ، الوحدانية ، القدرة ، الارادة المتعلقتان بجميع الممكنات العلم المتعلق بالجائز والمستحيل ، الحياة ، السمع ، البصر المتعلقان بجميع الموجودات ، الكلام الذى ليس بحرف ولا بصوت ويتعلق بما تعلق به العلم ، وباقيها وهى سبعة تتعلق تعلق ملازمة بالصفات السبع الاخيرة السالفة الذكر ويقال لها الصفات المعنوية وهي كونه تعالى مريداً ، عالماً ، حياً ، سميعاً ، بصيراً ، متكلما

أما الصفات المستحيلة فى حقه تعالى فهى العشرون صفة التى تضاد الصفات السالفة اى : العدم . الحدوث . الفناء . المماثلة للحوادث . عدم القيام بالنفس . التعدد أو التركيب . العجز عدم الارادة . الجهل . الموت . العمي . الصمم . البكم الى آخر ما يقع مضاداً للصفات العشرين الواجب التأدب باعتقادها اسلامياً بحقه تعالى

أما ما يجب اعتقاده بحق الرسل عليهم الصلاة والسلام فالصدق والامانة تبليغ ما أمروا به للخلق ، ويستحيل فى حقهم اضداد هذه الصفات من الكذب والخيانة بنقل شيء نهوا عنه نهى تحريم أو كراهة او كتمان شيء مما أمروا بتبليغه للخلق وقد نص القرآن في غير موضع منه على تلك الاحوال للرسل وامثالها

« وما ينطق عن الهوى » « ولو تقول علينا بعض الاقاويل لاخذنا منه بالوتين » الى اشباه ذلك من الآيات.

ويلحق بذلك تصديق ما اخبروا به من احوال الآخرة من الحشر والنشر والجنة والنار الى آخر ما تراه مبسوطاً في كتب العقائد الموضوعة للكافة والمبرهن عليها عقليا ونقليا وقد تقدم شيء منها في اول الرسالة

أما الفقه من العبادات والمعاملات الشرعية فلازم أيضا لابناء الهيئة لزوم التوحيد اصولاً للتشريع وفروعا للعمل لان الاسلام إيمان وتصديق بالقلب واللسان ثم عمل بالأركان وحكم هذا الفقه الوجوب العيني في فروعه العملية بقدر مايعرف المرء به تصحيح عباداته وما في حكمها من معاملاته واحواله الشخصية اللازمة لكل انسان في الهيئة أما مازاد على هذا القدر أصولا وفروعاً فحكمه الوجوب الكفائي ولعمر الحق ان هذا هو اسمى مايطلب لصلاح أحوال الكافة لان تفرغهم ذلك التفرغ العظيم المطلوب لما هم بصدده من الاعمال والمهن وطلب الارزاق والسعى بهذا كله في عمار العالم موجب كله لهذا قاض به بطبيعة الحال فصار انقطاع الفقهاء والمتشرعين من العلماء لما هم بصدده من

الاصول الفقهية والفروع المستنبطة وتسهيل ورودها على الناس
في حل مشكلاتهم ومعضلاتهم وتنظيم شؤونهم مهنة لهم لازمة
للهيئة الاجتماعية فى كل عصورها على حسب مقتضيات احوالها
كما صار ماهو فرض عين من الفقه لازماً لكل مكلف لصلاح أمر
دينه ودنياه بحسب تلك المقتضيات الزمانية حتى تكون الهيئة
الاسلامية على الدوام في ترق مستمر تبعاً للاحوال والظروف
ولهذا على مايقول الفقهاء والاصوليون اصل كبير في الدين

واقد مرّ بك جملة صالحة مما هو فى حكم الفرض العينى
من الفقه في باب أدب العبادات من هذه الرسالة بمقدار ماوسعه
نطاقها ولا حاجة هنا الى المزيد وهناك من الكتب فيه على اختلاف
المذاهب ما لا يقع تحت حصر وان كان ينقصنا منها « كتب
عصرية » تناسب روح الزمان فى اساليبه واذواقه و«احواله»
حتى يسهل ورد الشرع حياً على كل وارد من الكافة من المسلمين
المتعطشين لذلك المحتاجين اليه أيما احتياج ولا إخال أحداً من
ابناء العصر المهذبين الا وهو يشعر بحاجة الامة الى ذلك ويلوم
القائمين بزعامة العلم الشرعى على جمودهم واكتفائهم بالحواشى
والتقارير والشروح القديمة التي قد لا تناسب فى تطبيقاتها احوالنا

الحاضرة ولقدقال بعض قضاة الجزائر الحاليين ان الشرع الاسلامى غير واقف وانما هو ككل اشياء هذا العالم في ارتقاء مستمر عل ان الذي ينقصه انما هو الهمة والعزيمة من أهله حتى يجلى عن شأنه ويستوفى حقه فى الاخذ بيد الامة في تقدماتها واشيائها الحالية ولا يرمى بالنقص عن الكمال من جماعة الباحثين الغربيين

أما التفسير تفسير كتاب الله تعالى القرآن المجيد والذكر الحكيم الذى لا يفرغ جديده بالكشف عن معانى آياته واسرارها الصالحة لكل زمان ومكان لانها قد استوفت الاصول العامة للشرع والعقائد والآداب الاجتماعية السامية وتأويلها بحسب ما يظهر منها لذوى النهى وارباب البصائر من الراسخين في العلم والحكمة من أبناء الملة الاسلامية فحكمه الوجوب الكفائى لأهل العلم الاختصاصيين وبعبارة اخرى لأولئك العلماء المتبحرين في كل فن من اللغة والشريعة والعلوم الطبيعية والفلسفية بحسب مبلغ اطلاعهم فى أزمنتهم على الحقائق والوقائع العمرانية والحوادث الكونية [1] ولهذا حذر الشارع الحكيم من تأويل القرآن بالرأى وقال تعالى تنبيهاً على هذا المبداء «لا يعلم تأويله الا الله والراسخون

---

(١) قد حاز قصب السبق فى الباب الامام الرازى فى تفسيره الكبير

فى العلم » حتى لا تصرف معانى الآيات الى أحوال وآراء قد
ترى ببداهة العقول ومواقع الآيات وتناسبها وأسباب نزولها
انها قد صرفت في غير حقها من المعنى الصريح أو التأويل الرجيح
كما قد وقع فيه الكثير من الصوفية وأرباب الاشارات الامر الذي
قد يبدو لعين كل ناقد مطلع على تفسيراتهم وتأويلاتهم

على ان هذا ليس بمانع ان يكون في الآيات القرآنية معان
غير مافهم منها بظاهر التفسير أو معان أخرى تناسبها منه
وقصدها الله تعالى حتى تتساوى العصور في الاخذ والاستنباط
من القرآن حكمة من الله تعالى وفضلا والقرآن كما قيل « هو
السهل الممتنع والقديم الذى لا تفرغ جدده » قال حجة الاسلام
الغزالى رحمه الله تعالى[1] «من زعم ان لامعنى للقرآن الا ما ترجمه
ظاهر التفسير فهو مخبر عن نفسه وهو مصيب في الاخبار عن
نفسه ولكنه مخطىء فى الحكم برد الخلق كافة الى درجته التى هى حده
ومحطه بل الاخبار والآثار تدل على ان في معانى القرآن متسعاً
لارباب الفهم. قال على رضي الله عنه « الا ان يؤتى عبداً فهماً
فى القرآن » فان لم يكن سوى الترجمة المنقولة فما ذلك الفهم؟

(١) الاحياء للغزالى

وقال صلى الله عليه وسلم «ان للقرآن ظهراً وبطناً ومطلعا »[1]
وفى هذا كفاية لقوم يعقلون ونحن بأشد الحاجة الى تفاسير
تطبق فيها المكتشفات العصرية والحقائق العلمية على الآيات
القرآنيه ثم تأويل بعض آيات يفهم منها بحسب الظاهر مايخالف
المعهود المألوف تأويلا يشفى الصدور ويقنع العقول مما هو من
مصلحة الامة وشد أزر دينها تبعاً لسنة الارتقاء التى شملت
كل العناصر خلا امثال هذا الباب على نحو ما أشرت اليه بالنظر
الى الفقه وحاجة الامة الى كتب عصرية فيه مما هو من أشد
موجبات الأسف ولوكان فسح الله تعالى فى اجل الامام المرحوم
الشيخ محمد عبده لاتم تفسيره العصرى ذلك الذى لم يظهر منه
غير قطع ونتف قليلة ولبل بهذا الصنيع صدأ الامم الاسلامية
فى جميع أقطار العالم

أما علم الادب — أدب النفوس وتهذيب الاخلاق العملية
فهذا أيضاً مما تجب مدارسته على انفراد وان كان مندمجا فى
الاخلاق الدينية للوقوف على الرذائل لاجتنابها والوقوف على
الفضائل للعمل بها . وهو يقسم الى أدب مع النفس وادب

(١) راجع أيضا الاتقان السيوطى ففيه شيء كثير يؤيد ذلك او يخالفه اه

مع الخلق وادب مع الخالق وسيأتي فى باب ادب النفس من هذا المختصر جملة صالحة منه بقدر ما يحتمله المقام .

ويدخل فى هذا الباب علم التصوف من مجاهدة النفس وتزكية القلوب والاعراق بطريق الرياضة والتأدب بحضرة الرب تعالى وتصفية الباطن والظاهر من الأكدار في جميع الشؤون كما قال الشاعر ملمحاً

ليس التصوف لبس الصوف ترقعه ولا بكاؤك ان غنى المغنونا
ان التصوف ان تصفو بلا كدر وتتبع الشرع والقرآن والدينا

فالتصوف على هذا فرع علم ادب النفوس لهذا طلب قديما لذلك لانه كما قال احد مشايخه الشيخ قاسم الخالى « انه الوقوف مع الآداب الشرعية ظاهراً وباطنا » على ان القوم لما غيروا وبدلوا وتوسعوا وتطرفوا وتشددوا وتعمقوا لهذا كله خرجوا عن المبدأ الصحيح والغاية الحميدة خصوصا متأخرو المتصوفة فنهجوا نهجا مخالفا للشرع وخبطوا خبط عشواء في دياجير البدع والجبر المحض مما جعل الادب والكمال الشرعيين المطلوبين فى علمهم هذا فى واد وهم باعمالهم وافانينهم في واد آخر غير ذى زرع ولقد جاء في الحديث الشريف هذه الحكمة العاليه الكاشفة

« إياكم والتعمق فى الدين فان الله جعله سهلا فخذوا منه ماتطيقون فان الله تعالى يحب ما دام من عمل صالح وإن كان يسيراً »

اما العلوم الآلية التى هى وسائل ووسائط لفهم اسرار الدين ومعانى وبلاغات القرآن وحكمه واحوال النبوة واحاديث سيد الخلق عليه الصلاة والسلام ثم تسهيل فهم العلوم الدنيوية فقد حدثت بالضرورة بعد ذلك العصر من النبوة وتطلب العقول والرقى الاسلامي للمتسع من الاحوال والتقدمات العلمية فشاع الخط العربى والقراءة والكتابة تلك الاشياء التي هى ضرورية لكل انسان ووضع علم النحو والصرف واللغة والمعانى والبيان والبديع والعروض والقافية بالنسبة الى الشعر وتشبثت العقول بتعلم الحساب والجبر والهندسة والفلك لضرورتها فى احوال الخلق وتصرفهم في الشؤون العمرانيه الحسية والمعنوية والطب ذلك الفن الذى عليه حفظ صحة ابدان افراد الهيئة ومداواتها من الامراض الطارئه والاسقام اللاحقة ثم العلوم الطبيعية لمعرفة اسرار مواليدها والتاريخ وتخطيط البلدان وتدوين الاخبار والآداب وقول الشعر وفن الموسيقى (١)

---

(١) مقدمة ابن خلدون وغيرها

فهذه منها ما هو واجب تعلم مبادئه على كل انسان ومنها ما يخلق بان يدخل فى حكم الفرض الكفائى والكمال العمراني فيختص به أرباب الفن الاختصاصين حتى تنتظم أحوال العمران البشرى وللسلف من اهل الاسلام من كل آثار جليلة وفي كل مآثر غراء وأياد بيضاء بقدر ما احتمله حالهم واقتضاه نفعهم ومصالحهم من معقول العلوم ومنقولاتها

والذى يلزمنا نحن ان نتأدب به معاشر اهل الاسلام المصريين في هذا العصر من جهة اكتساب العلوم وتحصيل المعارف اللازمة لرقينا ورقى هيئآتنا هو ان نحرى بسوادنا الاعظم الاحاطة بالمباديء الدينية التى هى فرض عين ثم من جهة اخرى ان نتعلم مبادىء العلوم الآلية الضرورية من الخط ومبادىء اللسان والحساب وشيء من دروس الاشياء وأدب النفس حتى يدخل احدنا غمار هذه الحياة وهو على شيء ويزاول فنه الخصوصى وهو على جانب من المعرفة والعلم الضرورى والعلم كما قال الشاعر :

العلم يحيي نفوساً قط ماعرفت من قبل ما الفرق بين الصدق والمين
للعلم للنفس نور يستدل به على الحقائق مثل النور للعين

﴿ الباب الرابع ﴾

(أدب العمل)

شرف وظيفة الانسان — فضل السعي في الدنيا — الخلق مسخرون في اعمالهم بصفة مخيرين — مبداء الصناعة البشريه — حكم الصناعة في الاسلام — الحث على اتقان الصنائع — امهات الصنائع — الفلاحة — صناعة البناء وفن العمارة — النجارة والحدادة — الوراقه حرفة التجارة — صناعة النقل — الخدم — صناعة التعليم — الطب — الغناء والموسيقى — جمع المال من حلال .

خلق الله تعالى هذا العالم الارضي وجعل اعيانه كلها المنتفع بها من المواليد الثلاثة مذللة مسخرة للانسان الذي زانه بالعقل وحلاه بالفكر وسخره بالارادة ليعمر الارض تعميراً وفق السنن الآلهى المطلوب في تنظيم العالم وتنسيق اشيائه واستخراج مواد معاشه على أكمل وجه ولقد نطق الكتاب العزيز بذلك في كثير من المواضع منه ماهو على سبيل الامتنان للدلالة على شكر الصانع الحكيم ومنه ماهو على سبيل الحث لتجويد الاعمال والقيام بها في اصلاح الارض على أكمل وجه تضمنه أمر الخلافة قال تعالى في خطاب بني اسرائيل « عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الارض فينظر كيف تعملون » وقال في خطاب المسلمين « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا

الصالحات ليستخلفنهم فى الارض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضي لهم » وجاء فى تذليل الارض وتسخيرها لبنى آدم «ولقد مكناكم في الارض وجعلنا لكم فيها معائش قليلا ما تشكرون» « وسخر لكم مافي الارض جميعاً » و« ذللناها لكم » وجاء فى تحرى أحسن العمل فى الارض « انا جعلنا ماعلى الارض زينة لها لنبلوهم أيهم احسن عملاً » وقال تعالى في السعى وابتغاء الارزاق بالعمل من فضل الله «فانتشروا في الارض وابتغوا من فضل الله» «واسعوا فى مناكبها وكلوا من رزقه واليه النشور » « الله يبسط الرزق لعباده» « وانبتنا فيها من كل الثمرات رزقاً للعباد» وقال فى تقسيم الاعمال والمساعى « نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا» الى غير ذلك من الآيات البينات والحجج القاطعات موردة فى معرض الامتنان تارة والحث علي السعى فى طلب الرزق تارة أخرى سواء بالنظر الى الجماعات أو بالنظر الي الافراد على أكمل الوجوه وأتم الخلال المطلوبة مما سماه الله تعالى اصلاحا حتى تتم بذلك وظيفة الخلافة الآدمية ويتم عمار هذا العالم ويكون صلاح هذه الدار التى هى مزرعة الآخرة ودار التكاليف في كل الاعمال الحسية من

حيث الصنائع والفنون على انواعها والمعنوية من حيث الآداب والشرائع والعلوم مما العمل له كله واجب على المجموع الانسانى ولله ما أجل الحكمة المودعة في الحديث الشريف «أعمل لدنياك كأنك تعيش ابداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً» فالدنيا نعمة واستصلاحها واجب والشكر عليها فرض والقيام بحقها بالنظر الى السعى في طلب العيش باوسط الطرق ضربة لازب قال النبي صلى الله عليه وسلم في معرض الحث على العمل والسعى على الرزق «ان من الذنوب ذنوبا لا يكفرها الا الهم في طلب المعيشة» وانت اذا تأملت فى حقيقة الذنوب التى تجلبها البطالة والفراغ - واليد البطالة نجسة - رأيتها اكثر من ان تحصى . وقال صلى الله عليه وسلم «من طلب الدنيا حلالا وتعففاً عن المسئلة وسعياً على عياله وتعطفا على جاره لقي الله ووجهه كالقمر ليلة البدر» وهذا الحديث بما بنى عليه من المعنى أصل فى الاجتماع إذ العمل مطلوب فيه والسعى في تربية العيال مرغوب فيه بطبيعة العمران وصون النفس وتعففها من خير ما وهبت النفوس ومد يد المساعدة والرفد الى فقراء ابناء الهيئة محبوب . وقال ايضا عليه الصلاة والسلام «ان الله يحب العبد يتخذ المهنة يستغنى بها عن الناس»

وقال كذلك في اتخاذ الحرفة « ان الله يحب المؤمن المحترف. »
وقال ايضا في الكسب الحلال والبيع المبرور « أحل ما أكل
الرجل من كسبه وكل بيع مبرور » « أجل ما أكل العبد كسب
يد الصانع » وقال في فضل التجارة « عليكم بالتجارة فان فيها
تسعة اعشار الرزق »

وقال عمر ابن الخطاب رضى الله عنه في الحث على العمل
« لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق ويقول اللهم ارزقني فقد علمتم
ان السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة » وكان زيد بن سلمه يغرس
في أرضه فرآه عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال له مشجعا
على العمل « أصبت استغن عن الناس يكون أصون لدينك
وأكرم لك عليهم كما قال صاحبكم أحيحة :

وان أزال على الزوراء أعمرها . إن الكريم على الاخوان ذو المال

والآثار والاقوال في الباب باب فضل العمل والسعي
واكتساب المال الحلال يضيق عنها الحصر وتدو[illegible] في [illegible] دها
الشروح ومجمل القول انه لا انتظام لأمر هذ[illegible] [illegible]
الافراد في طلب المعاش والجماعات حتى تعمر [illegible] وفاق السنن
الآلهى المطالب. ولقد أوجدت الشريعة الن[illegible] [illegible]ت الكافله في

كل المعاملات من حق الملكية والبيع والشراء وحرية التجارة والاخذ والعطاء وانحت على الاحتكارات وجعلت لكل ذلك قيوداً وحدوداً عادلة صالحة لكل زمان ومكان حتي يستبان حرامها من حلالها وصحيحها من فاسدها واكثر الاصول تناسب مقتضيات كل زمان ومكان حتى ينتظم أمر الخلق ويسعدوا فيما هم بصدده من الاعمال والصنائع والمحترفات وكل المهن الاجتماعية والاعمال المعاشية التي الخلق مسخرون لها في صورة مخيرين بطبيعة حال العمران البشري قال الامام الراغب الاصفهاني:

« لما احتاج الناس بعضهم الى بعض سخر الله كل واحد من كافتهم لصناعة ما يتعاطاها وجعل بين طبائعهم وصنائعهم مناسبات خفية واتفاقات سماوية يؤثر الواحد حرفة من الحرف ينشرح صدره بملابستها وتطيعه قواه بمزاولتها فاذا جعل اليه صناعة اخرى فربما وجد متبلداً أو متبرما بها وقد سخرهم الله تعالى لذلك لئلا يختاروا بأجمعهم صناعة واحدة فتبطل الاقوات والمعاشات ولولا ذلك لما اختاروا من الاشياء إلا أحسنها ومن البلاد إلا أطيبها ومن الصناعات إلا ألطفها ومن الاعمال إلا أرفعها ولتناجزوا على ذلك ولكن الله تعالى بحكمته جعل كلاً

مسخراً في صورة مخير فالناس إما راض بصنعته لا يريد عنها حولاً كالحائك الذي يرضى بصنعته ويعيب الحجام والحجام الذي يرضى بصنعته ويعيب الحائك وبهذا انتظم أمرهم كما قال تعالى «فتقطعوا أمرهم بينهم زبراً كل حزب بما لديهم فرحون» وإما كاره لها يكابدها مع كراهيته إياها كأنه لا يجد لها بدلا وعلى هذا دلّ قوله عليه الصلاة والسلام « كل ميسر لما خلق له» بل صرح تعالى بقوله «نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا » وقال « وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون » « وقل كل يعمل على شاكلته» ولهذا قال عليه الصلاة والسلام «لن يزال الناس ما تنافسوا فاذا تساووا هلكوا » والتفرق والاختلاف في نحو هذا الموضع سبب الالتئام والاجتماع والاتفاق كاختلاف صور الكتابة وتباينها وتفرقها التي لولاها لما حصل لها نظام فسبحان الله ما أحسن ما صنع وأحكم ما أسر وأتقن ما دبر ولهذا قيل من حق من قيض له صناعة مباحة فرزق منها أن يراعيها على ما يجب وكما يجب وعليه قوله عليه الصلاه والسلام « من رزق من شيء فليلزمه »[1]

---

١ الذريعة الى مكارم الشريعة للامام الاصبهاني

فترى من هذا ومن أمثاله الكثيرة في أقوال حكماء الملة الاسلامية ومن استقراء حال التمدن الاسلامى أبان ازدهائه واشراقه أن ما وجد في كتب القوم مما يخالف هذا بظاهره من الانقطاع عن العمل والتفرغ للعبادة جملة ليس من المبادىء الاسلامية البتة وقول بعض الباحثين الغربيين ان الصلاة الاسلامية حتى لتخلو من طلب المعونه على الرزق استغراقاً فى العبادة ليس بالذى يدل على ذلك مما يطعنون به على الاسلام وجملة القول انه لم يرد بهذا أمر من الله ورسوله بل كره وحرم ومقت صاحبه وفضل عليه رجل العمل وصاحب الشغل وحكاية ذلك الرجل الذى كان يلزم المسجد على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ومدح الصحابة له بالفضل فى العبادة حين مات وتفضيل النبي صلى الله عليه وسلم من كان يعوله عليه شهيرة فى كتب السنة ولله ماأبلغ هذه الحكمة المعزوة الى لقمان الحكيم فيما وعظ به إبنه وقد أوردها مؤلفو العرب للنصح والارشاد قال « يا بنى استغن بالكسب الحلال عن الفقر فانه ما افتقر أحد قط إلا أصابه ثلاث خصال رقة في دينه وضعف فى عقله وذهاب مروءته وأعظم من هذه الثلاث استخفاف الناس به »

على إن قيام هذا العالم الانساني بطبيعة النظام الطبيعي للعمران البشري وما ركب في الانسان نفسه من أجله من التنازع على البقاء التي تفسرها تلك الخصال من الحرص وخوف الفقر لينتج القيام بالعمل ويبعث بالنفوس على الجد والكد واحتمال كل التكاليف الادبية والاجتماعية لتحصيل الاقوات والارزاق مما يفسره قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « الناس من خوف الفقر في الفقر » فالعمل والسعي واجبان انسانياً والاسلام يحث عليهما والارزاق مع ذلك بالمعنى الاسمى بيد الخلاق ومن تعطل أو تبطل لاى سبب وبأية حجة فقد أنسلخ عن الانسانية وصار في حكم الموتى أو كالاعضاء الشلاء في جسم الهيئة الاجتماعية وكذلك الامة التي يكون هذا شأنها في مجموعة تلك المجموعة من بني الانسانية والاسلام أجل وأعظم من أن يكون في مبادئه ما يجعلنا بهذه الصفة المحقرة والله تعالى يقول مخاطباً لنا « كنتم خير امة أخرجت للناس » لا بأجسامنا واحسابنا ولكن بعبادتنا وجودة أعمالنا

⁂

والاعمال الدنيوية التي الخلق مشغولون بمزاولتها لتحصيل الاقوات والارزاق وتقويم أود الحياة من المطعم والملبس والمسكن

الخ وما يتفرع عنها من اسباب لتمدن والتأنق في الحضارة هي الصنائع والحرف البشرية وأمهات الاعمال الانسانية لان الله تعالى للحكمة العظيمة في ايجاد الانسان وعمله لم يخلق شيئاً من امتعة هذه الدنيا وأرزاقها وأقواتها مهيئاً بحيث يستغني عن صنعة الانسان لتلك الحكمة من ايجاد عمله المبني على العقل واستخدام قوة الفكر وترفع الاذواق والتأنقات وتوزيع الشؤون العملية بخلاف الحيوان الذي يتغذى من النبات بغير معالجة او طبخ مثلا ولا يحتاج في بدنه الى ملبس أو مسكن وقصر مشيد بل يقنع بالصحراء والكهوف ولباسه شعره وجلده بعكس الانسان خصوصاً الانسان المتمدن أو الراقي فانه يحتاج في هذا الصدد الى أنواع كثيرة من الصنائع المختلفة المرتبط بعضها ببعض والتي يتكون من جملتها أصول التمدن وبالتالي دعائم العمران المادي والرقي والتي وان اختلفت في ارتقاآتها بحسب الازمنة والامكنة فان وجود أصولها ليعهد في الهيئة الاجتماعية منذ وجد هذا الانسان وحكمها في النظام الاسلامي وبموجب الشريعة المحمدية أنها من الضروريات وبالتالي في حكم الفرض الكفائي لحكمة تبادل المنافع ومنتوجات الاعمال التي الخلق مشتغلون بها قائمون عليها

في تحصيل المعاش بالاضطرار فى صورة الاختيار كما تقدم فى قول الامام الراغب

ولقد كان للسلف الاسلامى عناية بالصنائع التى اشتغلوا بها واعتمدوا عليها في رقيهم بقدر ماوسعه مبلغ تقدمهم وتحروا فيها بنسبة تلك الحال الكمال والاتقان الذى ندب اليه الشارع الحكيم عليه السلام «ان الله يحب الصانع الحاذق» ولا معنى لهذا وغيره مما جاء بهذا المعنى سوى حث الهمم لتحرى لاستجادة والاتقان في الاعمال والصنائع مراعاة لما تطلبه الاحوال العمرانية الارتقائية فى تقدمها بنسبة التقدمات اللاحقة الطارئة على أنواع الصناعات الانسانية عند أهلها واختيار أساليبها الجيدة واشيائها الجديدة على الدوام لنوال المزيد في الربح والرواج فضلاً عن بلوغ الكمال العمراني الذى هو اسمى ما يطلب من الانسان بمقتضي فطرته ووظيفته على ظهر هذا الكرة .

والصنائع البشرية التي يعتمد عليها أكثر الناس فى تحصيل العيش والكسب كثيرة لكثرة فروع الاعمال المتداولة بين البشر بحسب اوساط بلدانهم واقطارهم المختلفة فى أشيائها ومنتوجاتها وأحوال ارتقائها وإن رجعت الاصول فى الصنائع الى عدة فئات

ترى لدى كل البشر على السواء وهاته الأصول ترجع الى أربع أو خمس صناعات ولنقصر القول على تلك الاصول الجامعة مما يناسب حال كل عمران فان التكلم على متفرعاتها ومتولداتها التي تارة تكثر وتارة تقل بحسب أذواق كل عصر وكل مصر وحركته الاقتصادية وتقدمه المادى والمعنوى مما لا يمكن حصره ولا ضبطه وان أوجبت النظامات الاجتماعية بين شرعية ووضعية تحرى اشيائها ليسعد البشر فيما هم بصدده من الاعمال وأسباب السعادة والغبطة الدنيوية

ولقد قسم بعض العلماء قديماً كابن خلدون[1] وغيره الصنائع البشرية والاعمال الانسانية الى ثلاثة أقسام

(١) الصناعة

(٢) التجارة

(٣) الامارة

وأدخلوا في كل طائفة منها ما يناسبها من أنواع الصنائع التي من أمهاتها وأولاها « الفلاحة » التى عليها مدار تحصيل الاقوات بالقيام على الزرع والضرع وتربية الحيوان الداجن

---

(١) مقدمة بن خلدون

المنتفع به . وقد جاء فى مدح الزراعة آثار كثيرة وأوجدت لها الشريعة والنظامات الاسلامية القيود والحدود كحقوق الملكية والارتفاق والمزارعة والاستئجار والسقيا كما وضع عليها زكاة الزرع والحيوان والخراج الى أشباه ذلك للصرف على المصالح العمومية ولقد جاء فى مدحها وفضلها في معرض الامتنان آيات من القرآن بينات وقال صلى الله عليه وسلم «التمسوا الرزق فى خبايا الارض» على ان مما يجب ان يتنبه له المسلمون إنما هو ترقية أعمالهم الزراعية بحسب الاساليب الحديثة والطرق الجديدة إذ ذلك بمقتضى ما هو مشروط من تحرى الحذق والمهارة فى الصنائع وتجويد الاعمال في حكم الواجب الذى لا مندوحة منه حتى تفيض أراضيهم المشهورة بجودة التربة في اكثر بقاع الاقطار الاسلامية بالخيرات العظيمة والفيوضات العميمة ولا يجعلوا للكسل والضعف اكتفاء بالاساليب القديمة العملية القاصرة سلطانا عليهم فيفوتهم استدرار الثروة العظيمة من اكبر مصادرها وأهم ينابيعها بالنظر الى أحوال بلادهم الزراعية

ومن أمهات الصناعة البشرية صناعة «البناء» التى احتاج اليها الانسان منذ أن وجد الانسان تقريباً لاقامة المساكن

وتشييد الأماكن التي يتخذها لمنافعه من الابواء اليها والانتفاع
بها في مصالحه . وفن العمارة تقلبت عليه أحوال كثيرة وتغيرات
جمة بحسب ادوار التمدن البشرى ولقد كان لاهل الاسلام فيه
الباع الطولى بقدر ما احتمله مبلغ رقيهم والآثار التي خلفها أهل
الاسلام في جميع أقطاره وما حوت من نقوش وزخارف تشهد
لهم بانهم برعوا قديماً في فن العمارة بقدر ما وسعته أحوال عصورهم
وانه ليجدر بالمسلمين الآن ان يطلبوا ترقى ذلك الفن عندهم
لانه من أعظم مظاهر العظمة الدالة على كمال الارتقاء وسبيل
ذلك ميسر لهم علمياً وعملياً إذا أرادوا ان ينهضوا «ليماشوا»
الرقي العصرى جنباً الى جنب في اشيائه النافعة وهذا الفن او تلك
الصناعة تضم اليها عدة صناعات أخرى متممة كما هو معلوم مما
ينبغي ان يشملها هي الأخري الترقى المحبوب بالتبعية لذلك .
وصناعة «النجارة» وصناعة «الحدادة» من الامهات أيضاً في
الصنائع البشرية وهي تخدم صناعة البناء وصناعة الفلاحة كما
تخدم البشر في حاجاتهم الكثيرة الأخرى من مثل الادوات
والعدد المنتفع بها في كثير من الشؤون الحيوية والصناعية ،
وقيامها بمعالجة الخشب والحديد والنحاس الخ وتهيئة تلك المواد

بحيث ينتفع بها فى تلكم الشؤون المختلفة سواء كانت عدداً للعمل او أدوات للمنافع الحيوية . هذا وغير خاف ان تقدم هاتين الصناعتين فى أوروبا قد بلغ أشده بخلاف الشرق لاكتفائه بما اعتاد عليه من قديم بحيث صار الفرق بيننا معاشر أهل الاسلام وبين أهل الغرب فى مضمار تينك الصناعتين كالفرق بين الطفل الصغير والرجل الكامل الشديد البطش والقوة فضلاً عن مهارة اليد والعقل وهذا لا يجيزه شرع ولا عقل والمصلحة الذاتية للمسلمين قاضية بالترقى في مثل هذه الشؤون الحيوية للتساوى بأهل القوة طلباً للنجاح والفلاح في مضمار الحياة القومية بين الشعوب العصرية فمن ثم يجب على المسلمين ان ينشدوا الكمال فى الصناعة وينشطوا لتحرى روحها بواسطة الاكثار من انشاء المدارس الصناعية على الطراز الجديد والمصانع والا أثموا ولحقهم وزر الخاملين وحرمان المقصرين المهملين .

ومن أمهات الصنائع البشرية كما لا يخفي صناعة « الغزل والحياكة » ثم « الخياطة » وكلها لولاها ما لبس انسان ولا تأنق متأنق فى ثيابه أو فرشه المنسوجة من الاصواف والاوبار أو القطن والحرير والتيل ويلحق بها صناعة الصباغة والدباغة بالالوان

والنقوش وهذه وتلك كلها منحطة الآن عند المسلمين بعد أن
كان لهم فيها القدح المعلى والشأن كل الشأن فيخلق بهم بالنظر
الى تلك الاحوال التى سبقهم فيها الغرب أيما سبق ان يشمروا
عن ساعد الجد ويطرحوا أسباب الكسل والتوانى ليحيوا
أمثال تلك الصناعات الحيوية عندهم على مقتضي ما جرى عليه
القوم الغربيون من الطرق والاساليب الجديدة والعدد المسهلة
وانه ليعار عليهم أن يستغنوا بالمنتوجات الاوروبية عن أحياء صناعة
الحياكة ومستلزماتها فى بلدانهم وهى التى تخرج الى اوربا مادتها
الاصلية من القطن والصوف والحرير وإن نقصتها مادتها الثانية
من الفحم والمدد والآلات العاملة فيها بحسب الطرق الجديدة
ولقد يدخل فى هذا النقص نقص الصناعة فى البلدان الشرقية
« صناعة الوراقه » والكاغد المنتفع به في الكتابة والطباعة
ونحوها فان البلدان الاسلامية قد فقدت منها هذه الصناعة
بالمرة مع انه ليس من غنى البتة عنها ولانه اذ احتيج الى الكتابة
والخط احتيج بالبداهة الى الورق ، وصناعة الطباعة الحديثة
كما كفت العالم موؤنة الخطاطين والنساخ كثيراً فقد زادت
الحاجة بها بالنسبة الى رواجها عندنا الى صناعة الكاغد ناهيك

بمنافعه الاخرى في الشؤون التى يتعلق بها فى التجاره

وحرفة «التجارة» من امهات الصنائع البشرية والتجارة محاولة تنمية الاموال بشراء السلع بالرخص وبيعها بالغلاء من زرع او حيوان او قماش او ماشبه ذلك من عروض التجارة وذلك القدر النامي هو « الربح » المحاول اخذه وللتجارة بجاه اعمالها المختلفة واحوالها الدقيقة القيود والحدود فى الشريعة فى باب البيوع والشركة والمضاربة الشرعية الخ وفي معاطاة التجارة مزالق قد يوجدها الغرور والطمع ولذلك نبه الشارع على الصدق في المعاملة وآدابها الجليلة من تجنب الغش والخديعة وتطفيف الكيل والاجحاف واكل اموال الناس بالباطل ثم والمكاسية في المعاملة ، واليقظة المطلوبة للربح غير مانعة بوجه ما عن الصدق والامانة وملازمة الحق في الاخذ والعطاء على الوجه الشرعى المطلوب فى كل الشؤون بموجب ادبنا الاسلامى

ومن الصنائع المهمة فى العمران حرفة «النقل» للآدميين وأنواع الحاصلات والمستغلات والتجارات في البر والبحر وهذه الحرفة من الاهمية بالمكان العظيم بحيث أنها لو نقصت فى بلد عن مقدار حاجته لتعطلت كل أحواله وحركاته التجارية وأيما

بلد سهلت فيه وسائل النقل راجت أعماله ونمت أشغاله وتقدم وأرتقى بنسبة ما فيه من حركة ، ونظرة فى التاريخ الاسلامي تكفي لان يعلم المسلم العصرى منها ماقام فى تلك الأيام الماضية من مبلغ قوة حركة القوافل العربية والسفن الشراعية والاسواق العظيمة لتصريف أنواع التجارات والمحصولات فى سائر الاقطار من أقصي الشرق الى السواحل الاوروبية مما استلم القيادة فيه الآن الاوروبيون بعد انحطاط الدول الاسلامية ولقد زادت حركتهم التجارية بما اخترعوا من السكك الحديد وسفن البخار والتلغراف والتلفون والتلغراف اللاسلكى الامر الذى يجدر بالاقطار الاسلامية على اختلاف بقاعها ان تنشط وتستفيد منه وتعتمد على مثله فى جميع حركاتها العمرانية وأعمالها الاقتصادية ولا عذر للمسلمين لا شرعى ولا عرفى يمنعهم عنه ويحول بينهم وبينه الا اذا كان ما التزموا من كسل وركنوا اليه من خمول كاد يذهب بريحهم.

ومن الحرف اللازمة «الخدم المتبادلة» فى المنافع والاشغال المتباينة وكل الشؤون الحيوية المتنوعة وهى ذاهبة كل مذهب وبواسطتها أيضاً قام العمران ولقد اوجدت لها الشريعة بحسب الاحوال والمقتضيات الحدود والقيود في الاجور والكراآت

كما دونت بصددها القيود في القوانين المدنية الحديثة .

ومنها صناعة «التعليم» وهي من أشرف الصناعات في الهيئة بحسب الادب الاسلامي وفضلها ومزيتها في الهيئة أجل من ان نذكر ولها بالنظر الى المعلم والمتعلم آداب جليلة مشهورة

ومن أمهات الصنائع والحرف اللازمة في الهيئة «صناعة الطب» ذلك الفن الذى يشارك صاحبه أهل العلم في فضلهم وأهل الصناعة في نفعهم ومنفعتهم ، وصناعة الطب ضرورية في الهيئه وتدخل فى فروض الكفايات فى الاسلام حتى يوجد في الهيئة من يداوي اسقام بدنها ويسوس أمورها الصحية وسلامة أبدانها المطلوبة شرعاً وعرفاً بمقتضى قوانينها الصحيحة ويلحق بصناعـة الطب فن « الصيدلة » لتركيب العقاقير والأدوية اللازمة للطبيب .

ومنها صناعة « الغناء وفن الموسيقى » وهذه قد وجد لها أصل اباحة ورخصة فى الدين وقد برع فيها جماعة من أهل الاسلام قديماً أيما براعة وهي ضرورية لتنشيط النفوس وتطريب القلوب وانعاشها فى الاوقات المعينة وانه ليدخل فيها بل هو من أجل مهذبات النفوس مع ذلك فن التشخيص ذلك الذى

عرف الغربيون فضله فوفوه حقه اتقانا وتحسيناً .

هذه هي أمهات الصنائع الانسانية بحسب ما اعتمد عليه في التمدن الاسلامي وحث عليه في ادبه الاجتماعي ونظامه العملي وماينطوى تحتها من فروع الاعمال والمهن شيء كثير جداً كان يكثر ويقل بحسب الظروف وانواع التأنقات في الحضارة كما نراه الآن في الغرب ، ولقد استنبطت في الشريعة الاسلامية كل القيود والحدود والآداب اللازمة لتمشية النظام في كل الاعمال والصنائع وكسب المال وأراحة الافراد فيما سخروا فيه منها وما تعاملوا به من أجلها بمقتضي قواعد عامة وأصول يجد فيها الخلف كما قد وجد فيها السلف مايرقى حالهم وينظم شؤونهم بحسب المقتضيات متى ما راعوا حسن الاختيار وسلامة الاذواق العصرية ولكل عصر شأنه بلاحرج وكل هذا يدلنا معاشر أهل الاسلام على فضل ماعرف من أدب العمل عندنا وحث عليه من السعى والكدح في التماس العيش وتحصيل الرزق بأى من انواع الصناعات الشريفة المعهودة في المجتمع بحسب ميل الشخص واستعداده منذ الصغر وليس ثمّ في الاسلام من حرج أو قيد وحائل يحول دون الترقي في الصناعات على اختلاف أنواعها

وتطلب المزيد من المهارة والحذق في الاعمال وتجويدها المطلوب شرعاً كما ليس هناك ما يمنع اكتساب المال بالسعى والتوفير في الدرهم والدينار المكسوب من حلال اذ ذلك كله مطلوب مرغوب فيه شرعاً طلباً لقوة الافراد والجماعات مادامت مراعى فيها الحقوق والواجبات التى عليها ، كما وقد أوجدت الشريعة في المواريث بالنظر اليها أجود النظامات الاجتماعية كما يرى في كتب الفقه والمواريث أو الفرائض .

فلكسب العيش وتحصيل الارزاق بل ولنوال الغنى والسعادة والغبطة في هذا العالم لا بد للمرء بحسب أدب الاسلام من عمل يعمل فيه وحرفة يحترفها وصناعة يمارسها بحسب اختياره للحرية العظيمة التي في المبادىء الاسلامية وإذ قد جعل الله في الدرهم والدينار سرما به قوام كل الاشياء وتقدير قيمها وتبادل منافعها فكأنه بحسب العرف القديم والحديث صار هذان النقدان الكريمان نوعا من الثروة والمال العامل الدائر في كل الشؤون الجالب لخير الاشياء الموفى لكل حقه بقدر عمله ومبلغ ما اعطى من النفع لغيره من صناعة وسلعة وأخذ منه في مقابلها

وحيث صار من خصائص النقدين الكريمين هذه الفضله

والميزة من بين الاموال البشرية فلاجرم وجب على كل امرىء عاقل ان يدخر ويوفر على نفسه منهما ليزداد قوة في عمله وحيطة للاحوال الطارئة في كل شأنه وأيامه المستقبلة وعدم صرفهما إلا في حقها وبالمقدار اللازم ولقد ذم الكتاب العزيز الاسراف والمسرفين في الاموال قال تعالى « والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما » أي في الحد الوسط المعتدل وقال تعالى في مخاطباً الامة في خطاب النبي صلى الله عليه وسلم « ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسوراً » فجمع بين النهى عن البخل والشح المذمومين المؤديين الى الضن بالحقوق كما نهى عن بسط اليد الذي ينتهى الى السرف المضيع للمال الموجب للوم النفس والذم والحرمة . وفي الحديث الشريف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « لئن تذر ورثتك أغنياء خير من ان تذرهم عالة يتكففون الناس » ولا وسيلة لذلك غير اقتناء الثروة وادخار المال

ولم يكتف النظام الاسلامى والادب المحمدى بالحث على هذه الفضيلة فضيلة التدبير والاقتصاد بل أوجبت الشريعة الحجر على السفهاء حتى تحفظ عليهم أموالهم التى اتيحت لهم

«ولا تعطوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم» وجعلت حكم السفيه عن عته أو اسراف كحكم الصبي الذى لا يحسن التصرف وتجب الوصاية والقيامة عليه ولله ما أجملها من حكمة عالية في التشريع كتلك الحكمة العالية فى المواريث وجودة مبدائها في التوزيع

وخلاصة القول ان العمل واكتساب المال على انواعه من وجوهه المشروعة مع اداء الحقوق المفروضة على المرء فيه والاعتدال فى النفقة والصرف وادخار الاموال للايام وكبار الاعمال هو القطب الذى تدور اليه رحى هذه الدنيا في عمارها والمبداء الذي رمى اليه الاسلام في أدبه العالى وتعاليمه السامية. فتأدب أيها المسلم المصرى بهذه الآداب وليكن لك حزم وعزم فى العمل والكدح واكتساب المال الحلال وحسن تدبيره والقيام عليه لانه قوة والبطالة والفقر والسرف ضعف ثم موت يتناول الشعوب كما يتناول الافراد فليفقه القوم وليأخذوا بقول الشاعر الحكيم الذى يقول :

للمال عندى جانب لا أضيعه وللهو منى والبطالة جانب

﴿ الباب الخامس ﴾

(أدب المعاشرة)

الانسان مدني بالطبع — أصل الاجتماع بحسب المبداء الاسلامى — الزواج فوائد الزواج — التربية — كراهة التزوج بغير قدرة بأكثر من واحدة — لزومه للجمهور — أركان الزواج — آداب الزواج — الخصال التى تتحري فى الزواج — ادب المعشرة بين الزوجين — تدبير المنزل — الادب بحق الوالدين — أدب المعاشرة مع الاخوان وعموم الهيئة — حسن الخلق — الصداقة — اختيار الاصدقاء — حقوق الصحبة — حقوق وآداب الهيئة الاجتماعية — حقوق الجوار ٠

قال الحكماء « الانسان مدنى بالطبع » اى انه لم يخلق ليعيش افراده عيشة الانفراد كأكثر جنس الحيوان بل لابد له من الاجتماع ببنى جنسه على الصورة المعهودة ليأنس بهم ويأنسوا به متكافلين فى الاعمال متضامنين في المساعي بواسطة ما ركب فيه من قوى عالية هى موهبة الآله لصفوته من خليقته على ان كثيراً من أنواع الحيوان كما دل عليه الاختبار قد يشارك الانسان بنوع ما فى فضيلة العيش جماعات الا انها تختلف عنه فى الكيفيات والترتيبات المبنية على قوة الفكر والعلم والعمل المحكم فالقردة التى تعيش مجتمعة وأسراب الفيلة وبقر الوحش والقطاء والنمل والنحل لها كلها عيشة اجتماع تشبه بنوع ما اجتماع

الانسان ولكنها مهما يكن من حالها فانها لتخالفها في الاحوال المبنية على العقل الخصيص بالانسان في ترتيباته وحسن اختياراته ولا غرو وهو البالغ الذروة العليا في سلسة الارتقاء

ولقد نبه القرآن المجيد على هذا الاجتماع الانساني وآدابه المختلفة في مواضع منه بذكر الاقوام الماضية والشعوب الغابرة قال تعالى في تفاضل الشعوب «وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله اتقاكم» وقال في التعاون الصحيح «وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان» وبين كذلك المعشر القريبة في النسب والمطاهرات والقرابة وهنالك أجمل حديث في أدب الاجتماع وحقيقة مبدأه في التكافل والتضامن بين ابناء الهيئة الواحدة وهو حديث «المؤمنون كالبنيان يشد بعضه بعضا» وفي الآية القرآنية الشريفة «إنما المؤمنون اخوة فاصلحوا بين أخويكم» ما يرمى الى هذا الفضل من المساواة والاخاء بين المؤمنين بحيث لا يكون لأحد فضل على آخر الا بالتقوى وهي جماع الخير وهاك أيضا حديث جميل آخر في المعنى وهو الحديث الشريف القائل «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد إذا اشتكي عضو منه تداعي

له سائره بالحمي » ولله ما اجمل هذا التعبير في شعور الامة الحية وتعاطفها على ذاتها وحثها على ذلك .

*
* *

وأول رباط في العشرة « الزواج » وقد جعله رسول الله صلى الله عليه وسلم من سنته فقال عليه الصلاة والسلام « النكاح من سنتي ومن رغب عن سنتي فقد رغب عني » والزواج أفضل ما يكون في الهيئة الاجتماعية وحفظ قوامها متي ما بلغ المرء سنه ووجد القدرة له ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « من كان ذا طول فليتزوج » وهو أفيد ما يكون بالنظر الى العفة المطلوبة والتحصين المرغوب وقد نبه عليه في القرآن المجيد وجاء في الحديث « من تزوج فقد أحرز شطر دينه فليتق الله في الشطر الثاني »

وفوائد الزواج في الهيئة الاجتماعية خمس [1] « إيجاد الولد » ابقاء للنسل وحفظاً للجنس وهو الاصل في حكمة الزواج حتى لا يخلو العالم من جنس الانس وإنما وجدت الشهوة بحسب الطبيعة التركيبية المحكمة كالمستحث لذلك والباعث عليه كما يلاحظ

---

١ الاحياء للغزالي

شوق التلقيح في الاشجار وجاذ بيته بين الذكر والانثى وكما
يشاهد ميل الحيوان الى السفاد لهذه الغاية غاية بقاء الاجناس
الحكيمة لعمار هذا العمار الارضي وان كانت لتوجد تلك الرغبة
على أكرمها وأعفها في الانسان وهو رأس الخليقة وسلطان
المخلوقات وخلاصتها المصطفاة ولذلك خوطب بالعفة والحكم
على النفس في حال عدم القدرة على الزواج في أدب الاسلام
«فليستعفف الذين لايجدون نكاحا حتى يغنيهم الله من فضله»
ولقد جاء في الحديث الشريف لتلك الحكمة حكمة تكثير النسل
«تناكحوا تناسلوا» وفي التوراة مثل ذلك أيضاً . ولهذه الحكمة
لم يحرج أمر الزواج ويعلق من جهة ثانية بالفقر المحرج فقال
تعالى « فانكحوا الايامى منكم والصالحين من نسائكم وأمائكم ان
يكونوا فقراء يغنيهم الله من فضله »

ولمراعاة هذا السنن الالهى والواجب الطبيعى لم يرَ في
أحوال المسلمين ولا في شريعتهم أمر الرهبانية أو العزوبة
الدائمة الا للعذر الشرعي بل قد وجد بالضد من ذلك لمصالح
اجتماعية وأدبية سامية اباحة ورخصة في « تعدد الزوجات »
الى أربع للقادر الواجد حتى تسد الشهوات ونزعات النفوس

ولا يكون لغناها وقوتها به الى الفساد والزنا من سبيل وهو المحرم شرعاً وعرفا والمفسد لاحوال الاجتماع المردى للهيئة المشين للافراد المضيع للانساب وهذا السبب من سد الحاجة الطبيعية « هو الفائدة الثانية » للزواج حتى تكسر الشهوات وتحصن النفوس وتلزم العفة المطلوبة شرعاً وقد تقدم الحديث « من تزوج فقد أحرز شطر دينه » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من لم يستطع منكم الباءة فليتزوج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فانه له وجاء » ففى الزواج فضلا عن فائدة ايجاد النسل قهر غائلة النفوس وصيانتها من الوقوع فى الفساد فساد الاخلاق والموبقات المفسدة لحال الاجتماع

الفائدة الثالثة «ادخال الراحة على النفس والهناء والسعادة بالتأنس والمداعبة والملاعبة وترويح القلب بذلك حتى ينصرف قلب المرء ولبه وسمعه وبصره عن غير حلاله وحتى ينشط ويتفرغ لعمله المعاشى فى نهاره لان النفس ملول وترويحها بالسرور والهناء العائلى ضرورى لترتاح الى القيام بتكاليف الحياة المطلوبة متى ماروحت بأمثال تلك الملاذ الدنيوية المرغوبة ولذلك جاء فى الخبر «لا يكون العاقل طامعاً الا فى ثلاث تزود لمعاد وحرفة

لماش ولذة فى غير محرم » وقال الامام على كرم الله وجهه
«روّحوا القلوب ساعة فانها اذا اكرهت عميت» وجملة القول
أن السرور العائلى الذى ينشده الآن أرقى المجتمعات الحالية
من آداب الاسلام وبالتالى من فوائد الزواج المقصودة فى
تعاليمه السامية ومبادئيه العالية

الفائدة الرابعة — تدبير المنزل فان المرء لينصرف همه
عنه إذا وجدت له زوجة صالحة تعول هم خدمته من الطبخ
واللباس والفرش والكنس وتنظيف الاوانى وبالجملة تهيئة كل
لوازم البيت ، وإذا كان ذلك من فوائد الزواج وحكمته فى
أدب الاسلام فلا جرم وجب من اجله «تربية» الفتيات تربية
منزلية صحيحة تعرفهن القيام بواجباتهن المنزلية عند ما يصرن
نساءً لرجال الامة وهن بذلك يوفرن على الرجال أوقاتهم ويجلبن
لهم الراحة حتى لا تتعذر عليهم مهام أعمالهم وتذهب أوقاتهم
ولهذا جاء فى الحديث الشريف «من كان له ثلاث بنات فانفق
عليهن واحسن اليهن حتى يغنيهن الله عنه أوجب الله له الجنة
البتة البتة » وما الاحسان اليهن هنا الا بحسن تربيتهن ، فالمرأة
الصالحة المصلحة للمنزل عون للرجل من هذه الوجهة في سائر

عمله ولقد فسر بعض المفسرين الحياة الطيبة في قوله تعالى «فلنحيينه حياة طيبة» قال هي المرأة الصالحة أى المدبرة لامر بيتها بما يجلب الراحة والهناء لاهله ويدخل السرور على نفوسهم

الفائدة الخامسة — مجاهدة النفس وحثها على زيادة التنشط في السعى على الارزاق والكسب الحلال فان المرء متى ماعلم وشعر بحمل وقر البيت والاهل والولد زاد نشاطه واقدامه على الكسب والربح حتى يقدر على اعالة عائلته وتربية أولاده والعمل لمستقبلهم وفي الحديث تلك الحكمة الرامية الى هذا الغرض «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته»

واذا كان الزواج بهذا المقدار من الاهمية فى الهيئة الاجتماعية وجب أن تتخذ له من ثم العائلات عدته من قبل باحسان تربية البنين والبنات والنظر الى مستقبلهم فى الاعمال والواجبات من حيث ايجاد الاعمال للاولاد خصوصاً مما تقوم به حياة البيوت من المهن والصنائع النافعة وتعويد البنات وتربيتهن على الكمال البيتي بحسب الاذواق العصرية خلقاً وعملاً وبذلك تصفو الحياة للعائلات وتحصل السعادة للذرية . فى الخبر « ان أول مايتعلق بالرجل يوم القيامة أهله وولده يوقفونه بين يدى

الله تعالى ويقولون يا ربنا خذ لنا بحقنا منه فانه ماعلمنا ما نجهل وكان يطعمنا الحرام ونحن لا نعلم » في الحديث أيضاً « لا يلقى الله أحد بذنب أعظم من جهالة اهله » وهذا صريح في وجوب تربية الاهل والولد والعمل لمصالحهم والتخلق معهم بالاخلاق الحسنة التي تتعدى الى نفوسهم والشجر على اصولها تنبت

ولهذه الغايه الشريفة من حسن تربية واعالة العيلة كره السلف عادة التزوج اذا لم يكن للمرء قدرة على القيام باعباء البيوت وتكوين العائلات لعجز عن التكسب أو تفاهة مادته أو فقدان الثروة الكافية للقيام باثقال المنازل وتربية العائلة بنسبة الاقدار والمقامات في الهيئة . فذلك الفقير الذي لا يسعه غير تقويت نفسه ويعجز عن نفقة غيره يكره له التزوج الا بعد التمكن من القدرة على اعالة الزوجه حتى لا يقع في اثم من يضيع من يعول كما في الحديث الشريف «كفى بالمرء اثماً ان يضيع من يعول » وجاء فيمن يتملص من أهله ويهرب من نفقتهم « ان الهارب من عياله بمنزلة العبد الهارب الآبق لن تقبل له صلاة ولا صيام حتى يرجع اليهم » فالذي لا يقدر على القيام بهذا الواجب العائلي بنسبة حاله يكره في حقه الزواج وتحمل أثقال العائلة

أما من لم يكن بهذه الصفـة — وهم في الغالب الجمهور الاعظم ولا ريب من رجال الامة ذوى الاعمال وارباب الحرف والصنائع أية كانت — فلا شك ان الزواج بحقهم متى مابلغوا سنه المستوفي واستوفوا حقهم من القدرة بنسبة وسطهم — أفضل لهم واحصن للنفس وأصلح وأسد فى أحوال الاجتماع البشرى ولقد تقدمت حكمة ذلك وفوائده من بقاء الجنس وبعبارة أخرى تكثير عدد الامة وراحة النفوس وتدبير مصالح البيوت وزيادة النشاط والتقوّى فى الاعمال.

وأركان عقد الزواج اسلاميا محل أى زوج وزوجة وولى وصيغة كما هو معلوم وشروط صحته صداق وشاهدان عدلان والشروط فى الولاية والرضا وصيغة العقد وباقى المندوبات تستفيض بها كتب المذاهب والسنة [1]

أما الآداب الاسلامية فى الزواج ومندوباته فكثيرة منها تقديم الخطبة لا فى حال « عدة » المرأة المعتدة (حتى يبلغ الكتاب اجله) ولا فى حال سبق غيره بها إذ قد ورد النهى عن الخطبة على الخطبة كما نهى عن المواعدة سراً (ولكن لا تواعدوهن

(١) راجع الخرشى والشرح الصغير

سراً) ومنها ان يلقى أمر الزوج الى سماع الزوجة أي الخطيبة وان كانت بكراً ويستحب النظر اليها قبل النكاح للتأليف والتأديم بين الزوجين حتى قال بعض العلماء « كل تزويج يقوم على غير نظر فآخره هم وغم » وهذا كثير ولكنه غير مطرد أما الاخلاق فتستوصف الزوجين وتحرى على قدر الامكان وفي هذا من أمر الاختيار والانتقاء فى الزواج سواء بالنسبة الى الرجل أو بالنسبة الى المرأة جاءت آثار جليلة وسيأتى منها بعد شيء

اما مايحرم نكاحه فى الاسلام بالنظر للارتباطات المانعة (كما جاء في الآية حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم الخ) فمعلوم من الآية ومفصل فى كتب الفقه ومعمول به عند المسلمين كافة غير ان البلوى عامة طامة من جهة الرضاع في هيئتنا الاجتماعية الحالية فليحذر منها لضررها وإثمها

والخصال التي يلزم ان تحرى في الزوج والزوجة كثيرة فالرجل ينظر اليه من جهة خلقه وخُلقه واقتداره وهو ما يعبر عنه بالكفأة التى ينبغى على الولى ان يتحراها فيمن يخطب اليه قال صلى الله عليه وسلم « النكاح رق فلينظر أحدكم أين يضع كريمته » اما الخصال في المرأة فهي ان تكون حسنة الخلق جميلة

الخلق حسنة التربية صحيحة البنية للولد عفيفة دينة لانها اذا كانت شرسة الطباع اتعبت زوجها ونغصت عليه حياته، وان كانت دميمة الخلقة جعلت نفسه تتطلع الى محاسن الناس فربما وقع في المحذور المنهى عنه وإذا كانت فاسدة التربية لم تصلح شأن بيته ولا تربيه اولاده، وإذا كانت غير ولود فاته الفائدة الاولى من مشروعية الزواج للولد، وان كانت غير عفيفة افسدت على نفسها وعلى زوجها واهلها وثلمت صيت عائلتها وشرفها والبستها ثوب الخزى والعار بارتكاب المحرم ولهذا كله ولتلافى شأنه والتفادى من الوقوع فى الفتن فى الهيئة وجد النهى عن اظهار الزينة لغير محرم وتقرر الحجاب الشرعي للصيانة ثم ملازمة البيوت إلا لضرورة فى الخروج مع مراعاة الحشمة وكمال الادب والوقار لدى الخروج الى الاسواق

على ان من يتأمل فى احوال النساء الحالية عندنا ويشاهد من كثرة تبرجهن وتزينهن عند الخروج من المنازل وهذا الحجاب «الشفاف» الذى يضعنه على الوجوه فيزيدها حسنا وجمالا ربما خلت منه وزينة وحلية ربما كانت مفقودة منها فضلا عن كونه لا يستر منهن الا قليلا مما يخالف الحكمة فى الحجاب

وآيته الصريحة المقصود بها الحشمة والعفاف ليأسف على تلكم الحال الرديئة الدالة على نقص التربية الشرعية الصحيحة وحبذا لو كانت وكان ما يطلبه حضرة العالم الفاضل قاسم بيك امين صاحب كتاب تحرير المرأة لانه لو ربيت الفتيات المسلمات تربية صحيحة لما اندفعن بالقدوة السيئة عن الامهات والصويحبات فى تيار التبرج « تبرج الجاهلية الاولى » الفاضح مما ليس فى شيء من الاذواق المصرية ولتحشمنّ وعرفن قيمة الجمال الحقيقى فى الخلق قبل الخلقة وما الذنب في هذا كله إلا على العوائد الرديئة التى لصقت بالعقول والنفوس وافسدت حال الجنسين عندنا فإياك ايها الشاب المسلم المصرى فى مسئلة الزواج وخضراء الدمن

ولمثل هذا السبب حث الشارع الحكيم على تطلب ذات الدين وذات الحسب والنسب كما حث على الولود الودود وما المقصود بالنسبة الى احوالنا الراهنة إلا الفتاة المتصفة بالادب والكمال وهذا لا يكون على أفضله عند الفتيات بل والفتيان إلا إذا صحبه التهذيب والادب النفسى بالتربية والقدوة الحسنة مما حث عليه في أدب الاسلام كثيراً .

ولقد كرّهوا من جهة اخرى تطلب ذات المال عند الزواج طمعاً في مالها لانهم عدوا ذلك قلة مروءة من الرجل ولأن المال قد يأسر غالباً لطمع الزوج ارادته أو يجعلها أقل مما هو مطلوب لكمال السلطة فى العائلات من ظهور سلطة الزوج أو التوقير لمقامه وحسن سعيه بجده واجتهاده على أهله

ومما يستحب فى أحوال الزواج قلة «المهور» والاقلال مما يقدم عادة في مقدماته وبداياته من التحف والهدايا لان التوسع فى ذلك يعد من قبيل الاسراف الذي لا فائدة منه ولا موجب له ، وكذلك حفلة العرس ينبغي أن تكون على كل حال متوسطة في «وليمته» لا كما هو متبع اليوم فى الزواج والاعراس وحفلات أفراحها الطنانه الرنانة والتى كثيراً ما نسمع بما يعقبها من الحسرات والندامات

والآداب المطلوبة من الزوجين وإن كانت لتفهم مما تقرر سابقاً من القواعد فى الزواج وآدابه إلا أنى اذكر منها هنا ما هو المطلوب فيها بالذات لتمام الالفة ودوام المحبة بين الازواج[1] الامر الاجتماعى الذى أجمعت العقول وآداب الاجتماع

«١» الاحياء للغزالى

عند الامم قاطبة على وجوبه وأول ذلك تحسين الخلق بين الزوجين لتصفو المودة وتحسن العشرة ولقد حث الشارع الحكيم الطرفين الزوج والزوجة على ذلك ورغّب في التساهل والتحابب باحتمال بعض الهفوات والسقطات العائلية فيما يشجر عادة بين الازواج كما جعل لطاعة الزوجة عظيم الاهمية لهذه الغاية حتى جعل نظر الزوجين الى بعضهما كفارة للذنوب وان نفور المرأة من زوجها يوجب عليها عند الله الوزر العظيم والذنب الجسيم وفى الآية الشريفة صريح الامر بالمعاشرة بالمعروف بحق الرجال « وعاشروهن بالمعروف » ولقد كان آخر ما وصى به صلى الله عليه وسلم عند احتضاره مما يتعلق بالعناية بالصلاة والرقيق والنساء

الثاني المداعبة والملاعبة بالادب والحشمة لادخال الرجل السرور على أهله فى الاوقات التى تسمح له بالجلوس بين عائلته وفي الحديث الشريف «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً والطفهم بأهله»

الثالث ان يتوسط في الانبساط فلا يجعل من مداعبته وملاعبته سبباً لسقوط مقامه واحترامه فى نظر زوجته ومهابته من نفسها فالاعتدال مطلوب والتوسط محبوب وهذا أمر ربما كان لكل امرىء فيه ذوقه انما على كل حال فان التكبر

والفطرسة التي قد تلازم بعض النفوس الغير المتربية مذموم كما ان الحط بالنفس والتدلي بها امام الزوجة لدرجة تجعل المرء «مسخراً» مذموم جداً والحكمة بين الاطراف والمحبة واطمئنان النفوس ثمّ

الرابع — الاعتدال في النفقة والصرف وهو مطلوب في كل شيء ومن الرجال كما من النساء، وما المرأة المدبرة في بيتها الحريصة على أشيائها الحازمة في كل تلكم الشؤون الا ربة الدار بالمعنى الحقيقي وما المرأة «الانّانة» التي تكثر الانين والتشكي و«المنانه» التي تمن على زوجها فيما تصنع معه في بيتها أو تلك المرأة «الحدّاقة» التي تشتهي اليه كل شيء تراه أو تلك «البرّاقة» التي لا هم لها الا تصقيل الوجه وتزجيج الحواجب والعيون مما يشغلها عن مهام بيتها الا شر نساء هذا العالم قديماً كان أم حديثاً مما قد لا يغير خلقهن فيه الا جودة تربيتهن

ويدخل في هذا الباب من أدب المعشرة عشرة الزوجة والنفقة مسئلة الطعام فلا ينبغي للمرء ان يتناول طعاما مشترى له او نحوه الا ويطعم منه أهله وولده أما في تناول الطعام العادي يومياً فيفضل ان يجتمع بأهله وولده على مائدة واحدة فيه ليزداد سروره بهم وسرورهم به

الخامس — الغيرة وهو ان لا يتغافل عن مبادىء الامور التى تخشي غوائلها ثم لا يبالغ مع ذلك فى اساءة الظنون لان ذلك من سوء الظن الذى نهى عنه الكتاب العزيز «ان بعض الظن اثم» لما يتخلله غالباً من الاوهام الباطلة فلا ينبغى ان يتجسس بواطن الامور بالتنقب والمضايقة التى ربما أضرت من حيث قد يراد بها المصلحة ولذلك نهي النبي صلى الله عليه وسلم من تتبع عوارت النساء او ان تبغت وقال فى أمر الغيرة الكبيرة «ان الغيرة غيرة» لانها بالحقيقة تضر بالرجال والنساء معاً أما الغيرة المتوسطة من الطرفين المشروطة آنفا فممدوحة لانها من الشهامة والمروّة الموجبة اصلاح الامور واستقامتها ولهذا جاء فى الحديث الآخر «ان من الغيرة ما يحبه الله ومنها ما يبغضه الله»

السادس التعليم تعليم الزوجة ومذاكرتها المعارف الضرورية الدينية والدنيوية ولا ريب ان هذا من أفيد ما يكون فى الباب وقد سهل أمره في هذا العصر بانتشار الكتب والجرائد والمجلات ويستحب ان تكون المدارسة والمطالعة بحضرة الاولاد لانه ولا ريب يكون من أفيد ما يكون فيما يراد من أمر تربيتهم وتهذيبهم وتثقيف عقولهم الصغيرة على المبادىء القويمة الروحية والدنيوية

السابع — تأديب الاولاد وتربيتهم تلك التربية العائلية فاذا جاء له مولود ذكراً كان او انثى فينبغي ان يفرح به ويسر على حد سواء (بعكس حال ما كان عليه أهل الجاهلية من كراهية البنات ووأدهن تلك العادة الوحشية التى ابطلها الاسلام) وأن يحسن العناية بشأنه ويعق عنه ويختنه اذا كان ذكرا ثم يحسن تربيته والقيام بحقه الى ان يبلغ مبلغ الرجال أو النساء والآثار والاحاديث فى فضائل الباب باب تربية الاولاد وفلذات الاكباد اكثر من ان تحصر .

الادب الثامن — اصلاح ذات البين فيما قد يشجر بين الازواج وهذا معلوم حكمه بالنسبة الى التحكيم تحكيم الاهل في ذلك كما جاء فى الآية الشريفة « فأبعثوا حكماً من أهلها » وما أحكمه من مبداء أوقاعدة تراها جارية الآن في كل الشؤون عند أولئك الغربيين الذين أخذوا آدابنا وعملوا بها ونحن لا نعمل بها اللهم الا ما كان من قشور جامدة وبواسطة ذلك يمكن الصلح بينهما فى غالب الاحيان بعد النظر فى شكاية الطرفين ومعرفة المحق من المحقوق منهما .

واصلاح ذات البين بين النـاس عموماً وبين الازواج

خصوصاً من أعظم ما حث عليه الشارع وندب اليه الا اذا كان بالنسبة الى الازواج قد وجد ان لا سبيل فى الاصلاح الا بالتفريق وهو الطلاق ذلك الذى أباحه الله شرعاً لا جزافاً كما تعوده عامة المسلمين الآن عندنا بل لاسباب قسرية ولهذا جاء فى الحديث أبغض «الحلال الى الله الطلاق» وهو قد يقع مرتين وفى الثالثة لا بد من الفراق البتة ولا يمكن الرجوع الا بعد زواج المرأة بآخر وفي أحوال المسلمين الحالية فى أمر الطلاق والزواج والنفقات ونحو ذلك غير مساوي لا تحصى ولفقهاء السوء فيها فتاوى يا لها من فتاوى ..

الادب التاسع — العدل بين الزوجات اذا كان للمرء اكثر من زوجة الى الاربع كما ورد به الجواز بشروطه غير أن مسئلة العدل بين الزوجات من أصعب الامور التي قل أن يتصف بها على التمام انسان فلهذا كان الاقتصار على الواحدة من أفيد وأحكم ما يأتي امرؤ في حياته الاجتماعية كما تقدم .

*
* *

اما الآداب بحق ذوى القربى [1] من الوالدين (بالوالدين

«١» الاحياء للغزالى

احساناً) والاخوة وسائر القرابة ومالهم من حق على المرء فمن أوكد ماحث عليه الشارع وجاء به أدب الاسلام الشرعى فلقد جاءت الآيات القرآنية حاثة على ذلك آمرة به وكذا الاحاديث النبوية الكثيرة الواردة فى بر الوالدين وحسن القيام بحقهما والادب معهما وصلة الارحام والتحبب اليها توددا وتعطفاً قال صلى الله عليه وسلم فى حديث فضيلة صلة الارحام « من سره أن ينسأ له في أثره ويوسع عليه فى رزقه فليصل رحمه »

أما عقوق الوالدين وعدم القيام بحقوقهما وتوقيرهما ورحمتهما « ولا تقل لهما اف ولا تنهرهما واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا » وكذا جفاء ذوى القرابة وتقاطعهم وتدابرهم وتشاحنهم فكل هذا من أمقت الخصال والعيوب وشر الرذائل والسخائم التي قد ورد النهى الشديد عنها وبئست الخصال والادواء المتفشية الآن بين المسلمين هى .

*
* *

ثم انه لما كان لكل انسان في أحوال المعاشرة أو المخالطة والالفة الاجتماعية غير أهله وعائلته اخوانه وأصدقاؤه وأبناء

هيئته الاجتماعية جميعاً ولهذه الخلطة والمعاشرة الضرورية في النظام الاجتماعي الاسلامي حقوق وآداب جليله جمة وجب لهذا على كل انسان الاتصاف والتحلي بها لينتظم حاله وتحسن كل شؤونه والمرء كما قيل قليل بنفسه كثير باخوانه وما اخوان المرء بالمعنى الاعم الا أهله وناسه واخوانه وعموم بني جنسه .

وأعظم مؤثر في الالفة الاجتماعية على الاطلاق « حسن الخلق » كما جاء في الحديث ما عبد الله بأفضل منه وقد حث عليه الدين كثيراً لانه موجب للتحاب والتآلف والتوافق في كل الاحوال بخلاف سوء الخلق فانه مثمر في كل تلك الاحوال الاجتماعية للتباغض والتدابر والتحاسد وانتقاص الاقدار ولقد مدح الله نبيه صلى الله عليه وسلم بحسن الخلق الذى تؤلف به القلوب قلوب الامة بقوله تعالى « وانك لعلى خلق عظيم » وفي الحديث الشريف « اكثر ما يدخل الناس الجنة تقوى الله وحسن الخلق » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأسامة أبن شريك حين سألوه عن أحسن ما أعطى الانسان فقال عليه السلام « حسن الخلق » وسيأتى مزيد بيان لذلك في باب أدب النفس

فحسن الخلق بما يقصد به هنا من التوادد والتحابب والتآلف والتجاوز والصفح في الاحوال المعينة هو عين مكارم الاخلاق التي بعث بها النبي صلى الله عليه وسلم وهو مثمر لاعظم أمور الارتباط وهذا يكون من التقوى النفسية الملابسة للنفس والاذواق الكريمة التي تكتسب من الاتصاف بأجمل الاحوال التعاملية إما من طريق الدين وإما من طريق الآداب الاجتماعية قال الله تعالى «لو انفقت مافي الارض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم» وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم في مدح أصحاب الاخلاق الفاضلة « أقربكم منى مجالساً أحاسنكم أخلاقا المؤطون اكنافا الذين يؤلفون ويؤلفون » وقال أيضاً «المؤمن الف مألوف ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف » وقال عليه السلام كذلك فيما يحرم على المؤمن من المؤمن « إن الله قد حرم على المؤمن من المؤمن دمه وماله وعرضه وان يظن به ظن السوء» والاحاديث فى الباب باب التحابب الاجتماعى فى الله والمودة بين الناس والاخوة والصداقة كثيرة والآثار الاسلامية فيها عظيمة ونفعها فى مصالح الهيئة الاجتماعية والامور الدنيوية والدينية أشهر من ان تذكر .

*
* *

هذا هو الشأن العمومى فى الاخاء القومى والمعاشرة الاجتماعية بالمعنى الاعم أما الصداقة بالمعنى الاخص فى تلك الهيئة الاجتماعية الانسانية فقد تكون أدق وأمتن ما يكون فى الباب من حيث اتحاد المشارب والاذواق تبعاً لتلك الخاصية أو الجاذبية فى النفوس المعبر عنها بالمناسبة والمشاكلة لان الناس أشكال وأمثال «وشبيه الشيء منجذب اليه» بحكم السن والمماثلة فى العمل والمشاكلة فى الذوق ونحو ذلك ولقد أوجد في أدب الاسلام آداب في الباب باب الصداقه والالفة تعتبر كقواعد عمومية لصلاح الاحوال ودوام المحبة واختيار الاصحاب والخلان لان للغرور النفسى بالظواهر الخداعة مفعوله فى الصداقات الكاذبة فيندفع المرء في الشرور بتأثير تلك الصحبة وهاتيك الصداقة فتكون العداوة بناء على هذا خيراً منها وأفضل ولهذا فدنبه على البغض فى الله كما جاء الحث على الحب في الله لانه من المعلوم ان من يحب لشيء فبالطبع يبغض لقيام ضده فاذا وجد للمرء صديق واقع في بعض المعاصي والرذائل الشائنة كره ذلك منه ووجب شرعاً وعرفاً نصحه وحثه على تركه والاقلاع

عنه والا انتهى الحال بالطبع الى القطيعة والهجر عادة هذا اذا كان للصديق المستقيم قوة ارادة وعزيمة واما اذا كان ضعيفا فلربما جره ضعفه هذا وقوة صديقه الى ممالأة صديقه الواقع فى الرذائل والمساوى فيسبح معه في تيار واحد وهو الغالب فيما نشاهد الآن من خداع النفوس وغرورها وسهولة قبول العدوى وانطباعها ولذلك جاء فى الحديث الشريف « المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل » ولهذا ايضا وجبت مصاحبة الاخيار ممن يتصفون بالاخلاق الكريمة والخلال الجميلة كاشتهار بعلم أو أدب أو حسن خلق أو تقوى جامعة فهؤلاء يكتسب المرء بصحبتهم ويستفيد بقربهم فى أخلاقه الفوائد الجليلة بعكس حال مصاحبة الحمقى والمتنطعين وارباب الفساد والشر خصوصاً ولعمري ماابلغ واجمل هذه النصيحة والحكمة فى اختيار الصاحب التي قالها الخليفه عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال « عليك باخوان الصدق تعش فى اكنافهم فانهم زينة فى الرخاء وعدة فى البلاء وضع امر اخيك على احسنه حتى يجيئك ما يقلبك منه واعتزل عدوك واحذر صديقك الا الامين من القوم ولا امين الا من خشي الله فلا تصحب الفاجر فتتعلم من فجوره ولا

تطلعه على سرك واستشر في امرك الذين يخشون الله » وقال جعفر الصادق « لا تصحب خمسة الكذاب فانك منه على غرور ومثل السراب يقرب منك البعيد ويبعد منك القريب والاحمق فانك لست منه على شيء يريد ان ينفعك فيضرك والبخيل فانه يقطع بك أحوج ما تكون اليه . والجبان فانه يسلمك ويفر عند الشدة والفاسق فانه يبيعك بأكلة او اقل منها »

واللطائف في الباب باب اختيار الاصحاب وانتقاء الاحباب ممن توفرت محاسنهم وكملت مروءتهم كثيرة في كتب الادب والمحاضرات الاسلامية المتداولة فلا نطيل فيها وقد صنف في المعنى أبو حيان التوحيدي المشهور في المعنى رسالة جليلة دعاها « الصداقة والصديق » وهي متداولة وقال المتنبي في فضل الصديق الصدوق

وما بلد الانسان الا الموافق ولا أهله الادنون غير الاصادق

أما حقوق الصحبة وآدابها التي يجب الوفاء بها قياما بحق الصداقة فقد يمكن حصرها فيما يلي :[1]

(١) الحق في المال : قال النبي صلى الله عليه وسلم « مثل الاخوين مثل اليدين تغسل احداهما الاخرى » يريد المعاونة

---

١ الاحياء للغزالي

في الشؤون المالية بالاقراض والمعاونة الى اشباه ذلك حتي ولو وصل الحال لدرجة الايثار على النفس مما بلغت اليه حال المروءة الاسلامية على عهد النبي صلعم وقد مدح حالهم فيها في الكتاب العزيز « الذين يؤثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة » ولنا فيما جرى من المواخاة بين المهاجرين والانصار على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ومشاركتهم لهم في الاموال اعظم برهان على ما قام قديما عند المسلمين من تلك المروءات والعنايات الآلهية مما قد لا يمكن بحسب الاحوال الاجتماعية والاصطلاحات الشرعية والعرفية أن يقوم مثله الآن لان اتلك الاعمال أحوالها التي كانت مطلوبة لها والتي كانت الامة في حاجة اليها أما في مثل الاحوال اللاحقة والعرف الذى نحن عليه فلهذا الحق درجات قد لا تخرج الا بالميزة القليلة عن دائره سائر المعاملات بين الخلق مراعاة لشأن الصداقة وأمر الاخاء وثقة النفوس وتوددها وسقوط التكاليف بين الاصدقاء

(٢) الاعانة بالنفس في قضاء الحاجات حاجات الاخوان ولها درجات في الفضل قد تبتدىء بسؤالها من الصديق وتنتهي على أفضلها في قيامه بها ابتداءً بمجرد علمه بها وقدرته

عليها مع ابداء الارتياح والبشاشة وقبول المنة واظهار الفرح والسرور لتسر أفئدة الاصدقاء ويدخل في الباب السؤال عن الاخوان إذا غابوا وعيادة مرضاهم فانها كلها من أوكد الحقوق في الصحبة وأحرى ان تدوم بها المحبة والمودة .

(٣) السكوت باللسان عن القدح بحق الاصحاب فيما يعد تنقيصاً لشأنهم وحطاً من كرامتهم أو اغتيابهم فيما يكرهون في نفس أو عرض أو مال ولا يكتفى بذلك بل يجب الرد رد غيبة الاصدقاء بالدفاع عنهم فضلاً عن نشر الثناء عليهم بما هم أهله مع إبلاغهم بما يسرهم مما يكون قد أطرى عليهم به من المدح والثناء الحق .

ويدخل فى الباب نصح الصديق اذا رآه قد وقع بلسانه فى منكر من بذاء أو خنا فينهاه باللطف واللين عنه ، وكذا ان شاهد منه جنوحا الى اقتراف محرم من شرب خمر أو اندفاع فى رذيلة فان هذا من اوكد الحقوق واجمل الآداب وافضلها بحق الاخوان والاصدقاء فضلا عما فيه من ثواب عظيم عند الله

ويدخل في أدب الباب من باب اولى الامتناع عن التشاتم والتشاحن والمراء والمزاح « الثقيل » ثم التجسس والتحسس

وأساءة الظنون فان تجنب هذا كله من موجبات زيادة الالفة وتوثيق عرى الصداقة والاخلاص لدوام المحبة . قال صلى الله عليه وسلم « لا تجسسوا ولا تحسسوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله اخواناً »

وبالجملة فانه يجب معاملة الصديق بما يحب المرء ان يعامله صديقه به وهو النصفة بالحق ولقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثاً كريماً «احب لاخيك كما تحب لنفسك» ولاشك ان الصديق انما ينتظر من صديقه الاخلاص وستر العورات والنصح ورد الغيبة والابتعاد عن النميمة المحرمة شرعا «أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً » والابتعاد عن المراء والتسفيه قال بعض السلف « من لاحي الاخوان وما راهم قلت مروءته وذهبت كرامته » وفى الحديث الشريف «ذروا المراء لقلة خيره وذروا المراء لان نفعه قليل وإنه ليهيج العداوة» ولاشك انه المماراة تسقط مروءة الانسان لان من يريد أن يظهر بمزيد العقل والفضل على الاخوان واحتقار المردود عليه باظهار جهله أو تجهيله وتسفيهه موجب للتضييع والقطيعة مورث للعداوة ولقد قال الحسن رضي الله عنه حكمة جليلة فى المعنى قال « اياك ومماراة

الرجال فانك لن تعدم مكو حكيم أو مفاجأة لئيم» أما المذاكرة والمجادلة بالادب والمسامرة والمناظرة باللطف والرقة فممدوحة ومفيدة جداً

(٤) حسن النطق بحلو الكلام وتعود محاضرة الاخوان بما يذيع المحامد والمحاسن وينشر بين الاخوان لطائف الحديث وأطايب الكلام والسمر بالادب والحشمة مع ترك هجر القول وبذاء اللسان والتجهيل والمماراة على نحو ماسلف وبث لطايف العلم والمعرفة والمطارحات والمحاورات فيها بالعقل والكمال وتخليل الحديث بشيء من لطيف المزاح ورقيق الملح والفكاهات الادبية باللطف والادب وهو مبداء كريم من أفيد ما يتحرى لدوام المنفعة من الصحبة والصداقة وإيناس الانفس المتحابة وتطييبها وانعاشها بذلك.

(٥) العفو والاغضاء عن صغير الهفوات واغتفار تافه الزلات مما قد لايخلو منه انسان ولايوجب قطيعة ولا يقتضي هجراً ولقد تقدم ان النصح في مقام الوقوع في الرذائل لازم في السر والخفاء وعدم التشهير والتسفيه شفقة وحنانا واجب لانه لن تثور ثائرة الكراهة والبغضاء في النفوس الا من هذا

الجانب فاذا قدرت على تقويم أود الصديق واقالته من عثراته وزلاته وانتشاله من أوحاله على هذه القاعدة فقد فزت بأجل ما يشكره الناس والله تعالى لك . أما تلك السقطات الخفيفة فيكفي فيها مجرد التنبيه عليها بكل لطف ورقة لدوام المودة وتوثيق عرى المحبة وأعلم أنك لم تستبق صديقاً اذا أنت اكثرت من الملام والتعنيف في كل شيء وزدت في التأنيب كما قال الشاعر مظهراً لحال أكثر الناس فى تلكم الصغائر .

ولست بمستبق أخاً لا تلمه على شعث أى الرجال المهذب

(٦) الاخلاص والوفاء وهما من أوكد ما تدوم بهما الصحبة وتعرف بهما المروآت في الهيئة الاجتماعية فاذا بلغ امرؤ مرتبة أعلى من مرتبة أصدقائه فليداوم على مودته واخلاصه ولا يصرم حبال صحبته وإن بعدت بينهما الخلطه والعشرة مراعاة للمقتضيات أما الوفاء فهو الثبات على الحب حال الحياة وبعد الممات بالتعطف والتلطف على أولاد واصدقاء الصديق قال النبي عليه الصلاة والسلام « قليل الوفاء بعد الممات خير من كثيره فى حال الحياة »

(٧) التخفيف وترك التكليف من أجمل الآداب وأعظم

الاصول حتى لا يثقل على الصديق بالزيارات ولا بالتكاليف ولا بالتغالى وإظهار مالا يقدرون على القيام له بمثله فى الضيافات والحفلات الاخوية خصوصاً قال بعض الحكماء « من جعل نفسه عند الاخوان فوق قدره فقد أثم وأثموا ، ومن جعل نفسه فى قدره تعب وأتعبهم ، ومن جعلها دون قدره سلم وسلموا » ولن يتم التخفيف الا باطراح التكاليف خصوصاً وإن عرف المرء فضل نفسه أو عظم ذات يده على صديقه وهذا هو التواضع المحبوب ومن تواضع لله رفعه

*
* *

هذه جملة حقوق وآداب الصحبة والصداقة الخصوصية أما حقوق وآداب الهيئة الاجتماعية بين عموم أبنائها على حد سواء فى كل معاملاتهم وأحوالهم فلها اصول ولها مبادىء أدبية واجتماعية بالنظر الى المعاشرات والمعاملات والجوار [1]، فالخلطة التي تقتضيها مطلق المعاشرة والمعاملة الاجتماعية أحسن ما يكون فيها إن تبنى بحسب القواعد الاسلامية التى ساوت بين الطبقات في الحقوق والواجبات على كرم الاخلاق وحسن

---

١ الاحياء للغزالى ونحوه

المعاملة بالبشر وطلاقة الوجه والمروءة في الفعال والتلطف في المقال ومما يزيد الألفة بين الناس افشاء السلام ولين الكلام وتجنب الأذي باللسان والافعال مصداق الحديث الشريف « المسلم من سلم الناس من يده ولسانه » والتجاوز عن بعض السقطات وتوقير ذوي المقامات والاعمار والبر والشفقة على الضعفاء والمساكين واغاثة الملهوفين واصلاح ذات البين بين المتشاجرين وإزالة المنكر للحديث المشهور من رأي منكم المنكر فليزله الخ فهذا وأمثاله مما يدخل في باب المروءة الانسانية من الآداب الصحيحة الاسلامية وأفعال الخير الشريفة ليصدق على أفعال أبناء الهيئة وأفرادها في شعورهم وكل معاملاتهم حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم — وقد تقدم أيضاً — « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد إذا اشتكي عضو منه تداعي سائره بالحمى » وهو حديث كما تقدم كله حكمة ناطقة بلزوم التضامن والتكاتف بين أبناء الهيئة والتزام عظم الشعور وكريم الاحساس بالشفقة والرحمة والغيرة الانسانية والتضامن القومي ترى آثاره في الغرب تكاد تلمس باليد والشرق مع ذلك أبو عذرتها والآثار في الباب وحق المسلم على المسلم كثيرة

أما المعاملات في مطلق الشؤون التعاملية — والدين المعاملة — فيجب فيها الصدق واداء الامانة التي حملها الانسان والابتعاد عن الخيانة والعدل في الاخذ والعطاء والوفاء بالعهود والوعود كما نطق به الكتاب العزيز والانصاف من النفس وان يصحب الناس بما يحب ان يصحبوه به قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لابي الدرداء « يا أبا الدرداء أحسن مجاملة من جاورك تكن مؤمناً وأحب للناس ماتحب لنفسك تكن مسلما »

ومن الآداب الاسلامية الجليلة عدم التهجم على البيوت في الحاجات الا بعد الاستئذان كما نراه اليوم في الآداب الغربية وهو واثم الحق من المبادىء الاسلاميه كما في الآية الشريفة «لاتدخلوا بيوتاً غير بيوتكم الا أن يؤذن لكم» وكذا الاطلاع على أسرار الناس في مكاتيبهم منهى عنه عندنا جاء في حديث « من أطلع على كتاب أخيه بغير أمره فكأنما أطلع في النار»

ومنها ان يبدأ بالسلام قبل الكلام حتى مع أهل بيته وان لا يبدى استهزاءه بأحد من خلق الله ويتجنب البذاء في كلامه والهجر والسخف في أقواله وان يجالس الناس بالادب والحشمة والوقار ويعطى مع ذلك كل انسان حقه من الاحترام والتوقير

خصوصا العظاء والعلماء والشيوخ ويفسح في المجالس لمن يقتضى الحال والمقام باجلاسه ولو مكانه كما لا يتصدر في المجالس ولا يزاحم أحداً في الطريق ويسعى في اماطة أذاه باى واسطة ويغيث الملهوف كذلك ولقد جاء فى الحديث الشريف «من أغاث ملهوفا كتب الله له ثلاثاً وسبعين مغفرة واحدة فيها صلاح أمره كله وثنتان وسبعون له درجات يوم القيامة » ثم الشفقة بالحيوان الاعجم ومنها مراعاة الادب والكمال فى مخاطبة النساء وغض الطرف من محاسنهن وعدم مشاقتهن بقبيح وصيانة الاعراض والذود عن الحريم واحترامه ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من حمى عرض أخيه المسلم بعث الله تعالى ملكا يحميه يوم القيامة من النار »

ومنها البر بالمساكين ومد يد الرفد والمساعدة الى الفقراء والمعوزين على قدر الطاقة واطعام المرضاء وذوي الفاقة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من أطعم مريضا شهوته أطعمه الله من ثمار الجنة» ومنها الافراج عن المعسر وقد جاء فى حديث « من أراد ان تستجاب دعوته وان تكشف كربته فليفرج عن معسر » ولقد يفضل فى الصدقات السر عن الجهر كما يفضل

البر المصرى من اعانة الجمعيات الخيرية التى تتكفل بحسن التوزيع طريقته القديمة حتى لا تكثر في الامة فئة أرباب الشحاذة من الكسالى والذين يسألون الناس الحافا ويفسدون أخلاقهم بأيديهم بالتسول والتكفف وهم بعد فى غنى ومتسع من صحة البدن والقدرة على الشغل والعمل ·

أما حقوق الجوار[1] -- ولقد أوصى كثيراً رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجار حتى كاد يورثه كما أوجدت أصل الشفعة في الشريعة مراعاة لراحته — فهي من أشرف الحقوق وأجل الآداب الاسلامية وفي الحديث الشريف « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره » ولقد جعل من تمام حق الجار ليس فقط ان يكف المرء عنه أذاه بل وان يتحمل ما يمكن أن يحتمل من أذاه وجملة حق الجار وآداب الجوار أن يبدأ المرء جاره بالسلام إذا لقيه ويسأل عنه إذا غاب ويصنع معه فى الفرح والترح ما يصنع مع صديقه وينصحه في زلاته ولا يتطلع الى عوراته ويحفظه فى اهله ولقد جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حديث كله حكمة عالية بعض تلك الحقوق

---

١ الاحياء للغزالى

للجار بحسب الآداب الاسلامية القديمة قال عليه السلام «أتدرون ما حق الجار إذا استعان بك أعنته وإن استنصرك نصرته وإن استقرضك اقرضته وإن مرض عدته وإن مات تبعت جنازته وإن اصابه خير هنأته وإن اصابته مصيبة عزيته ولا تستطل عليه بالبناء فتحجب عنه الريح الا باذنه ولا تؤذه وإذا اشتريت فاكهة فأهد له وإن لم تفعل فأدخلها سراً ولا يخرج بها ولدك ليغيظ بها ولده ولا تؤذه بقتار قدرك (رائحة طعامك) إلا ان تغرف له منها . ثم قال أتدرون ما حق الجار والذي نفسي بيده ولا يبلغ حق الجار إلا من رحمه الله»

﴿ الباب السادس ﴾

أدب الحكومة

النظام طبيعي — العدل اساس الملك - الاصول اللازمة من الحكومة — الحكومة النيابية في الاسلام — بسط رواق الامن — العدل وضبط احوال الرعية — ضرورة انتقاء العمال بالكفأة — الرشوة علة فساد الشرق قديماً — تنظيم الجندية من اهم دعائم الملك — ولاية القيادة علي الجند مهمة الدولة بحق العلم — لضمان سير الامور — آداب الملوك الخصوصية — شأن الوزير — آداب الوزير — اختيار العمال — حاشية الملوك ومقابلاتهم — طاعة السلطان — احترام السلطان في شخصه ·

اذا كان هذا الكون المحكم بعوالمه من افلاك وسيارات وكواكب ثابتة أو شبه ثابتة ونيازك سابحة وعناصر مؤتلفة ومختلفة أو شبه مختلفة انما يقوم كله على نظام ويدور بمقتضى تدبير محكم يحوطه بدقة وترتيب عجيب مع أن صانعه الله تعالى قادر على أن يمسكه بقدرته بلا رجوع الي أسباب عاملة أو نواميس ضابطة من حركات وسكنات وجاذبية عمومية الى اشباه ذلك مما هو تقدير العزيز العليم فأحر بالانسان وهو بشؤونه الاجتماعية ذلك الكون الاصغر أن تكون كل أحواله واعماله العمومية جارية هي الاخرى بمقتضي نظام يدير شؤونه ويسوس اموره تلك الشبيهة بالاختيارية فمن ثم اقتضت ارادة الله سبحانه

وتعالى أن لا يصلح الناس فوضي بل لا بد من سلطان وازع
وشرع نافذ منه سماوى ومنه ارضى بذا قضت منذ القدم وفي
كل الشعوب والامم سنة الله فى خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا
ولهذا قيل السلطان ظل الله في الارض

بالعدل والنظام قامت السموات والارض وبالعدل والنظام
تكون الحكومات الانسانية على الارض فى جميع ماهو مطلوب
من شؤونها اللازمة منها والواجبة عليها ومبدأ القرآن فيما يتعلق
بالنظام الاجتماعى دائر على محور اقامة العدل وحسن تدبير الشوؤن
فى سياسة الخلق لحب الله له فضلا عن مبدأه الديمقراطى فى
الحرية والمساواة بين المسلمين ، فسياسة المصالح وتدبير الامور
وفاق مبادئها الحقة ونواميسها الصحيحة بحسب الظروف
والمقتضيات في الماديات والادبيات مطلوب من الراعي لرعيته
وبعبارة اخرى انه بلا أدنى ريب أساس الحكومة بمقتضى النظام
الاسلامي ، ويرجع هذا من تقرير النظام الى بسط رواق الامن
وتمهيد سبل استغلال الثروة في الهيئة ونصب ميزان القضاء العادل
بالشرع والقانون لانالة الحقوق ورد المظالم والفصل فى الخصومات
والقصاصات ثم الذود عن حياض المملكة والدفاع عنها ثم وأخيراً

تعضيد العلم والعلماء وتسهيل أمر نشر المعارف والامر بالمعروف بين الرعية لتسعد في المعنويات التي توجب ولا شك السعادة في الماديات بالعمل الفردى على مبداء الحرية فيه

تلك هى أهم الآداب المطلوبة وبالتالى أعظم الاحوال والحقوق الواجبة علي الحكومة فى نظر الاسلام المنوطة بها مما حث عليه الشارع ونزل به الكتاب وقام به العرف الصحيح فكان منه بحقه الضمان لسير الامور على محور الاستقامة بما جاء فى الاسلام من مبداء الشورى وأمر النبي بها للتشريع لأن مقام النبوة غير مقام الملك كما لا يخفى ، وغريب ان قد وفقت الامم الغربية الحديثة للمبداء الدستورى النيابى فى الحكومة بمقدار ما بعدت عنه الامم الاسلامية التى لها منه مندوحة صريحة فى تلكم الآيات البينات غير أن الامر انعكس لان حب الملك العضوض جعل أمر الحكومة مطلقة في الاسلام بشروطها المعلومة التي لم تراعى هى الاخري حق رعايتها فى تدبير شؤن مصالح العباد مما حفظت مساويه الايام فى بطون تواريخها الا قليلاً .

وانى لا اريد أن ادخل هنا فى بسط نظام أو ترتيب

الحكومات الاسلامية بحسب المصطلحات أو العرف من الامامة أو الخلافة [1] أو السلطان الخ وانما اريد أن ابسط آداب الحكومة في الاصول الاربعة الآنفة وما يدخل في هذا عرضاً من أدب الحكام والوزراء والقيادة وتنظيم الجندية والعمال والقضاة الخ بحسب ماهو مسطر عنها في كتبنا الاسلامية [2] ومايفهم من المبادىء المقررة عنها والامور الملحوظة مما يترتبط بذلك خصوصاً فيما نرتأيه نحن أبناء هذا العصر مما منه أكبر الفائدة على كل حال

فمن أوكد ماحث عليه الشرع والادب الاسلامي في سيرة السلطان بسط رواق الامن وأقامة دعائم العمران بتسهيل سبل الزراعة ووسائل التجارة واحياء الصناعة لتسعد الرعية وتغبط وتغتني في أرزاقها وأقواتها وسائر مرافقها فتغبط من ثمّ الحكومة وتزداد أموال الدولة بازدياد الخراج والاعشار وكل الضرائب اللازمة لاقامة دعائم الملك وفي هذا مبلغ القوة للدولة والعزة وعمار بيوت المال بعكس ما لو أهمل السلطان أمر اقامة تلك المنافع وتيسير سبل انماء الثروة على الرعية فان الجبايات تقل بقدر تلك النقصانات في وسائل العمارية أو اختلال الامن أو

(١) راجع راجع الاحكام السلطانية للماوردى (٢) سراج الملوك ونحوه

تعدى أعوان السلطان بالظلم فى الرعية والاجحاف وأرهاف كواهلها بالمظالم والمغارم فان نفوس الرعية حيال هذا الحال المعكوس بل الفساد المنهى عنه تكسل وتخور العزائم وتثبط الهمم فى الاعمال إما للكساد وقيام الصعوبات في الاخذ والعطاء وإما لفقدان الامن وكثرة التعدى على الاموال والارواح فمن ثمّ تقل الجبايات والايرادات لتلك الاسباب المانعة ، فتوطيد دعائم الأمن وتأسيس المنافع وتسهيل سبل المرافق سواء في الزراعة أو في الصناعه أو فى التجارة من أجل وأعظم ما حث عليه الشرع الاسلامي وأوجبته المبادىء الاسلامية فى آداب السلطان وبالتالى في مبداء الحكومة الاسلامية .

أما الامور العدلية وما فى حكمها من النظام والشؤون الادارية فمن أعظم متحراها وأجل مبادئها اسلامياً « العدل » وهو أساس الملك ثم الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ولقد نص الله تعالى فى غير ما آية من كتابه العزيز على اقامة قسطاس العدل فى الشؤون المختلفة فيما يشجر بين الناس من الخصام والصدام فى الحقوق وسائر المعاملات والاحوال الشخصية وضبط الشؤون والآداب العمومية بالامر بالمعروف والنهى

عن المنكر والشرائع الآلهية والنظامات الوضيعة التى تستلزمها
ظروف الاحوال والمقتضيات الزمانية بحسب المصالح المرسلة
كلها تنشد ذلك في جوهره وتبنى عليه للنصفة بين الخلق فى
الحقوق والقصاصات التي هى حياة للامة ولذلك أوجدت الترتيبات
اللازمة لاقامة ذلك من انشاء دوائر القضاء المدنية والجنائية
فضلا عن ادارات الشرطة والعسس والحسبة[1] (تلك الوظيفة
الاسلامية المهمة التى تقع فى رقبة كل مسلم قادر لانها من الامر
بالمعروف والنهي عن المنكر الواجب فى حق القادرين من المسلمين
وقد حورها الغربيون الآن فقام على مبدأها عندهم مثل جمعيات
منع المسكرات والتدخين وحماية النساء وصيانة الآداب العموميه
والجمعيات الخيريه والرفق بالحيوان الخ) المنوطين بالضبط
والربط ورفع الجور والظلم ومنع الفساد والمحافظة على الامن العام
واستتباب الراحة بين الانام وصيانة الآداب ومنع شرور الاسواق
في بيوعها وغشها وتطفيفاتها الخ فشأن هؤلاء الموظفين كالاطباء
الصحيين فى أعمال الوقاية واتخاذ التدابير اللازمة لتجنب الوقوع
فى الامراض ومعلوم ان دفع الامر ابتداء اسهل من دفعه بعد

(١) الاحياء للغزالي

الوقوع فيه، اما القضاة المنصوبون من قبل السلطان للقيام بالفصل في الخصومات وتقرير وتوقيع العقوبات والقصاصات والاحكام فكالاطباء القائمين بوظيفة التطبيب في الامراض اللاحقة بالاجسام وكل ضروري ولكل وظيفته في الهيئة الاجتماعية.

واذا كانت هذه التدبيرات بهذا المقدار من الاهمية والنفع في نظر نظام الحكومة الاسلامية قديماً حيال اقامة المصالح العامة بين الافراد والامور المشتركة في الرعية فلا جرم وجب وتحتم ان يكون القائمون بها من قبل السلطان من ذوي الكفاءة والاستقامة ولهذا اشترط في نظام الهيئة الاسلامية وآدابها السامية في اختيار القضاة والحكام وسائر العمال ان يكونوا من أهل العلم والتقوى والنزاهة قال المرحوم قاضي قضاة مصر السابق السيد عبد الله جمال الدين في كتابه الموسوم « بالسياسة الشرعية [1] » بحق اختيار القضاة مانصه «ومما يعتني به كثيراً تولية القضاة فيجب ان ينتخبوا من الناس الذين هم أعلم الناس وأورعهم وأعقلهم ومن المعروفين بالعفة والاستقامة والأمانة خصوصاً ولقد ورد في الحديث الشريف إن الله يحب البصر الناقد عند ورود الشبهات

---

١ السياسة الشرعية

ويحب العقل الكامل عند حلول الشهوات » ولقد جاء في الرشوة تلك الآفة التي تبطل المصالح وتفسد الشؤون والنفوس في الهيئة آيات بينات واحاديث كريمة فقد لعن النبي صلى الله عليه وسلم الراشي والمرتشي كما لعن شارب الخمر وبائعها. والرشوة كما لا يخفي من أمهات علل الشرق وقد جعل لها العقاب الصارم في أصل الدين على الراشي والمرتشي وأنها والظلم والعسف والطغيان النفسي لمن اكبر الرذائل وأعظم الفضائح الضارة التي طالما جرت بالرغم عن جودة النظام الاسلامي الى اشأم الظلم في المصالح وتقهقر أحوال الرعية واضمحلال أمر السلطان، والرشوة وما في حكمها هي السحت والربا المحرم وأكل أموال الناس بالباطل ولكن الحكام لفساد الاحوال والاخلاق التي كانوا عليها شرهوا وعوّدوا الناس عليها وابوا قضاء المصالح غالباً الا بها مع انها من شر ما حصل امرؤ من مال طالما أفسد حال صاحبه وأهلك الحرث والنسل وهي اذا أخذت لاحقاق باطل كانت من اشأم الظلم والجور الذي لا يفلت صاحبه من عقاب الله الشديد واذا تنوولت لتيسير مصلحة محق كانت من أعظم أكل اموال الناس بالباطل.

على ان ما كان ينتحل في الرشوة من اسم الهدية لهو من

الكذب على الله والافتراء على الناس لان للهدية شروطاً وحدوداً وآداب بين الاخوان والاصدقاء لمجرد المحبة الخالصة المتبادلة وانتحالها بين حاكم ومحكوم ليس في شيء من ذلك البتة جاء في صحيحي البخاري ومسلم عن أبي حميد الساعدي قال «استعمل النبي صلى الله عليه وسلم رجلا من الازد اسمه ابن اللتبية على الصدقه فلما قدم قال هذا لكم وهذا اهدى الي" فقال النبي صلى الله عليه وسلم مابال الرجل نستعمله على عمل مما ولانا الله فيقول هذا لكم وهذا اهدى الي" فهلا جلس في بيت أبيه أو بيت امه فنظر أيهدى اليه أم لا والذى نفسي بيدى لا يأخذ منه سيئاً الا جاء يوم القيامة يحمله على رقبته ان كان بعيراً له رغاء أو بقرة لها خوار او شاة تيعر ثم رفع يديه حتى رأينا عفرة إبطه وقال اللهم هل بلغت ثلاثا» وقال الشاعر في مثل تلك الهدايا :

إذا أتت الهدية دار قوم تطايرت الأمانة من كواها

وجملة القول ان من أعظم مايفسد المصالح القضائية والادارية فى المملكة إنما هو تمادى عمال السوء فى أخذ الرشوة وخيانة الدولة فيما ائتمنتهم فيه مما جر قديماً الى اشأم المغاب والفساد وتضييع المصالح وتدمير الممالك الأمر الذى قد أوجدت له

النظامات الحديثة القوانين واللوائح الادارية لقصاص العمال عمال السوء والضرب على أيديهم حتى تستقيم احوال المملكة وتنتظم شؤون الرعية ولقد قال المأمون الخليفة العباسي المشهور هذه الحكمة الحكيمة قال « مافتق عليّ قط من فتق في مملكتي الا وجدت سببه جور العمال »

ولا غرو فالتاريخ أصدق شاهد على أن تسلط العمال بما يعطوا من السلطة غير المقيدة بقانون أو نظام أو كفاءة صحيحة موجب لعدم الضمان وموجد للجور والتمادى فى العسف فيتخذون الرعية خولاً واموالها دولاً الامر الذي قد يجر الى أشأم الظلم والفساد وانتقاض الاحوال فى المملكه فاختيار العمال واجب وتقييدهم بالنظام لازم وانتقاؤهم من ذوى الكفاءة من ابناء الامة المشهورين بالصدق والاخلاص والعفة والحزم ضربة لازب ولله ما احكم ما قال الشاعر الحكيم :

وما قادها للخير إلا مجرب ... عليم باقبال الامور كريمها
وما كل ذى اب يعاش بفضله ... ولكن لتدبير الامور حكيمها
وماسقطت يومامن الدهر امة ... الى الذل إلا ان يسود ذميمها

أما الاصل الثالث من دعائم قيام المملكة فهو تنظيم « الجنديه »

للحراسة والذود عن حياض الدولة والامة داخلا وخارجاً ولقد كان لكل دولة من الدول الاسلامية بل ولكل دولة من دول الارض قديماً وحديثا العناية التامة بتنظيم الجندية بحسب المقتضيات الزمانية والمكانية ففي هذا الزمان تخالف هذه النظامات العسكرية ترتيبا وعدداً واسلحة نظامات العصر الذى تقدمنا وذلك العصر يخالف الذى سبقه وهلم جراً والرقى هنا مطلوب وواجب حتى يكون استعداد الممالك القائمة والدول ذوات السلطان مناسباً لمقتضيات الاحوال في حفظ سياج الدولة وبعبارة اخرى مساوياً لما عند الدول القائمة والممالك المناظرة وكافياً لحفظ الأمن داخلها والسلام خارجها وهذا أمر مطلوب ومرغوب فيه وداخل فى حكم الآية الشريفة « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل » والدول المعاصرة كلها تتحرى هذا الامر وتتشدد على أفضله واكمله كما ترى من عظم استعداداتها الحربية والبحرية بهذا تكون الدولة بين الدول ذات سطوة ويحسب لها حساب وتأمن جانب الطوارئ وصد كل مناوئ لها بالعدوان وتحصل لها من ثم الهيبة والاحترام بين الدول وفى أعين الرعية بما يكون لها من وزان فى القوي

والسياسة وحسن الادارة الداخلية مما يكون لها من ورائه ولا
ريب السلم الحقيقي وبعبارة اخرى السلم المسلح إذا كان البشر
قد صاروا فى هذا العصر فى حال من ارتقاء الشعور لدرجة قد
زهدوا معها حقيقة فى الحروب ومقتوا سفك الدماء وقتل النفوس
مما له أصل فى قول الله تعالى فى خطاب النبي صلى الله عليه وسلم
بحق أعدائه « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله »

لكن هذا المبدإ فى مراعاة السلم وكف العدوان والشر
لا ينفي البتة مبدإ تجنيد الجنود وعمل الاستعداد للطوارىء
براً وبحراً لحفظ سياج المملكة فى داخلها وخارجها لا سيما إذا
كانت المملكة مترامية الاطراف متباينة الاقوام فيجدر بالمملكة
الاسلامية على كل حال بحكم المبادىء الاسلامية والدولية
العصرية أخذ الحذر والسهر والمداومة على انتقاء أحسن الترتيبات
العسكرية الفنية مما له اصل ترغيب فى القرآن « ان الله يحب
الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص » وكل
هذا من أمر الجندية يقتضى اغداق الارزاق على الجيوش
واختيار أجود العدد والسلاح واللباس لاستكمال الابهة والزينة
العسكرية وتلك « الخيلاء » الخصيصة بالجندية والتى لا تحمد

الا فى مشية الجنود بترتيبها المعهود وزيها المعلوم ونظام آدابها العالية التى تحبب فيها النفوس .

قال الامام الطرطوشى فى كتابه سراج الملوك فى فضل الجندية والحث على العناية بشأنها وما يطلب من الجند من الشجاعة والبسالة فى الكر والفر بحسب اصطلاح عصره مانصه « الجند عدد الملك وحصونه ومعاقله وأوتاده وهم حماة البيضة والذابون عن الحرمة والدافعون عن العورة ، وهم جنن الثغور وحراس الابواب والعدة للحوادث واعداد المسلمين والحد الذى يلاقى العدو والسهم الذى يرمى به والسلاح المدفوع في نحره ، فبهم يذب عن الحرم وتؤمن السبل وتسد الثغور ، وهم في الارض حماة الثغور والذادة عن الحريم والشوكة على العدو . وعلى الجند الجد عند اللقاء والصبر عند البلاء ، فان كانت لهم الغلبة فليمعنوا في الطلب وان كانت عليهم فليكسروا الاعنة وليجمعوا الأسنة وليذكروا أخبار غد . وينبغى للملك أن يتفقد جنده كتفقد صاحب البستان بستانه فليقلع العشب الذى لا ينفعه فمن العشب مالا ينفع ومع ذلك يضر فهو بالقلع اجدر ولا يستصلح الجند الا بادرار أرزاقهم وسد حاجاتهم والمكافأة

لهم على قدر عنايتهم وبلائهم ، وجنود الملوك وعددها وقف على سعود الائمة ونحوسها »

وولاية القيادة على الجنود من أهم الخطط والوظائف المشروط لها التضلع من الفنون الحربية وصفات الكفاءة العالية من الشجاعة والشهامة فضلاً عن الاخلاق الاخرى التى تصلح للقيادة وتناسبها من الشفقة على الجنود والحنو عليهم بغير ضعف ولاتدلى لدوام الاحترام وحفظ النظام نظام الجندية وشرفها العالى مع حسن تبصر وتدبير لأقواتهم وصرف أرزاقهم بكل دقة وعناية حتى لاينفرط عقد الطاعة ولا ينصرم حبل النظام وهو عماد الجندية وسياجها وروحها

وحيث كان الجند هو حامى الدمار والذاب من الدولة فأحر به أن يكون وقواده أميناً صادق الوطنية والاخلاص لسلطانه ودولته وبلاده لان فى «الخيانة» فضلا عن الذلة والمهانة وبيع الشرف العسكرى تلف الدولة وسقوطها سواء فيما اذا وجهت أشياؤها نحو العصيان على السلطة العالية أو نحو ما هو شر منها من خيانة الاوطان. والذى يقرأ التاريخ الاسلامى يرى أن ثورات الجنود وكثرة قيامها وهياجها فى الدول الاسلامية

على السلاطين قديما أو خياناتها لهم ميلا مع الطامعين فى الملك من الامراء والمنازعين فيه من المغتصبين انما كان من أقوى العوامل على ذهاب ريح هاتيك الدول وسقوطها بالسرعة باضافة تلك الاسباب الاخرى وسبب كل هذا عدم التقييد بنظام متقن يرجع اليه في قصاصات الجنود على نحو ما نراه اليوم في الاحكام العسكرية وقوانينها الصارمة مما لا يمنع منه شرع ولا عرف حسن ولكن لم تكن الفكر لتذهب اليه في تلك الايام للأسباب الجمة التى ألهت الملوك بانفسهم وحظوظهم فجاءتهم النكبات من حيث ظنوا النصر والتعضيد لدرجة ان صار الجند كما كان الحال في دولة الاتراك بعصر قديما هو الذى ان شاء ولى وان شاء عزل فكان قوله القول ورأيه الفعل ولكن هذا ليس من جودة النظام فى شىء ولكل أيام دولة ورجال إذ للسياسة أساطينها وللجندية وظيفتها التابعة

وجملة القول ان الجندية ونظامها من أهم النظامات المطلوبة وألزمها في الهيئات الاجتماعية والهيئة الاسلامية ومسؤوليتها فيها دقيقة وعظيمة وعبئها وأدبها كبير بقدر ما شرفها عظيم ومقامها لدى البشر مقام خطير.

أما تعضيد العلم ونشر المعارف في المملكة فلا إخال أحداً يجهل مقدار عناية ملوك المسلمين العظيمة وحكوماتهم السالفة ومبادىء نظامهم نفسه به وكل سيرة السلاطين والخلفاء واحتفائهم بالعلم والعلماء واهتمامهم بالمدارس والمكاتب ومعاهد العلوم والوظائف الخصيصة بالعلم والتعليم مما هو من متعلقات الدولة والتي يجب عليها انشائها بما لها من وظيفة القيامة على الامة والامر بالمعروف والنهى عن المنكر فيها كلها معلومة من التاريخ ولقد كان من الاقوال المأثورة وغرر الحكم المنثورة قولهم « الملوك حكام على الناس والعلماء حكام على الملوك » وما كانت تلك الحكومة الا لمصلحة الراعي والرعية ولذلك أوجدت من قديم الزمان فى الاسلام تلك التأسيسات العلمية الجمة والتنظيمات المهمة مما كان من ورائه احياء معاهد العلوم وانشاء المدارس والكليات واغداق الارزاق على العلماء والقائمين بوظيفة التدريس والتعليم فيها وفى المساجد والجوامع فى كل فروع العلوم المفيدة وتنشيط العلماء والمؤلفين قياما بواجب حق العلم ونشره لتثقيف عقول الامة وتهذيب اخلاقها وتنوير اذهانها فيما ينفعها دنيا وأخرى على ان النظامات والاساليب العصرية فى نشر هذا

العلم بين الامة لها مزيتها العصرية وموافقتها الذوقية وليس في ذلك كله منها مايخالف المبادىء الاسلامية بل يمكن ان يقال انها نعمت الوسائط كما يقال نعمت الغاية غاية تعليم الامة ماينفعها ويفيدها بحسب المقتضيات وأمر صلاح الدنيا موكول فيه الشأن لاختيار الامة وحسن الاذواق والعرف المتداول كما لا يخفى « انتم بمصالح دنياكم ادري مني بمصالح دينكم »

هذه هي الاساطين الاربع التي يقوم عليها أدب الحكومة الاسلامية وبالتالي الاساسات التي تبنى عليها ارتقاء أحوال كل الامم الاسلامية وغير الاسلامية متى ماروعيت على الوجه الاتم وهو عين العدل والاصلاح المطلوب اقامته بين الناس في الحكم والحكومة على أوسع المعاني واجلها بل هو الذي جعل الامم الاوروبية للضمان عليه وللاستيثاق من تمشيته على نسبه الصحيحة وأصوله الحقة ان يستنبطوا له شكل الحكومة النيابية التي يشارك فيها الشعب حكومته في الحكم لا لشيء آخر سوى الضمان وراحة البال بالاشراف والمشاركة في الامر في التشريع ومراقبة السلطة في التنفيذ مع معرفة حق الملوك مع ذلك واحترامهم واجلال مقاماتهم وطاعتهم بما لا يقل عما اذا كانوا

مطلق التصرف غير مقيدي الحكم بذلك النظام الجليل النظام
النيابي بل ربما زاد عليه كما هو مشاهد في ممالك أوروبا الحالية
ولقد مر بك ان روح المبادىء الاسلامية ونصوص القرآن
لتجيز بل تحتم بنوع ما اتباع هذه الخطة في الحكم وأمر السلطة
بما قد ندب اليه من الشورى في الامور وأمر النبي بها نفسه
وبالنهي عن الظلم والاستبداد بالرأى دون سؤال اهل الذكر من
العلماء والحكماء اى اعيان ابناء الامة ورؤسها وتساوى المسلمين
في الحقوق والواجبات العمومية ذلك المبداء الذيمقراطي العظيم
الذي قد يغبط عليه الاسلام من أبناء الملل الاخرى بالنظر
لاحوالها القديمة ولا غرو فقد جاء في الآية « إنما المؤمنون
اخوة » وفي الحديث الشريف كما تقدم تشبيه المسلمين بالبنيان
يشد بعضهم بعضاً، ثم إن في المبادىء الاسلامية التي بينها الائمة
المجتهدون في إختيار الخليفة والامام والولاة والقضاة والحسبة
ما هو أساس لمبدأ الانتخابات العموميه وانتقاء الحكام الاداريين
وما وزارة التفويض وأمارته الا من قبيل الوزارات المسؤلة
سواء أمام الملوك أو أمام المجالس النيابية التي تشاركها العمل في
النظامات الحديثة ، وجمله القول ان النظامات الاسلامية صالحة

باصولها لان ترقى الامم بشرط مراعاة روحها وقبولها للتكييف بحسب المناسبات تحرياً للوظيفة العالية التي للحكومة من اقامة قسطاس العدل في الحكومة الموجب للطاعة على أحسنها واطمئنان النفوس البشرية على اكمله .

واكمل الآداب التي يجدر بالملوك والامراء ان يتصفوا بها في خصوصياتهم بعد الاتصاف بالاخلاق العامة الواجبة عليهم نحو رعاياهم من العدل والسهر على المصالح العموميه والرفق إنما هو التزهد عن سفاسف الاخلاق والبعد عن مواضع الريب والظنون والدناآت والترفع عن استصحاب كبير اللعب والمجون والمجاهرة بالمعاصي الامر الذي طالما اسقط ملوكا ولاشي دولا وفي التاريخ الاسلامي اكبر العبر لذلك — فيجب الترفع عن تلك النقائص واستصحاب الكمال النفسي والحلم والوقار والاناة والحزم لان من يحب ان يكون فوق الناس بسلطانه ينبغي له قبل كل شيء ان يكون فوقهم باخلاقه وآدابه ، والخلاصة ان آداب الملك في شؤونه ينبغي ان تكون مرآة حقيقته في الشؤون العمومية لان السلاطين كالافراد إذاما استحكمت فيهم خصال النقص في النفس انتقصت معها امورهم مع سائر الخلق لم ينفعهم

معه كرم ولا سخاء ولا عقل ولا دهاء ولقد بين الشاعر الحكيم
أبو الفتح البستي حال السلطان الذى يميل الى اللهو واللعب قال:

إذا غدا ملك باللهو مشتغلا فاحكم على ملكه بالويل والحرب

وهى حقيقة يرينا اياها ذلك الفانوس السحري للعبر من
التاريخ البشرى ان هكذا كان مآل ملك الملوك من أرباب
اللعب واللهو .

وآداب السلطان والخلال التى ينبغى ان يتصف بها ويكون
عليها والخصال التى يلزم ان يتبعد عنها ويصون نفسه منها كثيرة
عددها المؤلفون ممن كتبوا فى الملوك وآدابهم قديماً وحديثاً ولقد
عدد منها الفخري عندنا في «الآداب السلطانية» اموراً كثيرة
كما ذكرها غيره ممن صنفوا فى هذا الموضوع الخطير من المسلمين

أما آداب الوزير في مبادى وآداب الحكومة الاسلامية
فجليلة أيضاً لانه اذا كان السلطان رأس الهيئة الحاكمة فالوزير
عضدها وساعد سلطانها قال الامام الطرطوشى فى سراج
الملوك مستشهداً على فضل الوزير وشأن الحاجة اليه بقصة
موسى عليه الصلاة والسلام فيما حكي القرآن عنه «واجعل لى
وزيراً من أهل هارون أخى» قال فلو كان السلطان يستغنى عن

الوزراء لكان أحق الناس بذلك كليم الله موسى بن عمران ثم ذكر حكمة الوزير من تفسير الآية نفسها فقال أشدد به أزري وأشركه في أمري ، دلت الآية على ان موضع الوزارة تشد قواعد المملكة وأن يفضي اليه السلطان بعجره وبجره اذا استكملت فيه الخلال المحمودة ، ثم قال كي نسبحك كثيراً ونذكرك كثيراً دلت هذه الكلمة على انه بصحبة العلماء والصالحين وأهل الخير والمعرفة تنتظم امور الدنيا وامور الآخرة كما ان أشجع الناس يحتاج الى السلاح وأفره الخيل الى السوط وأحد الشفار الى المسن كذلك يحتاج أجل الملوك وأعظمهم وأعلمهم الى الوزير.»

وآداب الوزير في نفسه أن يكون عادلا حازما مخلصاً بصيرا بالامور عارفا بالمصالح والخطط المباشر لها والمشرف عليها لانه مسؤول عنها أمام السلطان والله تعالى كما ان السلطان مسؤول عنها أمام الله والامة وحلية الملوك كما يقال وزرائهم بل هم واسطة عقد الممالك والدول والمحور الذي تدور عليه امورها وسياساتها وتنتظم به كل شوؤنها الهامة الداخلية والخارجية ، ولقد قيل «نعم النظير الوزير» وقيل «أعظم الاشياء ضرراً على الناس عامة والولاة خاصة أن يحرموا صالح الوزراء والاعوان

فتكون أعوانهم غير ذي جدوى وغناء وليحذر الملك أن يولى الوزارة غير المتحرين كي لا تضيع الامور كما يحذر أن يتطبب بغير طبيب بصير مأمون »

وكما يطلب من الوزير الحزم في الامور وتدبير المصالح بالمهارة والنشاط يطلب منه أيضاً أن يكون ذا رحمة وشفقه على الرعيه أمام السلطان ساهراً على مصالحها حتى تدور على محور العدل والنجاح فى جميع الشؤون المادية والمعنوية ، ورب أمر كرهه الملك فتم لما فيه من مصلحة على يد الوزير وجنى ثم من فوائده الصغير والكبير ، وشر مايكون بخلق الوزير نفاقه وخداعه للسلطان ومداهنته له حباً بالمصلحة الذاتية فان هذا خيانة بل هو من اكبر الخيانات الموجبة لفساد حال الراعي والرعية وعقباه سيئة جداً على من يؤثره من الوزراء على حب المصلحة العمومية ومحض الخدمة القوميه قال المأمون لوزيره محمد بن زياد «اياك أن تعصى الله فيما تتقرب به الىّ فيسلطني عليك » وفى تاريخ الاسلام عبر كثيرة عن أحوال الوزراء الذين أسقطتهم عيوبهم بأيدى الملوك فراحو ضحية مساويهم كما راح ملوك كثيرة ضحية ما ارتكبوا من ظلم وجور في رعيتهم أمام الله

وإذا اعتدل أمر الوزير كان من دأبه العون على انتقاء العمال الاكفاء والاعوان ذوى الدراية والاستقامة ممن حسنت أحوالهم واستقامت أعوادهم وغزرت معارفهم فلا يكون للصنيعة ثمَّ مدخل ولا للأثرة والمحسوبية وليجة وبذلك تنتظم المصالح وتدور خطط الدولة على محور العدل وحسن السير في جميع فروع مصالحها ودواوينها ولقد تقدم ما فيه الكفاية من حيث ما يجب ان تكون عليه صفة العمال في المصالح الادارية والخطط القضائية ونحوها كما ترمي اليه روح المبادى الاسلامية وآدابها الجليلة بهذا الصدد العظيم وكما ترى من آثارها الجليلة فى نظامات الدول الحديثة

أما حاشية السلطان وبطانته الخصوصية مما يعبر عنه بالجلساء والقرناء قديماً فيجب ان يتحرى فيهم ان يكونوا على اكمل الاوصاف واجمل الخلال الجديرة بمثل هذا المنصب الرفيع والمقام العالى مقام الشرف بالخدمة فى بلاط الملاك مما ينبغي ان يكونوا معه فى أدب حظوتهم بالخلطة وشرف المثول بحضرة الملوك على أكمل ما يقتضيه حال الآداب السلطانية وأبهة الملك وعظمة السلطان لكن بما لا ينزل بهم الى أحقر منزلة

وأخس مقام قد تكون فيه المداهنة والرياء نخير الامور مع احترام النفس أعطاء السلطان حقه من التوقير والتعظيم بحسب الآداب السلطانية ولقد جاء في الباب نصائح جمة فى الكتب الخصيصة بأمر الملوك والسلاطين لا حاجة للطويل بها هنا

وللسلطان فى مقابلاته لعماله من الوزراء ورؤساء الدولة وعمالها ورجال الحاشية وموظفيها آداب جمة فللوزراء صفة في المقابلة وللعلماء والرؤساء صفة اخرى ولباقى العمال صفات تتفاوت بتفاوت الدرجات وللملك الرشيد والسلطان الحكيم ذى الاخلاق الكاملة حيال هذا حسن بصارته في مخاطباته ومكالماته وتعطفاته وظهوره اخيراً لرعيته شأنه الجميل والقدوة الحسنة والموعظة الجليلة فى مثل الحديث الشريف « أمرت أن اخاطب الناس على قدر عقولهم » ولهذا وجب على السلطان ان تكون له خلال خصوصية كريمة وان تعدم منه خصال لا ينبغى ان يتصف بها تبعاً لرفعة مقامه ودقة مهامه

*
* *

واذا كان لا قوام لمصلحة الخلق وانتظام أمورهم الاجتماعيه الا بـ[illegible]ـلطان الوازع والشرع الرادع فأول واجب على الرعية

ومن تمام أدبها ومصلحتها نفسها نحو سلطانها ونظامها «الطاعة» التي يتم بها شأن الاجتماع البشري وينتظم حال العمران، والطاعة فيما لا يخرج عما حرمته الشرائع أو القوانين المعمول بها من الزم اللوازم لدوام صلاح الهيئة الاجتماعية وقد أمر بها القرآن المجيد في الآية «أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الامر منكم» فقرن طاعة الرسول بطاعة الله تعالى ثم اردفه بطاعة أولي الامر ليستبان ان الآخيرة ان كانت فيما يخالف امراً من أمور الشرع وحقوق الله والنظام الحق البشري فلا طاعة اذن كما جاء في الاثر الشريف «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق»

قال الفخري في الآداب السلطانية بحق الطاعة ما نصه « واعلم ان للملك على رعيته حقوقا وان لهم عليه حقوقا فأما الحقوق التي تجب للملك على رعيته فمنها الطاعة وهي الاصل الذي ينتظم به صلاح أمور الجمهور ويتمكن به الملك من الانصاف للضعيف من القوي والقسمة بالحق ومما جاء في التنزيل من الحث على ذلك وهي الآية المشهورة في هذا المعنى قوله تعالى «يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الامر منكم» ومن أمثالهم لا إمرة لمن لا يطاع » ولقد فضلوا بالنظر

الى حفظ النظام الملك القاهر المطاع على الملك الضعيف الذى يهمل أمر الرعية فتفسد وينتقض أمر نظامها وطاعته مما هو عماد قيام الامم وواسطة عقد حياة الشعوب

فطاعة السلطان واتباع النظام بشرطه اذن من أوكد ما حث عليه الدين مراعاة للمصلحة العمومية لان عدم الطاعة بمخالفة النظام أو بالعصيان والقيام في وجه السلطان من شر ماجر ويجر المصائب والويلات على الممالك وتفسد معه شؤون الهيئة وتضطرب له احوالها الخصوصية والعمومية أيما اضطراب وفى ذلك من عمل الفساد في الارض الممقوت المبطل للمصالح مافيه لان الناس لايصلحون فوضى بلا نظام ولا وازع مهما رقت مداركهم وسمت عقولهم فلذلك وجب طبيعياً وسياسياً إقامة السلطان وقيامه بالعصبية القومية والسياسية وجعله بمنزلة الراس المدبر لجميع حركات الاعضاء الاخرى من البدن وهذه لاتصلح لوظائفها الا بالرأس فاذا لم تؤد الرأس وظيفتها وتحترم في جميع اشاراتها من سائر أعضاء البدن كانت الامة كالساعية الى حتفها بظلفها ولقد شبه العالم الطرطوشى حال الامة التى فقدت السلطان أو دخلت في الفوضي فوضى النظام وانتقاض أمر السلطة

والسلطان ببيت فيه سراج منير وحوله فئات من الخلق يعالجون
صنائعهم فبينما هم كذلك طفيء السراج فقبضوا أيديهم للوقت
وتعطل جميع ما كانوا فيه فتحرك الحيوان الشرير وخشخش
الهام الخسيس فدبت العقرب من مكمنها وفسقت الفأرة من
جحرها وخرجت الحية من معدنها وجاء اللص بحيلته وهاج
البرغوث مع حقارته فتعطلت المنافع واستطارت فيهم المضار
كذلك اذا كان قاهراً لرعيته كانت المنفعة عامة وكانت الدماء
في أهلها محقونة والحرم في خدورهن مصونة والاسواق عامرة
والاموال محروسة والحيوان الفاضل ظاهر والمرافق حاصلة
والحيوان الشرير من أهل الفسوق والدعارة خامل. فاذا اختل
أمر السلطان دخل الفساد على الجميع ، ولو جعل ظلم الناس
حولا في كفة كان هرج ساعة أعظم وأرجح من ظلم السلطان
حولاً وكيف وفي زوال السطان أو ضعف شوكته سوق أهل
الشر ومكسب الاجناد ونفاق أهل الغباوة والسوقة واللصوص
والمناهبة » فبالتأمل في هذا القول وما يرمي اليه من المبداء أو
القاعدة الصحيحة من ضرورة وجود الوازع ولزوم استقرار
النظام في الامم والشعوب بالتطبيق على أحوال سابقاتها ولاحقاتها

نعلم ان مايصلح الامم غير النظام ووجود السلطة والسلطان بحسب استعدادها وقابلياتها وان شر ماجلب على الناس ويجلب عليهم الوبال إنما هو الخروج على السلطان او عدم اطاعة النظام ما جل منه وما قل مادام ليس فيه مايجحف بحرية الافراد تلك الحرية التي راعاها روح الاسلام وأيدها بقواعده الصحيحة وآدابه المنيفة إيما تأييد كما قد حافظ على مبداء المساواة فى الحقوق بما لامزيد على فضله فيما يطنطن به أصحاب الآراء العصرية فى العمران البشرى وان تكن مجريات الحوادث كانت كلها تقريباً على عكس مما ترمى اليه آداب الاسلام وأصوله الصحيحة

ومن أحسن مظاهر الطاعة للسلطان من جهة أخرى احترامه فى شخصه وتعظيمه وتوقيره في شأنه وكل شاراته وشارات الامة التي يمثلها فى شخصه ثم احترام العمال فى وظائفهم ومناصبهم ومراكزهم وجملة القول أنه كما وجدت فى الاسلام الضمانات القوية والقواعد الاصلية لتنظيم أحوال الامة فى شؤونها العمومية من قبل السلطان وعماله واستقامة أحواله العمومية خصوصاً باقامة العدل والسهر على مصالح الامة وبذل الجهد فى كل مايؤول الى راحتها وغبطتها حساً ومعنى والبعد

عن الظلم البتة بأقامة الشرع العادل والقانون الحق فقد وجد أيضاً حيال هذا ولصالح الكافة ذلك الواجب المحتم على الرعية واجب الطاعة للسلطان والرضوخ لعادل النظام وليس معنى هذا أنه ينبغي ان كل الناس يستشعروا الحب والميل الخالص للسلطان أو النظام بدرجة واحدة سواء بالنظر الى ذاته أو بالنظر الى أعماله العمومية وعماله أو للمبادىء الصحيحة المعمول بها بل المراد ان الناس يجب ويتحتم عليهم مراعاة هذا النظام المستوفي ويقوموا بالادب الواجب والاحترام اللازم والطاعة الضرورية في الهيئة للسلطان وكل ما وراء هذا من تملق أو من لغط وكلاهما قديم في الهيئات الاجتماعية فربما كان من أولهما الضرر ومن ثانيهما فائدة للسلطان اليقظ فانه يعلم من ذلك اللغط او بعبارة أخرى من ذلك الانتقاد مواضع الضعف والنقص التي يئن منها ويشتكي فيبادر باصلاحها ورتق فتوقها بمعاونة الحكماء والعظماء من وزرائه وأرباب دولته ورجال مشورته وهو ما تمتلك به القلوب حقيقة وتستصفي به السرائر وتصلح به الاحوال لان الناس بموجب المبداء الاسلامي احرار واخوة ماداموا غير خارجين عن العمل بالشرع المشروع والنظام الحق الموضوع فامتلاك

القلوب انما يكون بعد هذا بالمزيد فيما يجلب عليهم اسباب الراحة والهناء والرفاهية العمومية مما هو في مصلحة السلطان نفسه لانه يزيد الدولة قوة والسلطان عظمة ومجداً حقيقياً واذا كان السلطان كما جاء في الاثر الشريف ظل الله في الارض فأحر به ان يكون فيئا وارفاً وظلا ظليلاً

الباب السابع
(أدب النفس)

نفس الانسان المخاطبة — النفس والقلب والروح — الشرور ومداخلها - جنود النفس واهوائها — فرق ادراكات الانسان والحيوان — استصلاح الارادة — اهمية تربية الوجدان — تقسيم أدب النفس

قال الله تعالى «ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من ذكاها وقد خاب من دساها» وقال تعالى «يا أيها النفس المطمئنة إرجعي الى ربك راضية مرضية» فدل تعالى بهذا على ان تلك النفس الانسانية الكريمة هي التي عليها المعول في الخطاب وسائر التكاليف وانها المحور والقطب الذي تدور عليه عموم افعال الانسان أي اعمال الجوارح الخادمة، وكل خطاب القرآن الموجه الى القلب ونحوه «أنها لاتعمى الابصار

ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور » « لمن كان له قلب أو
القى السمع وهو شهيد » إنما يراد به النفس الانسانية الجامعة
لمبادى الخير كله والتى عنها تصدر جميع أفعال المرء الارادية
وما يبطنه في سره ووجدانه « تلك المضغة في القلب أو اللب
التى اذا صلحت صلح سائر البدن » فى كل أعماله ولهذا افرد
أدب النفس وتربية الوجدان وتهذيب الاخلاق بالعناية التامة
عند المتقدمين والمتأخرين وفى الاديان السماويه حتى تستصلح
بالحق من ثم جميع آداب الجوارح فى شؤون البشر الاجتماعية
وفى أدبنا معاشر أهل الاسلام التي أتيت على اشيائها المهمة
المتنوعة بالايجاز في الابواب السابقة من هذا الكتاب كما رأيت

والنفس والروح والقلب والعقل كلها كما قال الامام الغزالى
فى الاحياء وغيره قد ترد مترادفة لمسمى واحد هى « حقيقة
الانسان » المدرك العالم المخاطب والمطالب ، وعلاقة هذه اللطيفة
من النفس الانسانية واتصالها بالبدن وقيامها بشؤونها من
الادراك والحس من أدق ماحارت له عقول الاقدمين وطارت
له أحلام المتأخرين فمن منقب عن عملها بالدماغ ومن قائل أنها
بالقلب ومن حاك أنها جارية فى عموم البدن مجرى الدم من

الشرايين والحقيقة التى لا مرية فيها أنها « الانسان » ذلك الكون الاصغر الكادح الى ربه كدحاً فملاقيه إما بنفس زكية وإما باعمال مردية ، ولقد شرح الامام بن مسكوية من حال النفس وماهيتها وادراكها وحسها وحركتها فى كتابه « الفوز الاصغر » مافيه متسع لاهل البحث والتنقيب عن حقيقة ذاتنا الانسانية .

ونفس الانسان هى التى تحفظ عليه صور المعلومات وهى التى تورد به سائر الموارد في الافعال الاختيارية ومايبطن من كمال انسانى وقوى نفسانية اقتضتها الفطرة الحكيمة التى فطر الله الناس عليها لحفظ بقاء النوع فجاءته الاهواء والنزعات الشيطانية من جانبها فكانت فى أحوال كثيرة شروراً وأضحت رذائل للنفس شائنة ولقد حكي الامام أبن قيم الجوزية فى كتابه « الجواب الكافى » عن تسرب الشيطان والاهواء الى النفوس ومداخلها اليها باسلوب غاية فى اللطف تفسيراً لقول الله تعالى في القرآن المجيد « رب بما أغويتنى لاقعدنّ لهم صراطك المستقيم ولآتينهم عن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد اكثرهم شاكرين » فالأهواء والنزعات الشيطانية تأتى الانسان من صوب كل

عمل يأتيه أو قول ينطق به أو نظر يرمى اليه والشرور أو الذنوب المستلزمة للعقوبات الشرعية والقدرية كثيرة ، أما الشرعية التي اذا اقيمت رفعت القدرية أو خففتها فهى كثيرة تعلم من أنواع القصاصات والتعازير الشرعية في حد مثل الزنا وشرب الخمر والسرقة والقتل الخ بحسب الشرع أو القانون المبنى على صحيح مفهومه من قصد الزجر والردع والتخويف لتستقيم لافراد الهيئة الامور بحسب ما يوافق روح الشرع من جهة وذوق العصر من جهة اخرى .

أما العقوبات القدرية أو المعنوية فنوعان نوع على القلوب والنفوس (وقد ذكر الله أمرها في غير موضع من القرآن من الطمس والاعماء والترك في الضلالة غضباً وسخطاً الخ) ونوع على الابدان والاوصاف والاموال (وآثار هذه ظاهرة في فقدان أرباب الشرور والفساد للصحة صحة الابدان وللشرف شرف السمعة وللأموال أسرافا وبداراً) فالعقوبة القدرية تكون على هذا أشد على الانسان لان آثارها الظاهرة في الدنيا شأنية ويترصد صاحبها مع ذلك في الآخرة القصاص الاخروي الشديد لاسيما تلك الذنوب التي تنجم من معاملة الناس بالخيانة

والغش والسعاية والنميمة والغيبة لان الذنوب مهما خفيت وصغرت لا تخلو من عقوبة البتة ولكن لجهل العبد لا ينظر بل ولا يشعر بما هو واقع فيه من عقوبة للغفلة الراكبة والغواية الشيطانية المستحكمة التي تجعله بمنزلة المخدر والسكران ولكن للسكرة فكرة وحسرة واى حسرة ، فيخلق بالعاقل أن يستحضر العقوبات التي رتبها الله سبحانه وتعالى على الذنوب ويجوز وصولها اليه وهذا انجع واسطة لهجران النفس الرذائل واتقائها المساوي والشرور ولمثل هذا فليعمل العاملون

فالنفس هي العاملة وأعضاء البدن مسخرة لتلك النفس التي يعبر عنها «بأنا» فهي جنودها الظاهرة واعوانها المطيعة من الحواس الظاهرة كالبصر والسمع والشم والذوق واللمس ثم الحواس الباطنة من الحب والبغض والادراك وهذه وتلك كلها جنود للنفس واعوان لها بواسطة أعضاء البدن من اليد والرجل والعين والاذن والانف والفم والدماغ الخ وهي إنما تعمل للنفس تحت إمرة النفس فتجلب لها على مقتضى ذلك إما الخير اذا استندت النفس الى حكم العقل الرشيد وإما الشر اذا كان الدافع هو الهوي لفساد حال النفس وهي كلها انما

تسعى بها هذه النفس وتسخرها لامرها في تحصيل اسباب
المعاش والملاذ الدنيوية فى هذا العالم الارضى فبدافع الشهوة
المودعة فى النفس تسعى الاعضاء فى تحصيل الاقوات والارزاق
وسائر أمتعة هذه الحياة الحسية والمعنوية وبدافع « الغضب »
المودع الى جنب الشهوة في هذه النفس يحصل الذود والدفاع
عنها والحفظ لها وبالادراك والعقل المسيطر على كل قوى النفس
والمهيمن عليها يقع التمييز والتفرقة أى العلم بالنافع والعلم بالضار
قال الامام ابو حامد الغزالى فى الاحياء ما محصله ولقد
يعبر عن هذه القوى أو الجنود الباطنة للنفس من ذلك الباعث
والمستحث في الشهوة طلباً لجلب النافع ودفع الضار «بالارادة»
للاول و«بالقدرة» للثانى لانه المحرك للجنود النفسانية المبثوثة
فى الاعضاء لاسيما العضلات منها والاوتار أما القوة الثالثة قوة
الادراك فهى المدركة العارفة بالاشياء بواسطة وسائله والآته
من الحواس الخمس الظاهرة البصر والسمع والشم والذوق
واللمس وهى مبثوثة فى أعضاء معينة مرتبطة بالاعضا الرئسة
التى تسكن قوى الادرك الباطنة من تجاويف الدماغ وتلافيف
جوهرها المكنون من المخ الانسانى والتى هى مصدر حركات

البدن كله وسبب ادراكاته العظيمة و « مستودع » معلوماته الغزيرة ومستصدر ارادته وقدرته بواسطة سائر أعضاء بدنه ومكان « نقد » أفعاله ووزان أعماله بواسطة ذلك الوجدان الانسانى الشريف وضميره المنيف أو بعبارة أخرى عقله الرشيد الذى يميز بين الخبيث والطيب والغث والسمين والخطأ والصواب واخيراً الخير والشر فاذا وفق الانسان الى اكساب هذا الوجدان والعقل مبادىء الاشياء على حقيقتها واستفادها على صحتها وما يتحرى فيها لبلوغ السعادة الحقيقية وصرف خصوصاً لحظاته وخطراته وأمياله ومحباته الى الخير المحض استصلحت ولاريب كل أحواله وأعماله واستقام عوده فصلحت من وراء هذا أحوال المجموع فقلت المعاصى والشرور وتجنب مسترذل الذنوب والعيوب ولقد أفاض الغزالى وابن قيم الجوزية في كتابيهما السالف ذكرهما في هذا المعنى بما لامزيد عليه ، والخلاصة ان الانسان قادر بما وهب من قبل الخالق تعالى من عقل وإدراك واذواق دقيقة عالية الي اصلاح أحوال نفسه المودع فيها كل الخير وكثير من دواعى الشر

وانه ولئن شارك الانسان كثير من الحيوانات العالية في

الادراكات كما يتبين للناقد الحكيم في سلائق الحيوان وطبائعه فلقد يرى القرد الصغير الثعبان مثلاً فيرجف منه ويفزع ، وترى الشاة الصغيرة الذئب فتضطرب وتهرب فهذا الادراك أو الشعور الغريزى وان شارك فى كثير منه الحيوان الانسان الا ان مما يختص به الانسان وهو المشرف خلقاً وخلقاً إنما هو الاحساس الباطنى المبنى على الامور العقلية الخصيصة التى تدرج في ارتقائها العقل بارتقاء الانسان بكيفية مخصوصة وتقدم فيها بما وهبه الله من سمو المنزلة والقوة العظيمة التى أشرنا الى مستودعها العظيم من نفس الانسان وتركيب عقله فان هذه أمور وراء المحسوسات وما فى حكمها من السلائق الحيوانية ولا يشارك الانسان فيها الحيوان الاعجم معها رقى بل العلوم الكلية الضرورية من خواص العقل البشرى اذ يحكم هذا العقل الكريم مثلاً أنه لا يتصور ان يكون الشخص فى مكانين فى حالة واحدة وهذا حكم منه على كل شخص ومعلوم انه لم يدرك بالحس الا بعض الاشخاص فحكمه على سائر الاشخاص إنما جاءه بطريق الحمل والقياس الصحيح وهو زائد على ما أدركه بالحس وإذا فهمت هذا فى العلم الظاهرى الضرورى للعقل البشري فهو في سائر النظريات

المدركة للانسان أظهر وأجلى.

أما الارادة وما ينبغي ان تستصلح له من وراء العلم بالمبادىء على حقيقتها فانه إذا ادرك المرء بالعقل عاقبة الامور وطريقة الصلاح فيها انبعث عن ذاته شوق ورغبة وعزيمة بالميل الغريزى الى الخير المودع فيه الى جهة المصلحة والى تعاطي أسبابها وذلك غير ارادة الشهوة العمياء وبعبارة أخرى غير ارادة الحيوان الاعجم بل يكون على ضد الشهوة أو بالتالى بحسب ماهو الصواب فيها لما يجد من الزواجر النفسانية المستفادة من صحة المعلومات وحسن الاذواق التي صارت له ملكة راسخة بحكم العادة فى مجتمعه واستشعر وجدانه بفضلها وثمرتها ولذاتها الصحيحة .

واذا تقرر هذا علمت مقدار أهمية تربية النفس وإشعار الوجدان منذ الصغر مبادىء الاشياء على حقيقتها وحقائق الامور على أفضلها وأنكشف لك المعنى السامي المودع فى قوله تعالى « ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها » فهذا بخصوص ما أودع البارى تعالي فى النفس البشرية من القوى ورتب فيها من الشهوات للحكمة الخلقية ثم دقيق معنى ماعطف

عليه بقوله عز من قائل «قد أفلح من ذكاها وقد خاب من دساها»
فهذا اشعار وتنبيه بضرورة القيام بتربية النفس وتهذيبها حتى
لاتخيب ولا يشقى المرء بها في الدنيا والآخرة ولتمام الرحمة بعث
تعالى الانبياء والرسل الكرام في الامم مبشرين ومنذرين «لئلا
يكون للناس على الله حجة بعد الرسل» ولقد تقدم فى الحديث
الشريف « بعثت لاتمم مكارم الاخلاق »

وتربية النفس تنقسم الى قسمين قسم يتعلق بالجوارح ووظائفها
وقسم يختص بما يقوم خاصة في السرائر والضمائر وتظهر مع
مع ذلك آثاره بواسطة الجوارح وفي أعمالها — وكل أناء بالذى
فيه ينضح — وهذا القسم أهم من الاول بل هو الاصل فى
الباب وانه للغرس الذى يثمر كل الثمار إما فاكهة وأباً وإماً
حنظلا وشوك قتاد ، فاذا صلحت تلك المضغة من النفس أو
القلب صلحت كل أعمال جوارحنا وان قلت ، واذا فسدت منا
القلوب والنفوس فهذا لعمرى مايفسد معه كل شأن للانسان
ومهما تعلم وسما ومهما ارتفعت منزلته فانه ليكون الساقط لامحالة
في مهواة من الضعف والشر تظهر آثارها عليه فى الدنيا وانه
ليترصده عليه في الآخرة كما توعد الله عذاب شديد ولهذا

قال عمرو بن الخطاب « تأدبوا ثم تعلموا ! » وما يعنى ولا ريب بذلك غير أدب النفس قبل أدب الجوارح :

هذا ولقد تقدم في الفصول السابقه جملة مما يختص بادب الجوارح في الاعتقادات والعبادات والمعاملات الخ بمقتضى قواعد ديننا الاسلامى الحنيف واصول آدابه السامية وما جرى فيه حكمه الظاهرى منها أما هذا القسم من « أدب النفس » الجليل القدر العظيم الخطر فيقسم الى قسمين قسم يتعلق بشأن الخلق فيما بينهم لتصلح به كل أحوالهم وقسم يجب ان يتحلى به بحق الخالق تعالى مصدر جميع الخيرات ومفيض كل النعم .

رب ان الهدى هداك وآيا تك نور تهدى بها من تشاء

﴿ القسم الأول ﴾

أدب النفس مع الخلق

قوى النفس الحيوانية والممتازة — العقل الرشيد وسلطانه فى الدفع — مصادر ادب النفس والعقل — الاخلاق وتهذيبها — التربية النفسية — شؤم الذنوب والرذائل — آثار الذنوب اللاحقة — امهات الفضائل واطرافها من الرذائل — عدة من الفضائل — الاخلاص — اداء الامانة — البشر الترفع — التواضع — الحلم — الرحمة — السخاء — سلامة النية — الشجاعة — الصبر — الصدق — القناعة — كتمان السر — المحبة والود — المنافسه — الوفاء — الوقار — جملة الاخلاق الفاضلة ومحاسنها — استئصال الرذائل — رياضة النفس — هل يمكن تغيير الخلق — مطية النفس .

ترك نفسك يوماً وهواها سعى لها فى رداها

لقد صحب الانسان لكمال خلقه كحيوان ثلاث قوى كما تقدم الشهوة والغضب ثم حب الذات أى الأثرة لحفظ النوع وامتاز عن باقى جنس الحيوان وفضل وكرم من بينها بتمام العقل أو عظم الادراك كما سلف ، فهذا العقل الخصيص سلطان حاكم وباقى القوي مسخرة له فمن غلب على عقله شقوة شهواته البهيمية فقد التحق بافق البهائم الموصوفة بالشراهة (اولئك كالانعام) ومن غلب غضبه عقله فقد صار الى مرتبة السباع الكاسرة والحيوانات المفترسة ومن خبثت نفسه وفسدت سرائره واستعمل عقله واستخدمه فى المكر والخداع والغش والرياء (يخادعون

الله وهو خادعهم) فقد انطوى طى المردة من الشياطين ،
ومن امتلك عقله الرشيد كما هو المراد منه كل قواه الاخرى
تجرى في تسخيرها بالاعتدال والحكمة فاز بكمال الانسانية
وأتصف بأجمل وأجل صفاتها الممتازة وصار من ثمّ احرى
بأن ينتظم فى سلك الملائكة المكرمين المقربين من الله تعالى
« واولئك هم المفلحون » فى الدنيا والآخرة .

واذا كان هذا العقل الرشيد هو السلطان الحاكم المدبر
لعموم الافعال الانسانية بالحكمة والسداد لهذا كان قابلا ومستعداً
تمام الاستعداد لأن يؤتى الحكمة ولان تنطبع فيه على اكمل صورة
صور المعلومات ووهب لهذا قوة التمييز والتفريق بينها بحك
النظر الصحيح لتلك الهداية الصمدانيه والنورانية الربانية المودعة
فيه وهى التى ترتب المعلومات وتزاوج بينها وتقارن وتبنى
الاحكام وتحصل النتائج متسلسلة والافكار متناسبة آخذاً بعضها
برقاب بعض أو مختلفة بحكم اختلاف العلل والاسباب ولهذا
كره الوقوف على المعلومات الواحدة والاساليب الواحدة
بالتصلب فيها خصوصاً فيما يتعلق بالمعلومات المستفادة بالتقليد
الاعمى دون اطلاق العقل وتسريح الفهم لارتياض الحقائق

واقتناص الشوارد لان هذا يوجب الجمود بل والتقهقر لرسوخ الامور التقليدية وتشربها العقول فلا تقدر على الخلاص من ربقة الاسر والضيق وبالتالى لا تتوق ولا تنشط الى الاخذ بما هو من مزايا وفضائل هذا العقل البشري وتطلب العلاء وحسن الاختيار على حسب المقتضيات والظروف العمرانية التي وان حصلت بالتدريج لكنها تظهر فيها الفروق العظيمة بالنسبة الى أحوال الجامدين عند القياس على أحوال غيرهم من الهيئات التي تنشد الرقى ولا تأسر نفوسها الامور التقليدية مما ذمها الله تعالى في حال الامم التي قالت «انا وجدنا آباءنا على امة وانا على آثارهم مقتدون» وهذا باب واسع قد يطول فيه الشرح فلنرجع الى المقصود بالذات

لقد يكسب هذا العقل الرشيد بموجب الادب الاسلامي حقائق المعلومات والمعارف النفسانية لينتفع المرء بها دنيا واخرى في نفسه وجوارحه الاخذ بما جاء في الكتاب والسنة وفهم معانيها ثم استخدام العقل فيها للتدبر والتفهم ومعرفة ما ينطوى على هذا من حكم وأسرار وآداب ورقائق وهذا يقتضى دراسة مبادىء العلوم العقلية كما يقتضي الاستعانة بالمعارف الآلية وما

الداعي الى عزل العقل البتة اكتفاء بالتقليد الاجاهل، وما المكتفي بمجرد العقل في مثل تلك الاحوال دون التنور بانوار الكتاب والسنة الا مغرور. وجملة القول أن العلوم العقلية بل والطبيعية فيما يقصد بها هنا لفائدة البشر كالأغذية والعلوم الشرعية كالادوية والشخص المريض قد ينغص بالغذاء اذا فاته الدواء فلهذا كانت أمراض النفوس لاسبيل الى معالجتها على احسنها وأفضلها الا بالادوية المستفادة من طب الشريعة وآدابها المستنبطة منها بالبصائر النيرة في امور الاعتقادات والعبادات والاعمال لتنتظم أحوال النفوس وتصلح وتتصف بالخير قلباً وقالباً وتحيط مع ذلك بالاشياء على حقيقتها الامر الذي يعود نفعه على المرء في نفسه وفي هيئته وسائر عمله فيها وارتباطه بها.

هذا ما يختص باكساب العقل لدينا المعلومات الشرعية والعقلية اللازمة له حساً ومعنى والتي هي كالأساس للتربية وأمر ما يسمونه تهذيب الاخلاق وتطهير الاعراق التي افترق فيها لاهميتها الى فرق ومذاهب ولا غرو وهي أول متحري الباب باب ادب النفس عند سائر الخلق. ولقد عرفوا الخلق بانه عبارة عن هيئة راسخة في نفس الانسان تصدر كل الافعال

عنها بسهولة من غير حاجة الى كبير فكر أو روّية لسابق الاعتياد بالمتكرر للنفس فيها وإلفها لها فان كانت تلك الهيئة فى النفس بحيث تصدر عنها الافعال الجميلة المحمودة عقلا وشرعا بحسب العرف سميت «الخلق الحسن» واذا كانت بعكس ذلك دعيت «الخلق السيء» وانما اشترط الرسوخ لتلك الصفة أو الهيئة ليحكم برسوخ الملكة والعادة واسم الخلق ولا تعتبر الاعراض الطارئة سلبا وايجابا في الافعال إذ العبرة بالاتصاف الحقيقى اللازم للنفس، فالخلق اذن هو عبارة عن هيئة النفس وصورتها الباطنة وجمالها وجلالها فى كمالها الاتصافي فيما ترشح من اثارها على سائر القوى وافعال الجوارح بالسهولة. واذا كان الجمال الظاهرى للصورة الآدمية يقتضى تناسب أعضائها واعتدالها فالجمال الباطنى مثل هذه الحال أيضا من لزوم التناسب بين قواه حتى يتم للمرء حسن الخلق، وهاته القوى اذا اعتدلت وتناسبت حصل ولا ريب حسن الخلق أو اعتدال المزاج أو ملكة الاذواق السليمة ولحسن حظ النفوس أنها قد جبلت قابلة لهذا الحال من قبول التهذيب متى ما مهدت لها وسائله وتدرجت عليه شرعياً وعقلياً على الوجه الآنف

وهذا ليس بالذي ينال على أحسنه الا بالتربية والترويض على محاسن الاخلاق وكريم الشيم لكي تخدم سائر القوي ذلك السلطان من قوة الفكر والعقل الرشيد فتحسن من ثمّ الارادات وتمتاز الرغائب ، وأفضل ما يكون من هذه ما يقع منها في الصغر وزمن الحداثة ولدانة العود وهو الامر الكريم الذي أجمع على جودته وضرورته السلف والخلف لان نفس الصبي جوهرة نفيسة وجمانة خالية من كل نقش واثر لصورة ما فهو لهذا اسرع قبولا واسهل ميلا لما يمال اليه عوده ، فان عود الخير بالافعال والقدوات الحسنة العملية في العائلة والمجتمع وعلم نظريا وبين له حكمه وحكمته سعد في الدنيا والآخرة وشاركه ابواه ومعلموه في الاجر عند الله ، وان اعتاد الرذائل والشرور وأهمل شأن تقويم نفسه شقي ووقع في الآثام والذنوب وكان الوزر في رقبة ابويه كما في رقبته بل وفي رقبة الهيئة الاجتماعية التي رضيت لاحد اعضائها به .

وشؤم الذنوب ومصائب الرذائل النفسانية لها في النفوس آثار مشينة من حيث عرقلة الاحوال ومغاب سيئة في سائر الشؤون فضلا عما يترصد اصحابها من القصاصات من الشرع

القائم والوعيد بالعقوبات الاخروية مما يظهر اثره في الحياة الدنيا ايضا وما استدفعت النقمة بمثل الطاعة وتحسين الاعمال والاخلاق مماهو جالب كل خير كما ان أضداد ذلك من اكبر الاسباب الجالبة لكل شر ، وقد رتب سبحانه وتعالى حصول الخيرات فى الدنيا والآخرة وحصول السرور والسعادة فيهما في كتابه العزيز على الاعمال ترتيب الجزاء على الشرط والمعلول على العلة ، فالامر صريح والشأن ظاهر في ترتيب الجزاء بالخير والجزاء بالشر لصلاح أحوال البشر فى دنياهم ولتمام سعادتهم فى اخراهم (الآيات القرآنية في ذلك كثيرة) ومن الجهل الفاضح والشر الواصل أرتكاب الذنوب ومغالطة النفس في التلوث بالرذائل اتكالاً على عفو الله ومغفرته والتسويف في أمر اصلاح حال النفس العائد نفعه على ذات المرء فالتوبة النصوح وقوة الارادة بالرجوع عما عنه نهى وزجر مما هو صريح الوجوب بنص الكتاب وأمر السنة السمحة

ولقد عدد ابن قيم الجوزية الآثار القبيحة للذنوب والرذائل اللاحقة آثار أضرارها بالقلوب والنفوس والابدان وكل الشؤون الاجتماعية فى الدنيا فضلا عما هو مرتب عليها من القصاصات

في الآخرة فنها حرمان العلم وفساد العقول والغفلة في الشؤون، ومنها ظهور الفساد فى الارض وقلة البركة في الارزاق والاحوال، ومنها حلول النقم والهوان والذلة والصغار والاحتقار من الناس، ومنها التخاذل القومي وتفكك الروابط بين أفراد الامة هذا فضلاً عن العقوبات المعنوية فى النفس والوجدان من لحقوق الغم والكدر وحلول الامراض البدنية والنفسانية ثم قطع الامداد والطرد من حضرة الله ثم العقوبات الاخروية من العذاب ودخول النار الى آخر مافصل وبين وشرح من ذلك ابن قيم الجوزية والامام الغزالى وغيرهما.

أما محاسن الاخلاق أو الفضائل النفسانية فيجب أن تنشد على وجه العموم لعموم أبناء الامة بموجب المبداء الاسلامى بالحديث الشريف «بعثت لاتمم مكارم الاخلاق» والآثار في الباب باب وجوب التحلي بالفضائل ومكارم الاخلاق فى كل الشؤون وفى جميع الاحوال مشحون بها الكتاب والسنة ناهيك عما هى لازمة له فى شؤون البشر بموجب كل المبادىء الانسانية والاحوال الاجتماعية ليسعد البشر ويغبطوا فيما هم بصدده من الاسباب والاعمال مما يجعلهم متضامنين متكاتفين في الشعور

والاحساسات وكل العواطف الكريمة الفردية والقومية حتي تعتدل لهم امور الحياة وتصفو لهم الموارد من الاكدار والخبائث قياماً بالواجب الانساني لنوال الكمال الانساني وتحرياً للعقل والفضل الانساني لأن حد العقل كما قال ابن حزم استعمال الطاعات والفضائل وتجنب المعاصي والرذائل ولقد نص الله تعالى في غير موضع من كتابه على أن من عصاه لا يعقل ومن شر العصيان الاتصاف بالرذائل الاجتماعية بين البشر خصوصاً فيما يتعدي ضرره الى الغير والدين المعاملة .

وامهات الاخلاق التي ذكرها اخلاقيو الاسلام (١) اربع «الحكمة» و«الشجاعة» «والعفة» و«العدالة» قال الشيرازى وهى أوساط طرفاها البعيد ان رذيلة «فالجزبرة والبله» طرفا الحكمة و«التهور والجبن» طرفا الشجاعة و «الشره والجمود» طرفا العفة و «الجور والمهانة» طرفا العدالة . ولكل من هذه الفضائل والرذائل فروع وحدود وتعريفات وطرق استفادة واكتساب وطرق علاج في الاضداد وطرق لدوام حفظ صحة النفس كما تحفظ بالوسائل الصحية الحسية صحة الابدان وتوقى

(١) يراجع ايضا على هذا الفصل كتاب الاخلاق للشيخ محي الدين بن العربي وتهذيب الاخلاق للحكيم ابي زكريا يحي بن عدى وتهذيب الاخلاق لابن مسكوية

من الوقوع في الامراض والاوصاب . ولقد استوفي ذلك كله في كتب الاخلاق الاسلامية ولقد قال الامام الراغب الاصفهانى فى كتابه الذريعة الى مكارم الشريعة حكمة نفيسة في اكتساب الفضائل قال « حق الانسان في كل فضيلة أن يكتسبها خلقاً ويجعل نفسه ذات هيئة مستعدة لذلك سواء أمكنه ان يبرز ذلك فعلاً أو لم يمكنه وذلك بأن يكون على هيئة الاسخياء والشجعان والحكماء والعدول وإن لم يكن ذا مال يبذله ولا عرض له مقام تظهر فيه نجدته ولا معاملة بينه وبين غيره تبرز فيها عدالته فقد قيل لبعض الحكماء هل من موجود يعم الوري فقال نعم ان تحسن خلقك وتنوى لكل أحد خيرا وقال عليه الصلاة والسلام انكم لن تسعوا الناس باموالكم فسعوهم باخلاقكم »

قلت ان للفضائل فروعا ولوازم ولقد عدوا منها ما ينيف على العشرين خلقاً حسناً لا يمكن للانسان ان ينكر فضلها في كل أين وآن أو أن يقدح فى نفعها وثمرتها ولزومها في الحياة الادبية والاجتماعية وإن تفاوتت فيها الهمم وتباينت العزائم بعد إذ أجمع الاولون والآخرون على ضرورتها ووجوب تحريها من جهة العقل ذلك الذى هو حد الفضائل ومن جهة الشرع ذلك الذى

يهدى الى المحاسن وهاك هى مع اضدادها مرتبة على حروف المعجم ليسهل تناولها والاستدلال عليها .

الاخلاص — هو عماد كل الاعمال واكرم أس فى جميع الاحوال فمن أخلص فى عمله وفى حاله بين أبناء هيئته كان الناجح فى كل شؤونه الظافر بمرغوبه الظاهر بين اخوانه بأحسن الفضائل وأجمل الشيم الاجتماعية التى يجب ان يتحلى بها الانسان لتصفو له موارد الحياة والمودات الانسانية وفى الحديث الشريف « ما من عبد يخلص لله العمل أربعين يوماً إلا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه » وسيأتى مزيد بيان لهذه الخلة الكريمة فى قسم أدب النفس مع الخالق

أداء الامانه — قال الله تعالى يصف الممدوحين بهذه الفضيلة عنده « والذين هم لآماناتهم وعهدهم راعون » وأداء الامانه قرين الوفاء الآتي ذكره وإنما نزيد عليه بانه التعفف عما يتصرف فيه الانسان من مال الغير بأحد التصرفات الممكنة من مثل الوكالة والوصاية والقيامة على القصر والمعتوهين والسفهاء وتولى الاوقاف والوظائف العمومية الخ فكل هذا يدخل التعفف وأداء الامانه فيه في باب أدب النفس الجميل دنيوياً

ودينياً وما الخيانة في مثل تلكم الاحوال ونحوها الا الشر المردي في النهاية بصاحبه ، المفسد عليه جميع أحواله في المجتمع ، المثلم له شرفه وصيته ، المشهر له بأحط الاوصاف . وكفي بالخيانة أثماً مبيناً وعاراً وشناراً قد لا يمحى ولقد جاء في الحديث « إن أحببتم أن يحبكم الله ورسوله فأدوا إذا ائتمنتم واصدقوا إذا حدثتم واحسنوا جوار من جاوركم »

البشر وطلاقة الوجه — هو ذلك الخلق الكريم الذى يكسب صاحبه محبة الخلق وإلفهم له وعطفهم عليه وهو خلق مستحسن من جميع الناس يكسبهم كل خير بعكس عبوسة الوجه — ولقد كره في الحديث ان الله يكره المعبس في وجه اخوانه — الدال على سوء الخلق وشراسة الطباع غالباً والبشر وطلاقة الوجه من أجل أنواع البر قال الشاعر :

لعمرك ان البر شيء هين وجه طليق وكلام لين

الترفع والتصون — هما من أجمل الخلال البشرية ويجريان في تجنب الهزل والقبيح وذكر الخنا وثقيل المزاح وسخيفه وخفة الاحلام ونذق النفوس والانقباض عن ادنياء الناس في المعاشرة والمخالطة ومن الترفع وعزة النفوس وشمم الافئدة التحرز من

العيشة الزرية واكتساب المال وطلب الحاجات بالمداهنة والتملق والرياء والخداع فان هذا كله وأمثاله معيب شائن لا يأتيه الا سفلة الناس وأصحاب النفوس الدنيئة وبذل ماء الوجوه وتصعير الخدود (ولقد قال الله تعالى ولا تصعر خدك للناس ولا تمش فى الارض مرحاً) وذوى الوقاحة والسخافة فيجدر بالمرء العاقل والمسلم المتأدب بأدب الاسلام بل وبالآداب العصرية ان يصون نفسه ويترفع بخلقه وأن يزن اموره بالحكمة ويجرى فى شؤونه بالعقل مترفعاً متصونا وهذا لا ينفي مبداء التواضع الآتي .

التواضع — خلق جميل ممدوح وخلة شريفة لا تزيد صاحبها الا رفعة فى الهيئة ومحبة ومودة بين الناس لان ترك المباهاة بالجاه الحسي والمعنوى أمر محمود من ذوى الجاه خصوصا أما الكبر والغطرسة والاستهانة بالناس والترفع عليهم بحق وبغير ما حق يوجبه على نحو ماسلف في الترفع والتصون المطلوب فى الاحوال المزرية مما يجعل الناس يزدرون بالمرء ويمقتونه من أجله فأمر مضر به ضرراً بليغا لان من يبغضه الناس ساءت أحواله فضلا عن ان المرء بالتشبث بالكبر وإعجابه بنفسه يبعده ذلك عن اكتساب الآداب والمحامد الصحيحة ومن لم يستزد منها

يبقى أبداً في نقصه دون نوال الكمال وما اخر به غير كبره وصلفه ولقد جاء في مدح التواضع وذم الكبر آثار جليلة وآيات بينات من الكتاب والسنة وآثار السلف واساطين الحكمة بما فيه اجمل الموعظة الحسنة جاء في الحديث الشريف « التواضع لا يزيد العبد إلا رفعة فتواضعوا يرفعكم الله تعالى ، والعفو لا يزيد العبد إلا عزاً فاعفوا يعزكم الله تعالى ، والصدقة لا تزيد المال إلا كثرة فتصدقوا يرحمكم الله عزّ وجل »

الحلم — قال الشاعر :

بحلم وعلم ساد في قومه الفتى وكونك أياه عليك يسير

فالحلم — والحلم بالتحلم كما في الحديث — من اكرم الخلال وهو اصل من اصول الدين وقد وصف الله تعالى به نفسه وأثني به على أنبيائه فهو من أجمل عزائم الصبر واجل فضائل العقل والاناة والتؤدة المحبوبة وعلو الهمة الآتي ذكرها ، ولقد حدوا الحلم بانه «ترك الانتقام عند شدة الغضب مع القدرة» وهو حال محمود مالم يؤد الى ثلم الشرف أوفساد الامور ويضاد هذا الخلق من الرذائل «السفه» وكفى بهذه الاسماء والنعوت من السفه والسفاهة والسفيه شيناً ، والسفه سرعة الغضب

والطيش من يسير الامور والمبادرة بالانتقام والطيش أو الحمق والسب والشتم ويأله من خلق دنيء وسفالة في النفوس الغبية الجاهلة شائعة في الطبقات النازلة خصوصاً . فاستصحاب الحلم والتحلم والتؤدة والتثبت بذلك كله إنما هو من أفضل الاحوال الجليلة والاخلاق الجميلة التى يجب ان يتحلى ويتخلق بها فى الهيئة الاجتماعية. ولقد اشتهر عن كثير من ذوي المقامات الجليلة أنهم ما اكتسبوا المجد والسؤدد والمدح والثناء إلا من استصحابهم هذه الفضيلة فضيلة الحلم فظفروا بها ونجحوا في أعمالهم وتدبيراتهم كما اشتهر عن معاويه بن أبي سفيان رضى الله عنه وغيره كثير

الرحمة — وقد وصف الله بها نفسه في كثير من المواضع في القرآن المجيد والذكر الحكيم فيجدر بالانسان ان يتصف بالرحمة ذلك الخلق الكريم والفضيلة الانسانية العظيمة من الشفقة والحنان والعطف على الاخوان ومحاول سائر أبناء جلدة الانسان بل وعموم مخلوقات الله تعالى فالشفقة مطلوبة والرحمة واجبة والراحمون مرحومون من الرحمن مشكورون من الناس ، والرحمة أوقع في النفوس اذا كانت من الاكابر نحو الاصاغر ومن الاقوياء بازاء الضعفاء وفى الامة نحو بعضها البعض مما هو

من أحسن وأجمل مظاهر التضامن والتضافر للتماسك المطلوب فيرحم القوى الضعيف ويوقر الصغير الكبير ويواسى الواجد المعدم . أما القسوة والشراسة والاثرة والتخاذل والتجافى وعدم الرحمة والشفقة فمن الخصال الممقوته والفعال المضيمة التى لا توجب لصاحبها فى الهيئة إلا ولا ذمة ولا جزاء ولا شكوراً فاذا ما منيت الامة بعدم الرحمة والتقاطع والتدابر وغطرسة النفوس (خلافاً لما جاء فى الحديث مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم كمثل الجسد اذا اشتكي عضو منه تداعي له سائر الاعضاء بالسهر والحمى وفي الحديث الآخر المسلمون كالبنيان يشد بعضهم بعضاً) فلن يكون بين أفرادها غير الكراهة والبغضاء والحسد والسخط وإن وجد شيء من الميل والعطف فبطريق المداهنة والرياء نفاقاً وليست تكون في شيء من كسب الاحترام الصحيح والمحبة الحقيقية المبنية على تبادل المحبة بالاخلاص والصدق الآتى من قبل الرحمة الحقيقية والناتج عن الشفقة والحب المتبادل من أجلها بالاخلاص . فمن خص بهذه الخلة الكريمة من الرحمة والشفقة فقد فاز بأجل شعور للانسانية وحظي من أجل ذلك بين أهله وناسه وعموم أبناء هيئته بأجل الأرب وأفيد الآداب الاجتماعية .

السخاء — هو بذل المال عن قدرة في حقوقه ووجوهه الاجتماعية المفيدة وقد تقدم شيء من ذلك ، وهذا الخلق مستحسن مالم ينته الى السرف والتبذير فالاعتدال واجب في كل الاحوال كما ان البخل والشح والضن بمد يد الاعانة والرفد والمساعدة في وجوهها المطلوبة شرعيا واجتماعيا مذموم لانه يحرم الانسان مما لا ينبغي أن يحرم الانسان نفسه في هيئته منه في حال ميسرته وغناه ومقدرته على اكتساب المحامد والمفاخر الاجتماعية بواسطة ماله بين هيئته ولله ما أجزل معنى الحديث الشريف « السخي قريب من الله قريب من الناس والبخيل بعيد من الله بعيد من الناس » ولا ريب انه يقصد بهذا القرب ما أشرنا اليه من الجهة النفيسة المثمرة للمحامد

سلامة النية وحسن الطوية — وهو اعتقاد الخير لكل الناس ومعاملتهم بقلب سليم وهو من الاخلاق المرضية الواجب التحلي بها دينيا أيضا وتنكب الخبث والغيلة والمكر والخديعة تلك الصفات التي هي من شر مايجنى المرء بها على نفسه في سائر المعاملات وإن ظهر له أنه الرابح الناجح بتلك الخصال الذميمة بادىء بدء لكن لا يلبث من يتصف بها الا ان يرى الناس وقد

علموا بخبث طويته وقبح سريرته فيحتقرونه ويزدرونه ويجتنبون معاملته بل وربما كالوا له بما يكيل لهم به فلا يعود غالبا ينجح بينهم أو يظفر منهم بطائل الا بمقدار ماينتفع به منه في المجتمع فضلا عن الانتقاص الادبي والسمعة الرديئة « ولا يحيق المكر السيء الا بأهله »

الشجاعة — الشجاعة الادبية من خير ماتتحلى به النفوس وتنجح لها به كل الشؤون إذ لخوار العزيمة والجبن الادبي ضررهما البليغ على النفوس نفوس الافراد بما لا يمكن حصره ، والشجاعة الحسية من أفضل الصفات لان الثبات عند المكاره والنوازل أمر مطلوب لسلامة الحياة البشرية والذود عن الحياض ولقد قال الشاعر العربي القديم

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه يضرس بانياب ويوطأ بمنسم

وليس للمرء أفضل من سلاح الشجاعة ما دامت غير بالغة حد التهور وكذلك الحال في الشجاعة الادبية من حيث قول الحق والصواب غير هياب ولا وجل إنما بمراعاة آداب لها وشروط تبعاً للنظام المرعى ولقد كان للمسلمين هذه الملكة ملكة الشجاعة الادبية على أشدها في الاعصر الاول ولكنها

تلاشت من نفوسهم شيئاً فشيئاً تبعا للتقلبات والتغيرات الشديدة التي أبعدت النفوس عن مبدء الحرية والمساواة الاسلامية حتى أضحت في اخريات الايام كلا شيء الامر الحرى بان يرجع اليه طلباً لمظاهر الحياة الاجتماعية الصحيحة وحرية الافكار المفيدة وفي الحث على هذه الشجاعة الادبية جاء في الحديث « لا ينبغي لامرىء شهد مقاما حق الا تكلم به فانه لن يؤخر أجله ولن يحرمه رزقه »

الصبر — الصبر عند الشدائد وهو خلق مركب من الشجاعه والوقار ومستحسن جداً في كل الامور أما الجزع والقلق والاكثار من الاضطراب بحيث يصير المرء كما قال الشاعر

كريشة في مهب الريح طائرة لا تستقر على حال من القلق

فليس بمفيد صاحبه ولا هو بالمغنى عن الصبر قتيلا في التدبير واستنباط الحيلة بالثبات والاجتهاد بالحكمة لدفع ضرر الشدائد وتذليل المصاعب واحتمال المكاره والتماس المخارج وهذا لعمري ما يسميه اخلاقيو العصر بالثبات والثبات والصبر مترادفان هنا على إن للصبر فضلا في كل الامور وهو مطلوب دينياً في كل الاحوال وعقباه محمودة في احتمال تصاريف الاقدار الجارية على

الانسان التي يعد الجزع فيها عصيان وسخط على مقدور الله
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « في الصبر على ما تكره خير
كثير » وقال « الصبر والاحتساب خير من عتق الرقاب ويدخل
الله صاحبهن الجنه بغير حساب » وقال بعض الحكماء « الصبر
باب العز والجزع باب الذل » وقال الشاعر الحكيم

الصبر أفضل ما اعتصمت به ولنعم حشو جوانح الصدر

والصبر صبران صبر على الاقدار وصبر على الاعمال وسيأتى
زيادة شرح على الأول فى قسم أدب النفس مع الخالق تعالى .

الصدق — والصدق منجاة من العطب — وهو ذلك
الخلق الكريم والخلة الجميلة من الاخبار بالامور على حقيقتها
والجرى فى كل الشؤون بموجب أدبها والمؤمن كما فى الحديث
الشريف إذا قال صدق وإذا وعد أوفى — والصدق مستحسن
من كل الناس وخليق بمن يتصف به ويشتهر ان يكتسب
احترامهم وثقتهم به وإجلالهم لقامه مقام لسان الصدق أما نقيض
هذه الخلة من الكذب فمن أقبح الرذائل وأخس وأردأ الخصال
المفسدة للاحوال المضيعة للحقوق في مثل شهادة الزور والبهتان
والحلف الكاذب فانها كلها حرام ومن أشأم الخصال التي يتخلق

بها امرؤ سفلت نفسه وانحط خلقه ، ويدخل في باب هذه الرذيلة بل هو من شر الكذب «الغيبة» و «النميمة» «والسعاية والوشاية» ويالله ما أقبحها وأسوأها من صفات دنيئة وخصال رديئة تعود بالضرر على المتصف بها اكثر مما قد تضر بمن عداه وكتب التاريخ والمحاضرات الاسلامية مملوءة مشحونة بالعظات البالغات والعبر القارعات ناهيك أنه قد تضافرت النصوص الدينية الصريحة والبراهين العقليه الرجيحه على قبح وسوء مغبة من يتصف بالكذب أو أكل لحم أخيه ميتا أو شهادة الزور الى آخر ما في الباب من تلكم الاذيال الذميمة والخصال السخيفة التى لا تقوم عليها مصالح البشر الحقيقية البتة ولا تضر الغير بمقدار ما تضر أصحابها في الهيئة فضلاً عما يترصد المتصف بها من العقاب الشديد يوم ينفع الصادقين صدقهم

العدالة — هى التقسط اللازم للاستواء في جميع الفعال وكل الشؤون واستعمال الامور في مواضعها وبأوقاتها وفي وجوهها وحقوقها وقد مضى شيء كثير مما يتعلق بها في أدب المعاملات وغيره وأدب الحكومة ، أما الظلم والجور ذلك الذى يضاد العدالة ويخرب البيوت والممالك ويفسد كل الاعمال

فهو خروج المرء عن العدالة المطلوبة في جميع الامور كأخذ الاموال من غير وجوهها الحلال والمطالبة بما ليس له فيه من حق وجعل الاشياء في غير مواضعها ولا أوقاتها ولا على القدر الذي يجب والوجه الذى يجب كالسرف والتبذير وتطفيف الكيل وتخسيره الخ الخ.

العفة — وما أحلى اسمها وأجل خلقها وأعم نفعها فى ضبط النفس دون الاسترسال فى الشهوات وقصرها بوزان العقل والحكمة على الامور الحلال وهو الامر المطلوب انسانياً لاصلاح حال البشر وجمعياتهم صحياً لتقدمهم وسلامة أبدانهم ونفوسهم وعدم اضاعة اموالهم ولتحصل بالوزان الشرعي الانسانى امور التناسل والتكاثر على مقتضى مبادئها الانسانية بعكس حال نقيض هذه الحالة من الفجور والانهماك في الشهوات والشرور وارتكاب الموبقات وشرب الخمور والفحش تلك المفاسد والشرور الهادمة للبنية الانسانيه المقوضة لدعائم الهيآت المحطة بشرف النفس الآدمية المردية بقواها العاقلة والادبية ، والآثار والاخبار فى مدح العفة وما تحتها من الخلال الحميدة وذم الفجور والفسوق اكثر من ان تحصى وما

اقبح من ان يصير المرء الحر عبداً بارادته وأسيراً لشهواته التي تجره الى اختلال أمره والانتهاء بتلاشي شأنه « وما كان ربك ليظلم الناس ولكن كانوا انفسهم يظلمون »

علو الهمة — خلة هي من أجل الخلال الانسانية الخصيصة بالانسان والحرية بكماله العقلي وشرف ارادته التي يجب ان تحرر من أسر الاهواء والسفاسف وتحرى بها أعالي الامور في جميع الشؤون دون حقيرها ودنيئها الدال على خساسة الشأن وغباوة النفس وجهلها وصغر الهمم وانحطاط العزائم الامر الذي تسفل معه كل الاعمال والافعال، وعلو الهمة وكبرها حال بين «التفنج وصغر الهمة » فالتفنج تطلع الانسان لما لا يستحقه ولا هو بكفؤ له وهو البذخ وصغر الهمة ترك ما يستحقه وهو الدناءة وكلاهما مذموم على أنه قد قيل «المرء حيث يجعل نفسه إن رفعها ارتفعت وان قصر بها اتضعت » فيجدر بكل امرىء ان يجتهد ولا يصغر همته او يحط بنفسه قال الامام عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه « لا تصغر من همتك فاني لم أر اقعد بالرجل من سقوط همته » وهذا انما ينال بالجد والاجتهاد والترفع والتصون وتحرى أحسن الاحوال من غير ماصلف ولا تفنج في الشؤون

علما وعملا ولله ما أجمل ما قال الشاعر

فقل لمرجى معالى الامور   بغير اجتهاد رجوت المحالا

اما صغر الهمة والدعة فى متحرى الاحوال كلها فموجب للانحطاط والخسار ولذلك قيل «ما لزم احد الدعة الا ذل، وحب الهوينا يكسب الذل وحب الكفاية مفتاح العجز» وقال الشاعر:

اذا ما الفتى لم يبغ الا لباسه   ومطعمه فالخير عنه بعيد

غير أنه لما كان التوسط في كل الامور من أهم مشروط الحكمة والتوسط في كل الاحوال من اكمل الادب الانساني فلذا وجب على كل عاقل ان يتوسط فى أمره ولا ينزل نفسه الا منزلتها ويتدرج فى شأنه بالحق والاعتدال تدرجا فلا تبلغ به محبة التفانى في التعالى الى درجة «التفنج» المذموم ولا يحط بنفسه وهمته وعزيمته الى درجة الحقارة والاخلاد الى أرض المهانة وما الحكمة الا بين الاطراف وخير الامور أوساطها كما جاء فى الحديث الشريف.

القناعة النفسية من أجمل الخلال وأحسنها وليس معناها الاخلاد الى أرض الدعة والكسل والخمول والتنكب عن السعي والعمل بالجد في تحصيل الارزاق والمكاسب بالهمة

والنشاط والعزيمة الصادقة ضمن دوائر الشرع فيما لم يحرم من الاعمال والمساعي كما تقدم القول فيه في باب أدب العمل بل المراد بها تلك الصفة التي تلازم النفوس الكريمة والهمم العالية المتأدبة بأدب الاسلام فترضي في نفسها بالحاصل لديها في الوقت والحال ولا تظهر التألم والتمني والشره بل تتناول ما تسعي اليه بالحق وما تحصله منه بالقدر المحبوب الممدوح فهذه القناعة هي ولا ريب التي عناها رسول الله صلى الله عليه وسلم «القناعة كنز لا يفنى» وهي بهذا الحال من أفيد ما يتحلى به الانسان ومن خير ما ترتاح له النفس ناهيك وان الطمع والشره من أضر ما يضر بالمرء لانه يفتح عليه باب الشر ومداخله الكثيرة والوقوع في الحرام في باب الكسب لفرط الطمع والجشع ولله ما أحسن القصد والاعتدال وبعبارة اخري ما أجمل القناعة ذلك الكنز الذي لا يفنى.

كتمان السر — خلق ممدوح وهو يدخل في باب أداء الامانة والوفاء ، فاذا ما ائتمنك انسان على سر يلقيه اليك أو حدثك حديثاً يجب اخفاه فلا تكن سفلاً وسفيهاً باذاعته خائناً بافشائه ناكثاً عهد الامانة ولقد قيل في مدح من يكتم اسرار أصحابه واخوانه

ويكاتم الاسرار حتى أنه ليصونها عن أن تمر بباله

وشر الناس اولئك الذين لا خلاق لهم من الثرثارين خصوصاً ممن يستنزلون الناس حتي إذا مااستفرغوا ما فى بطونهم من شكاو وبرحاء وامور هامة افشوهامنهم للتشنيع بهم والحط من أقدارهم أو لمقاصد خبيثة يطوونها وهؤلاء هم شر بنى آدم وهذا الخلق من أردأ الاخلاق وأحطهاوأشأم الخصال وأخسها فالمرء الحر الشمائل الحسن الآداب يجدر به ان يكتم سر أخيه فيما يحط به أو يضر بشأنه ولا يفشي عليه ما يكره من شكوى أو بلوى يبثها ليفرج همه وكربه ولله ماالطف وأرق هذه الحكمة التى قالها امرؤ عاقل لصديق له حين قال له « أريد أن أفشى لك سراً تحفظه عليّ » فأجابه الصديق الحكيم على الفور «لا أريد ان اريك قلبي بجوائك واجعل صدرى خزانة شكواك فيقلقنى ما أقلقك ويؤرقنى ما أرقك فتبيت بافشائه مستريحا ويبيت قلبي بحره جريحا .

وافشاء السر حرام لانه أمانة قال الحسن رضى الله تعالى « من الخيانة إن تحدث بسر أخيك »

المحبة والمودة — وهى احدي أسباب نظام العالم العلوي

والسفلي ولو وجدت المحبة بين الناس كلهم على حقيقتها لا ستغنى عن المداراة ولذلك قيل المدالة خليفة المحبة ، على ان هذه المحبة والمودة مما يجب بمقتضى أدب الاسلام أن يتصف ويتخلق بها الناس نحو بعضهم البعض من الاهل والاقارب وأبناء الهيئة وعموم بني الجنس ولقد مضى عنها شيء في أدب المعاشرة وهي مفيدة جداً في أدب النفس واستشعارها بالاخلاص بالنسبة الى أدب السلوك الاجتماعي ووسائلها كثيرة وقد جمعها الله في قوله تعالى « أدفع بالتي هي أحسن فاذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم » فمن عامل الناس بالمروءة والشهامة والتسامح والتجاوز أحبوه وفاز بينهم بأنجح المقاصد وأجل الأرب أما المداوة والتباغض والتحاسد والتدابر بين الناس فليس من شر يفوق عليها في جر المصائب والويلات فيما بينهم وفي الآداب الاسلاميه آثار جليلة في المعنى للترغيب لتوطيد دعائم هذه الخلة الاجتماعية الجميلة مما يغني عن الاطالة وسيأتي في أدب النفس مع الخالق ذكر حب الله .

المنافسة — وهي التقليد والتشبه بالغير فيما يراه ويرغب فيه لنفسه والاجتهاد في الترقي الى درجة أعلى وهو أمر مفيد

إذا كان فيما يتعلق بالخيرات الاجتماعية والامور الجليلة الانسانية كما قال الشاعر

فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم إن التشبه بالرجال فلاح

وهذا الخلق يوجد في الصغار اكثر مما يوجد في الكبار لحكمة انتظام امور الخلق ولهذا يتحتم على كل امرىء أن يظهر بأحسن المظاهر المؤثرة على منافسيه حساً ومعنى من غير كبر ولا عجب وما اكثر مايفسد أحوال الذرارى الا القدوة السيئة بالوسط الفاسد في الآداب والاخلاق وكل الشؤون المحدقة بهم وتسرق أخلاقهم منه . ويلحق بهذا الخلق اذا كانت النفوس حسنة التربية إما «الغبطة» أى تمنى ان يرى الانسان نفسه بمثل حال المغبوط دون ميل الى تمنى زوال نعمته وإما «الحسد» إذا كانت النفس فاسدة التربية وهو ذلك الخلق الذى لايسود صاحبه والذى يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب كما جاء فى الحديث الشريف فالحسود لا ينجح أبداً فى اموره لتمنيه المكروه للغير والعمل لاعدام نعمته أو الحط من فضله وهو خلق سافل ردىء ياله من خصلة فى المنافسة ذميمة قبيحة ضارة بصاحبها أيما ضرر قال بعض الحكماء «الحسد داء الجسد» وقال الاحنف

ابن قيس «لا راحة لحسود» ومن بليغ ما قالوا فى هذه الرذيلة الاجتماعية «الحسد يبدى نقص الحسود ويدل على كمال المحسود وكفى بالانتقام منه ان يتقطع حسرة وهو مع لؤم طباعه وخساسة نفسه واتضاعه ينبه على فضل غيره ويظهر ما خفي من خيره» وفي ذلك يقول الطائى :

واذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان حسود

الوفاء — خلة مدحها الله تعالى « والموفون بعهدهم اذا عاهدوا » — « واوفوا بعهد الله اذا عاهدتم » وعرفوا الوفاء بأنه الصبر على ما يبذله الانسان من نفسه ويرهن به لسانه. وخلق الوفاء خلق محمود ينتفع به كل الناس في مصالح هذا العالم وتنتظم به امورهم فمن عرف به كان مقبولا موثوقاً به ناجحا لذلك فى جميع أعماله ويقابل هذه الخلة من الرذائل «الغدر» لانه الرجوع عما يبذله المرء ويضمن به الوفاء من نفسه وما أشأم الغدر والنكث والتنكب والخيانة على بنى آدم لان من يشتهر في الهيئة بها لم يركن اليه البتة ولا يوثق بعهده ووعده انسان فيضطرب حاله وتتشوش عليه اموره ويعيش فى حال من المذلة زرية وأمر من الصغار واحتقار الشأن جزاء خيانته وخبث نفسه .

الوقار — وهو الامساك عن الفضول في الكلام والعبث
وكثرة الاشارة والحركة خفة ونزقاً فيما يستغنى عن التحرك
فيه وقلة الغضب والاصغاء عند الاستفهام والتوقف عن الجواب
والتحفظ عند السرعة والمبادرة في جميع الامور. وهذا الخلق
من أفيد الآداب النفسية في السلوك في الهيئة الاجتماعية
ويدخل فيه «الحياء» والحياء كما في الحديث شعبة من الايمان —
وهو غض الطرف والانقباض عن الكلام الفاحش والامر
الفاحش حشمة وتحشما. ويقابل هذه الخلة من الرذائل الخرق
وقلة الحياء والوقاحة وهي الجرأة في الكلام بلا احتشام ولا تحفظ
وكثرة الحركات والاشارات وشدة الضحك المميت للقلوب
والاتيان بالهزل والهذيان الذي استعاذ منه رسول الله صلى الله
عليه وسلم «نعوذ بك من الهزل والهذيان» واكثر ماتوجد هذه
الخصال الذميمة عند أبناء السوقة وأرباب السخف والمجون
وأهل الدعارة من غوغاء المدن خصوصا ولكنه على كل حال
أمر شائن دال على سخافة العقول وبعبارة اخرى على استحكام
الجهل والغباوة وفساد الاخلاق في تلك النفوس وقلة مادتها
الادبية اسلامياً

*
* *

تلك هي جملة الاخلاق الفاضلة التي يجب ان يتخلق بها بموجب أدب النفس نحو الخلق في الاسلام وكلها داخلة في باب المروءة والاذواق السليمة ويجمعها اسم «الحكمة» على أوسع معانيها التي قال الله تعالى فيها « ومن يؤتى الحكمة فقد أوتى خيراً كثير» وكلها وما يتفرع عنها قد نبه عليه في حكمة القرآن وآداب السنة المطهرة النبوية. تنبيه حث عليها وتنبيه نهى وتحريم فيما يضادها ولقد تقدمت الاشارة الى شؤم الذنوب والرذائل والقصاص والوعيد عليها ناهيك أن الرذائل في جملتها وتفصيلها مفسدة لشأن الانسان في حد ذاته وعمله كله وهي تتعدى وتتناول افساد حال الهيئة الاجتماعية فمن اجل ذلك كله من شرها أوجدت القصاصات في الشرائع بأجمعها لاقامة قسطاس العدل بين الأنام لما ينقصهم من آداب النفوس المؤسس عليه أدب الجوارح لان امثال هاته الفضائل وان لزمت بل ووجب دينياً وأدبياً على كل انسان تحريها في نفسه وفي أهله وولده غير أن مما لا خلاف فيه أنها قلما تجتمع في انسان على التمام وان وجدت جملة في مجموع الامة كذلك ما يسمى رذائل من نقيض هاته الفضائل فان شيوعها

هو كذلك ويستحيل ان تجد انسانا فيه عيوب الا وتجد الى جانبها فضيلة أو أكثر قد تستحسن منه وتستظرف فيه غير أنه لا ينبغي مع ذلك للمرء العاقل ان يقصر من همته ويتخذ ذلك حجة بل يجب اسلاميا لما جاء في الآية «فاستبقوا الخيرات» ان يجد ويجتهد ليحصل الفضائل الرئيسة ويتحلى بالخلال الشريفة وان يتجنب الرذائل الشائنة الحسية والمعنوية لان ذلك إنما هو الوسيلة العظمى الى نوال السعادة فى الحياتين ومفتاح للنجاح والفلاح فى كل الاحوال والاعمال (ان تجتنبوا كبائر ماتنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم) والدين كما قيل فى الاثر الشريف المعاملة معاملة الناس بأحسن الاخلاق واكرم الآداب الاجتماعية ومن لم يجاهد نفسه ليتصف قلباً وقالباً بالمحامد الاجتماعية والمادح الادبية فى الهيئة والقيام بكل الواجبات المفروضة نحوها في سائر الشؤون والتزام الادب النفسي في كل انواع السلوك فهذا قل ان ينال تلك السعادة على التمام بل كان بالشقاء أحرى وبأسم المقصر فى حق نفسه وحيال أبناء هيئته أولى ولحقته إذا غلبت شروره فضائله الاضرار والقصاصات المنصوبة للردع والقائمة للزجر وتقويم معوج الانفس والاعمال وتلك السعادة

المطلوبة لن تنال بالراحة في هذه الدار بل الراحة في التعب والنصب واللذة في المجاهدة للنفس على الدوام لتحصيل الفضائل والمعارف وابتناء المنزلة في القلوب وعند الرب بالاعمال الصالحة في الهيئة والموهبة اسلامتها سواء قام بها الافراد أو تضافرت عليها أيدي الجماعات تحرياً لاستقامة امورهم كلها في هيئتهم نزوعاً الى الرقي أو الكمال الانساني الذي ينساق فيه الانسان بطبيعة العمران وما الشرور والرذائل الامعوقات في سبيله مقوضات لأركانه فهي من قبيل الامراض التي قد يمكن تلافيها أو هي بعبارة اخرى كتلكم الحشائش التي تلتف حول اصول الاشجار والنبات الطيب من أصل الفطرة الانسانية فتعاكسها وتوقف نموها وتمتص غذائها ولهذا وجب على كل امرىء مجاهدة نفسه التي بين جنبيه على استعمال أحسن مافيها واستئصال ماقد ينبت الى جنب ذلك من ردىء حشائش الرذائل خصوصاً ماقد تريه غوايات النفوس أنه من أكمل الحظوظ وأنواع اللذات والسعادات وليس هو عند التمحيص الدقيق منها البتة في شيء بل ربما كان من شر جالبات الشقاء والتعاسة والقيام بهذا كله يدخل في الأمر المحبوب المطلوب سواء في آدابنا الاسلامية

أو آداب غيرنا من تزكية النفس وترقيتها مما لا فلاح ولا نجاح البتة الا به

فرياضة النفس بموجب كل الآداب القديمة والحديثة إذن واجبة وهذه الرياضة أو المجاهدة العملية تكون بتهذيب النفس أى بتعويدها على الفضائل الاجتماعية والاعتدال واستخدام العقل الرشيد فى كل الشؤون الحيوية واجتناب الرذائل والافراطات فى تلكم الاحوال ولا يستثقلن أحد ذلك بل ولا يعذر فى تركه ذو أدب اسلامي والقرآن أمامه والسنة بين يديه وكل ما تقرر بواسطتهما من النظامات الاجتماعية والآداب الصحيحة فيه يسر وتيسير من حيث سد حاجات النفوس وتطلعات القلوب بما منه مندوحة للاخذ بالحلال الصرف وتجنب الحرام المنهى عنه « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » وقد أمرنا بالاخذ بأحسن الاشياء حسياً ومعنوياً وأمرنا بان نؤدب نفوسنا ونتجنب الفواحش من الرذائل ما ظهر منها وما بطن وان نحسن المعاملة والسلوك بين الخلق وجعل هذا كله مفتاح النجاح والفلاح بل قطب رحا السلامة فى الدنيا ونيل سعادة الآخرة

ولقائل ان يقول ان الاخلاق لا يمكن تغييرها لانها الخلقة الباطنية أو صورة النفس أو ترشيحها من الطبع الآدمى فهى كالخلقة الظاهرية من حيث ان هذا جميل الصورة بهى الطلعة وذاك ذميم الصورة قبيح المنظر ، وذاك طويل القامة وذاك ضعيف البنية فكيف يطمع فى تغيير ما يظهر أنه من متممات الطبيعة البشرية لانتظامها به حساً ومعنى ناهيك وان للاوساط حكماً طبيعياً ومعنوياً خصوصاً إذا كانت تلك الاوساط الادبية كثيرة الشرور والفساد وهى باطراد الاحوال مطردة الفساد والافساد فى الاخلاق بالتلقيح والعدوى من القدوة السيئة بالطباع السوء التي يقول فيها الشاعر

إذا كان الطباع طباع سوء   فلا ادب يفيد ولا اديب

على ان هذا كله قول ضعيف لانه لو كانت الاخلاق لا تقبل التغيير (والله تعالى يقول لا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم) لبطل شأن الوعظ والتأديب الشرعي ، وكيف ينكر قبول التغيير بخلق الانسان صاحب الاستعداد العظيم والقابلية الكبيرة مع أن الحيوان الاعجم قد يتغير خلقه بالتهذيب والتدريب ، فالبازي ينقل من الاستيحاش الى الانس

والكلب من الشره الى التأدب والامساك والتخلية (كما هو مشاهد فى كلاب الصيد) والفرس قد ينقل من الجماح الى السلاسة والانقياد وكل ذلك تغيير فى الخلق أخلاق هذا الحيوان الاعجم الغريزية فكيف بالانسان سلطان المخلوقات وصاحب العقل الرشيد ؟ لا ريب أنه أولى وأحرى بأن تقبل أخلاقه التغيير وتسلس طباعه لا سيما والنهج ميسر عليه والطريق طريق الخير مفتوح الباب اسلامياً واجتماعيا لديه وهو بمقتضي سير العالم لو حاد عنه الى مايسفل بشأنه دون التمسك بما يرقى أمره ويعلى قدره كان ولا ريب الساعى الى حتفه بظلفه إذ العالم فى جهاد مستمر فاليقظ الآخذ بأسباب الكمال والفلاح هو الناجح الظاهر والمخلد الى أرض الخساسة فى الاعمال والسفالة في الاخلاق هو الخاسر ، فهل الاسلام يأمر بذلك ؟ هل ينهى عن الفحشاء والمنكر وكل الاخلاق الذميمة وينجح أهله إلا بما أمر به من اضدادها ؟ كلا ثم كلا

فمن تمام النعمة علينا فى أدبنا الاسلامى أن أرشدنا الله تعالى الى كل خير أصلى يصلح لكل زمان ومكان كما أمرنا ان نمسك بذلك تمسك فعل مطلقا مع ذلك مما يدل على قبول الاخلاق

للتغيير وأن نفوسنا قابلة لأن نضعها حيث أمرنا حتى نصلح لهدايته وفيوضاته القدسية (لا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم) ولتمام الابداع فى الصنع لم يعط الانسان هذا الخلق بادىء بدء تاما كاملاً وبعبارة اخري غير قابل للتغيير والتبديل بل الاعضاء الباطنه أو الحواس النفسانية من الادراك والعقل وإن كانت كالاعضاء الظاهرة من حيث أنها تبتدى تنمو شيئا فشيئاً حتى تشتد مع الزمان إلا أنه قد جعل لها فوق ذلك تلك الاستعدادات العظيمة والقابلية والاختيار والارادة للتكايف بها والتحوير وتصحيح المبادىء بفضل ماوهب العقل من قوة البصيرة وحسن الاذواق وقبول الهدايات الربانية والفيوضات الوجدانية التي يجب أن تربي وتوقف على المبادىء والمعلومات وهى لها بعد ذلك شأنها من قوة الحكم واستخراج صحيح النتائج من فاسدها ولكل أصل فى مستمد أدبنا من الكتاب والسنة السمحاء

وإذ كان الخير والشر وبعبارة اخرى الفضائل الانسانية والرذائل الاجتماعية قد بين حالها بياناً شافياً فى مبادىء الادب الاسلامى وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « حسنوا

أخلاقكم » وقال « بعثت لأتمم مكارم الاخلاق » فقد ظهر لنا من هذا كما ظهر لنا مما سبق أيضاً فى الآية أن ذلك مطلوب من كل أحد كالعلم الذى طلبه فرض عين على كل مسلم وكالقرآن المأمور العمل بهدايته وليس فقط أن نتلوه لمجرد التبرك بتلاوته وكل هذا يرجع علما وعملا الى تلك الغاية السامية من تزكية النفوس وتطهير الاعراق فكيف يدعي مدع بعد هذا كله أن الطباع لا تقبل التغيير وهى مأمورة به ومكلفة وقد ركبت في الانسان كما سبق بكيفية قابلة له ولولا ذلك لما تحول جيل العرب في صدر الاسلام بهداية القرآن من الخشونة والشراسة في العوائد والاخلاق اخلاق الجاهلية الاولى الى تلكم الاخلاق الاسلامية الجديدة السامية (ان هذا القرآن يهدي للتى هى أقوم) ناهيك وان الاخلاق الاجتماعية الفاضلة المأمور بها وأتيت على الكثير منها آنفا ليس فيها خلق إلا وله فوائد ومزايا جليلة فى إنالة النفوس النجاح والفلاح في هذا العالم عالم التكاليف كما تقدم وأن لا شر ولا ضر ولا تقهقر ولا اتضاع الا باتباع اضدادها وغشيان الذنوب وقد تقدم عن ابن قيم الجوزية بيان ما يلحق المرء من آثارها فيجب مجاهدة النفس وتدريبها وتعويدها

دائما على الخيرات الاجتماعية والنفسية وتحليتها بالآداب وأن
صعب الامر واستعصي الحال الاسباب الكثيرة المحدقة بالانسان
مما يجعل الهمم متفاوته والتفاضل فى العزائم والارادات ظاهرا
وكلما كانت التربية متأصلة منذ الصغر والقدوة العملية في الوسط
حسنة وجميلة كان الامر في اكتساب الفضائل أقوى وأرسخ
وأظهر فى الكبر على قدر ذلك في المجاهدة مجاهدة النفوس
للمؤثرات ومقاومة الغوايات النفسانية على ان النفس لما قد ركب
فيها من قوى الشهوة والغضب قد تكون كالدابة الجموح اللازم
لها الترويض والتأديب حتى تكف عن الهوي وتنقاد الى العقل
بزمام والا صار الانسان عبداً للهوى وبعبارة اخرى أسير شهواته
البهيمية ونزعاته الشيطانية فانسلخ عن انسانيته وحرم شرف
الاتصاف بجميل أخلاقها بين بنى هيئته فتزل قدمه بعد ثبوتها
فى جميع أفعاله ولا يعود ينجح في سائر مساعيه مصداقاً للآية
الشريفة «قد افلح من زكاها وقد خاب من دساها» والآثار فى
الباب باب تأديب النفس وتهذيبها لجلب السرور ودفع الشرور
عنها والمخاوف مما سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم الجهاد
الاكبر لهذا الغرض الشريف فضلا عن الغرض الديني الكريم

كثيرة فالزم أيها المسلم المصرى الفضائل واجتنب فى سائر أحوالك الرذائل تحظى بالسعادة الابدية والكمال الانسانى الاسلامى ولقد قال رسول الله صلى الله عليه « اكمل المؤمنين إيمانا احسنهم أخلاقا » ويقول الشاعر « هى النفس ما عودتها تتعود »

القسم الثانى

(ادب النفس مع الخالق)

الادب بحق الله تعالى — إملاء القلوب من عظمة الله — الاسلام والايمان حال النفس المستكملة المطمئنة — التقوى جماع الخير — الاخلاص وصدق النية — تعريف النية — الاخلاص الحق — المحبة لله تعالى — مقامات وأحوال النفس الاخرى — الرجاء والخوف — محاسبة النفس ومراقبتها — التوبة — الصبر — الشكر — التوكل — الزهد — التفكر .

« مثل الايمان كمثل بلدة لها خمسة من الحصون الاول »
« من ذهب والثانى من فضة والثالث من حديد والرابع من »
« آجر والخامس من لبن فما دام أهل الحصن متعاهدين الذى »
« هو من لبن لا يطمع العدو فى الثانى فاذا أهملوا ذلك طمع »
« في الحصن الثانى ثم في الثالث حتى تخرب الحصون كلها »
« فكذلك الايمان فى خمسة من الحصون أولها اليقين ثم »
« اداء الفرائض ثم اتمام السنن ثم حفظ الآداب فما دام العبد »

«يحفظ الآداب ويتعاهدها فالشيطان لا يطمع فيه فاذا ترك»
«الادب طمع الشيطان في السنن ثم في الفرائض ثم في»
«الاخلاص ثم في اليقين فينبغي للانسان ان يحفظ الآداب»
«في جميع اموره» (الشيخ عبد القادر الجيلاني)

في كل شيء اذا ضيعته عوض وليس في الله ان ضيعت من عوض

لقد تقدم في أول هذا الكتاب ما يجب على المسلم من أدب الاعتقاد بحق الله تعالى وتنزيهه وتقديسه والقيام بعبادته لانه سبحانه وتعالى خالقنا ورازقنا ومعيننا ومثيبنا ومجازينا على اعمالنا وافعالنا جزاء كريما السيئة بمثلها والحسنة بعشر أمثالها كما هو صريح مدلول القرآن والسنة وانه تعالى تفرد في علاه الموصوف بالكمال المطلق واتقان الصنع وابداع التدبير لخلقه بما لا يمكن أن يقف على كنهه عقل مخلوق على التمام، وانه تعالى له في خلقه التصاريف بما شاء وكيف شاء ولا يحيط بحكمته أحد ولا يقدر ان يحصي نعمه المتواصلة وامداداته المتوالية انسان لهذا كما لزم القيام بحق عبادته وتقديسه وجب اشعار النفوس الادب بحقه بالاخلاص له والحب والتقوى والخوف منه لانه تعالى الفعال بالحق لما يريد وهو أحكم الحاكمين وارحم الراحمين

سبحانه جل شأنه

ولقد مضى القول كما سلف في الاعتقادات والعبادات في أول هذا الكتاب بالايجاز والاختصار فبقي ان اشرح ما هو لازم من الادب والتأدب النفسي الخالص للخالق العظيم مسديا أجل النعم ظاهرها وباطنها مما لا يمكن حصره ولا عده كما قال تعالى في القرآن المجيد «وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها» ولا غرو فاستصحاب هذا الادب في النفس البشرية واملاء القلوب من عظمته تعالى خشية ورهبة وحباً وأملا كريماً وتقديساً وتنزيها واخلاصا هو عين العبادة بل هو عين الايمان وتمام السعادة في الاسلام وكل الايات والاحاديث ناطقة بذلك شاهدة به مبينة ان عمل الجوارح والاعتقاد باللسان لا يتم به اسلام المرء وايمانه الا اذا صحبه عمل الوجدان الانساني من استشعار الضمير واتصافه الذي عنه ينبعث باعث الرغبة للقيام بشوق وعزيمة صحيحة لتجويد عمل الجوارح ومراعاة روحها ولهذا فرق بين الاسلام والايمان (وقالت الاعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا اسلمنا ولما يدخل الايمان في قلوبكم) وترى شرح هذا بالطول في في كتب الاسلام المعتبرة كالتفاسير القرآنية وشرح

كتب السنة كشرح مسند مسلم للامام النووى وغيره

فالايمان عمل القلب ، عمل الضمير ، والاسلام وان عم هذا ضمنا لكنه يشمل عمل الظاهر والايمان خصيص بالباطن كما فسروا به تلك الآيه النازلة بحق الاعراب ، والاسلام الشامل والايمان الكامل مصدر كل خير وسعادة حقيقية للانسان تستطاب بها كل أعمال الجوارح فى الاعتقادات والعبادت وكل المعاملات وترتاح لها النفوس بما لا يمكن ان يتصور بحق أى سعادة أو لذة اخرى نفسانية ، بل هى لذة فوق كل لذة ، وشعور سام يعلو كل شعور بما لا يمكن لأى امرىء أن يصور شأنه أو يكيف حاله واستطابة نفسه به ، ولا عجب فللايمان كما فى الحديث الشريف حلاوة وللتقوى كرامة وحباً عند الله جماً وإذا أحب الله عبداً كان كما جاء فى الحديث الشريف بصره الذى يبصر به وسمعه الذى يسمع به وتلك هى صفة أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون بالمعنى الحقيق لا بالمعنى الذى يرمى اليه جهلة المتصوفة وغلاتهم .

وهذا الحال للنفس المستكملة أدبها الباطنى بحق الله تعالى وقبولها للفيوضات الآلهية واستشعارها بالرحمات الصمدانية

أمر دقيق ومقام عظيم وقد أطال فيه القول علماء الاسلام الروحيين وفلاسفة الاخلاق الصوفيين [١] كالامام الغزالى والقشيرى والسهروردى ومحى الدين بن العربي وغيرهم مما لايدخل تحت مقصود هذا الكتاب للغرض الذى قصدت فيه من الايجاز والاختصار والوقوف خصوصاً عند الحدود العامة والقيود الشرعية البحتة المقصودة بالذات في أدب الاسلام باطناً وظاهراً وأعنى بها الفضائل وأنواع الآداب النفسانية الواجب التحلى بها بحق الذات العلية القدسية ، تلك الفضائل والآداب المثمرة بالحقيقة أجل الثمار والفوائد فى كل أعمال الحياة الدنيوية والدينية كالاخلاص والمحبة والشكر والتوبة الى أشباه ذلك مما تجمعه كلمة « التقوى » المطلوبة من الانسان ليحظي بأجل الارب وسعادة الابد لقول الله تعالى « إن اكرمكم عند الله اتقاكم » وقد جعلها رسول الله صلى الله عليه وسلم « جماع كل خير » وحقيقة التقوى التى هى لباب الطاعة التحرز بطاعة الله عن عقوبته وأصل التقوى اتقاء الشرك ثم اتقاء المعاصى والسيئات ثم اتقاء الشبهات ثم ترك الفضلات مع القيام بمهام العبادات

(١) الاحياء للغزالى والرسالة للقشيري وعوارف المعارف للسهروردى الخ

وحسن المعاملات ، وهذا ظاهرها من اتقاء الحدود والقيام بالواجبات أما باطن التقوى وروحها فصدق النية والاخلاص ولهذا قال بعضهم « التقوى عمل بطاعة الله على تورع من الله مخافة عقاب الله » وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله « ليس التقي صيام النهار وقيام الليل والتخليط فيما بين ذلك ولكن التقوى ترك ما حرم الله وأداء ما أفترض الله فما رزق الله بعد ذلك فهو خير الى خير » وخلاصة القول ان التقوى تلك الصفة التى هى جماع الخيرات يجب ان يتصف بها المرء قبل كل شيء ليصل الى ما بعدها من المقامات قال بعض حكماء السلف الصالح « من كان رأس ماله التقوى كلت الالسن عن وصف ربحه » ويقول الحكيم ابن الوردى فى لاميته المشهورة

فأتق الله فتقوى الله ما جاورت قلب امرىء الا وصل

هذه هى التقوى وثمرتها أما ما بعدها من المقامات التى تستلزمها وتصاحبها او لا تنال الا بواسطتها فكثيرة انما آتى هنا على ما هو الاشهر منها وهى مقامات جليلة ومراتب أحوال عالية قد لا يظفر بها كل الناس وان كانت مطلوبة من كل الناس فهى كالاخلاق الفاضلة وكل الآداب النفسانية السالفة الذكر

من حيث عدم تساوى الهمم فيها كأعمال الجوارح التى الناس قد يتساوون في الاتيان بها على حد سواء لان هذه امور دقيقة وجدانية وتلك رواتب أعمال ظاهرة منتظمة مع ان تلك روح هذه بلا امتراء ، فاذا أتى المرء بعمل الجوارح بلا التفات منه الى عمل الباطن من مثل الورع والخشية وصدق النية والاخلاص والشوق والمحبة لم يجن من ثمار عمل الظاهر بمقدار ما تشتهى الانفس الكريمة اللوامة من لذة وسعادة في نفسها ووجدانها بل وفي كل الاعمال الحيوية المنوطة بها في هذا العالم فضلا عما تستروح له وتنتظره من أجر وثواب فى الآخرة الجامعه لاكمل انواع السعادات فى الجنة دار الخلد والنعيم المقيم التى أعدت للمتقين .

وأول تلك المقامات التى سبق أن التقوى تجمعها «الاخلاص» المطلوب فى العبادة كما فى المعاملة «فادعوا الله مخلصين له الدين» ومبدء الاخلاص صدق النية إذ العمل يحتاج الى النية والنية تحتاج الى الاخلاص حتى تكون صحيحة ، فاذا كان الاخلاص روح النية فالنية الصادقة روح الاعمال ولقد جاء فى الحديث الشريف « إنما الاعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى » وجاء فى حديث آخر كاشف لمعنى الاخلاص وحال القلوب فى

نياتها قال عليه الصلاة والسلام «ان الله تعالى لا ينظر الى صوركم واعمالكم وإنما ينظر الى قلوبكم وأعمالكم» ولهذا قال أحد العلماء «اطلب النية للعمل قبل العمل وما دمت تنوى الخير فانت بخير» وقال بعض السلف الصالح «رب عمل صغير تعظمه النية ورب عمل كبير تصغره النية» ومن نصائح العالم سالم بن عبد الله الى عمر بن عبد العزيز «إعلم ان عون الله تعالى للعبد على قدر النية فمن تمت نيته تم عون الله له وان نقصت نقص بقدره» وجملة القول ان عماد الاعمال أية كانت الاخلاص والنية الصادقة من السريرة وهى مفتقرة الى ذلك لتصير به خيراً محضاً اذ ان النية الصادقة هى فى نفسها خير وان تعذر العمل فان ثوابها عند الله باق لا حق بصاحبها كما دلت عليه الآثار ولانها عماد الابتعاد عن الرذائل وتجنب المساوى والشرور

ولقد عرفوا النية [1] التى جعلوا من مرادفها الارادة والقصد أنها حالة او صفة للقلب يكتنفها أمران علم وعمل العلم يسبق العمل لانه شرطه والعمل يتبع العلم لانه ثمرته، ومن لوازم العمل بعد العلم الارادة والقدرة ، فالعلم يوقف على النافع والضار

١ الاحيا للغزالى

من الامر وبالارادة يعزم المرء ويختار وبالقدرة يتم العمل على الوجه المطلوب ، فالاعتقاد أو العلم اللاحق بالنفس الراسخ في الذهن أصل والارادة الباعثة أو القصد تابعة له والقدرة العملية خادمة للنفس فى العمل بحكم الرغبة والغرض وهذا الغرض هو المقصد المنوى والانبعاث هو القصد أو النية وانهاض القدرة لخدمة الارادة بتحريك الاعضاء بالاختيار هو العمل .

وهذا الباعث من النية يرجع كما شرح الى تمكن الشخص من الاحاطة والعلم وقوة التمييز النفسى المحمول على هداية الله الملقاة فى الروع من قوة الاحاطة والادراك والميل الوجدانى الفطرى ثم بالتوقيف على المبادىء الصالحة واضدادها دينياً ودنيويا المثبتة فى الشرائع والآداب وبذلك يصح للمرء الحزم والقطع في الاختيار والتفضيل النية الصادقة والاعمال الصالحة التى بالتكرار تصير ملكات للنفس وما لم يكن للانسان هذا الحال لا ينبغي ان ينتظر من المرء صدق النية والعزيمة إذ يكون الانسان كالصبي لا يفرق بين الضار والنافع والغث والسمين إلا بما أفادته اياه بالطبع عوائد مجتمعه وربما صرفت النيات فيها والمقاصد والارادات والاعمال التابعة الى ما يضاد روح الادب الدينى

اما للجهل بعبادته الحقة أو لانصراف العزائم عنها لخفاء فوائدها وقيام شبه فوائد غيرها من المبادىء مقامها وان كانت ضارة أو لا تساوى منافعها منافع الدينية النفسانية، فلو صدقت النيات أى خلصت المبادى من غواية الضلالات والسفاسف الشيطانية لما أديت العبادت وأجريت الاعتقادات وسائر الاعمال الدينية مثلا بصفة رسوم وشعائر تقليدية بل لروعى فيها وفى كل الاعمال روحها وآدابها الخفية ولجنى هذا الانسان من وراء هذا فى نفسه وفى عمله كله أجل الاحوال واللذات وأسنى السعادات الابدية ولقام له من نفسه بسبب هذا ملكة «الاخلاص» الحق، ومقام المخلصين كبير وأمره عند الله خطير قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ما من عبد يخلص العمل لله أربعين يوما الا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه» وقال عليه السلام لمعاذ «اخلص العمل يجزك منه القليل» وقال العالم السوسى «الامر كله يرجع الى أصلين فعل منه بك وفعل منك له فترضى بما فعل بك وتخلص فيما تعمل فاذا أنت قد سعدت بهذين فزت فى الدارين»

والاخلاص هو الاتيان بالاعمال خالصة لا يشوبها أقل رياء قياما بواجب حقها سواء فى العبادات أو فى سائر الاعمال

قاصداً بذلك مراد الله تعالى منها لعباده وتحصيل ثوابه الاخروى.
عليها ومن يتحلى بهذه الصفة صفة الاخلاص الديني لا جرم
يكون بمأمن من تلك الخصال الذميمة من الرياء والخداع أو
النفاق لانتفاء هذه الكدورات الشيطانية المفسدة المحبطة للاعمال.
عنه بحلول الاخلاص القلب المثمر لجميع المحامد والفيوضات
الرحمانية على القلب البشرى الذى جاء في الحديث بأنه مسكن
الخالق تعالى اشارة الى ذلك من الاخلاص والتقوى والطهارة
النفسية والمحبة والتوكل والثقة بالله تعالى العظيمة النفع .

أما المحبة محبة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم التى هى
فرض عين فثمرتها من أجل ما يتصف به من المقامات فى الطاعة
والتقوى لان من أحب أخلص الطاعة وأصدق النية في العمل
بما يرضى المحبوب. فأصل الاعمال الدينية حب الله وحب رسوله
الذى أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وهذا منتهى
الكرامة فى الاسلام ومن أرفع المقامات ودرجات أهل الايمان.

ومحبة الله للمؤمنين وحبهم له منصوص عنها في الكتاب
العزيز « يحبهم ويحبونه » وقد جعل رسول الله صلى الله عليه
وسلم من شروط الايمان حب الله وحب رسوله « لا يؤمن

أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما» وروح هذا الحب ووسيلته المتابعة متابعة الرسول بالايمان والاعمال والاخلاص فيها كما فى الآية الشريفة «قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله»

والمحبة أصل من أصول قيام العالم العلوى والسفلى فى حركات الافلاك والكواكب ونواميسها من الجاذبية والحركة ونحو ذلك من تفاعلها وتماسها وقيامها بأمر الله وهى اى المحبة بالنظر للذى نحن بصدده جنس تحته انواع متفاوته فمنها ماذكرت بحق الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم وفسر بالمتابعة بالطاعة والتقوى والاخلاص والاجلال والتعظيم فهي من أجل وأشرف أنواع المحبة التى هى أصل السعادة ورأسها والتى لا ينجو أحد الا بها ثم هى لها مقام آخر أعلى واشرف من وصل اليه فقد ملئ قلبه هدى ونور وشوق ورغبة كما قيل

خيالك فى عينى وذكرك فى فمى ومثواك في قلبي فأين تغيب

وهذا ولا ريب أرفع مقامات الحب واعظمها، ولهذه المحبة آثار وتوابع ولوازم من الذوق والحلاوة والشوق والانس والقرب فالمحبة كالارادة أصل من اصول الدين وآثارها وتوابعها

تظهر في الطاعات واجتناب المحرمات ثم يترقى منها الى مقامات أعلى في القرب والاتصال ، وكل فوائد المحبة لله وارباحها عائدة على المرء من رفع الدرجات ونوال أسنى المقامات بحضرة رب الارباب وهناك ولا ريب كمال اللذة والسرور والفرح والحبور الكمال المحبوب وكونه تعالى فوق كل مطلوب ومحبوب .

ولقد أطال الامام حجة الاسلام الغزالى[1] في تحقيق معنى الحب لله متدرجاً في البرهنة عليه على حسب طريقته الفلسفية الدينية بأن الحب بعد إذ ينتج عن التصور والادراك يرجع الى خمسة أسباب (١) حب المرء لنفسه (٢) حب من يحسن اليه (٣) حب من يستحق المحبة لجماله (٤) حب من يستحق المحبة لكماله (٥) الحب للمناسبة الخفية بين المحب والمحبوب . ثم برهن على انه لانحصار كل صفات الكمال والجمال والاحسان والارتباط بين الخالق والمخلوق في ذاته وصفاته تعالى الظاهرة والباطنة لهذا كان لا يستحق المحبة الحقيقية الا الله جل شأنه ولقد أفاض في الاحياء بهذا الصدد وأستنتج بحق ان محبة الله تعالى ومعرفته والشوق اليه هي أجل اللذات وأكمل السعادات المدركة بالعقل

١ الاحيا للغزالى

والبصيرة الباطنة كما بالبصر الظاهر لكل ناظر الى جمال عمل الصانع من هذا العالم وبديع صنعه وعظيم إحكامه مما يجذب القلوب ويدهش الالباب ويطرب النفوس ولله در ذلك الشاعر الحكيم الذي أدهشته عظمة الصانع تعالى فانصرف بكليته الى حبه فقال

كانت لقلبي أهواء مفرقة فاستجمعت مذ رأتك العين أهوائى
فصار يحسدنى من كنت أحسده وصرت مولى الورى إذ صرت مولائى
تركت للناس دنياهم ودينهم شغلا بذكرك يا دينى ودنيـائى

ولا يتصور أن العبد يحب الرب فالرب تعالى لا يحبه مادام هناك الحب والاخلاص وصدق النية وفى الحديث «من تقرب الىّ شبراً تقربت اليه ذراعاً ومن تقرب الىّ ذراعاً تقربت اليه باعاً» فالمرء إذا أحب الله تعالى حباً خالصاً عاملا بأمره منتهياً عن نهيه أحبه الله وجزاه على حبه له من القيام بأمور الطاعات أضعافاً مضاعفة واسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة بل كان كما تقدم في الحديث بصره وسمعه الذى يبصر به ويسمع وجعله بالمعنى الحقيقى من أوليائه وأصفيائه الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون وهذا منتهي الرضا وتمام السعادة لانه بالحب والاخلاص تنتظم أمور المرء العملية التعبديه والتعاملية وبذلك تستقيم لهذا الانسان

الاحوال فى الهيئة وتصفو له الموارد والمصادر فى الحياة الدنيا وينال حسن الثواب فى الحياة الآخرة ونعم أجر العاملين

* * *

قلت إن التقوى هى جماع الخلال الشريفة والأحوال النفيسة من صدق النية والاخلاص والمحبة الى آخر مافى الباب وهى ولا شك تنتج تلك الاحوال والمقامات العظيمة الاخرى من الرجاء والخوف والمراقبة والمحاسبة والشكر والتوكل والزهد والتفكر فى سائر أحوال السلوك النفسى بازاء الخالق تعالى وغب التضلع من رحيق القرآن والتأدب بأدب السنة النبوية المطهرة ، فهذه الاحوال مما آتى عليه الآن هنا وسابقتها كلها أحوال ومقامات سامية آخذ بعضها برقاب بعض ولا ينتجها ولا ريب غير رقى الشعور الدينى السامى والايمان الكامل الذى يتطلبها ويستلزمها بالتساوى واحدة واحدة

وشرح هذه الاحوال الذوقية النفسانية العظيمة المتسلسلة المرتبطة وسابقتها من النية والاخلاص والمحبة أيما ارتباط كأنها تلك الحلقة المفرغة والتي هي من أهم شروط الاوصاف الدينية وآداب النفوس السامية حيال عظمة الله جل شأنه وعز سلطانه

مما يضمن للمرء المتصف بها ولا ريب النجاح والفلاح فى كل الشؤون الدنيوية والاخروية ويشرح صدر المؤمنين ويثلج افئدتهم هى ان «الرجاء والخوف» رأس العمل ، والرجاء وصف من أوصاف النفس إذ تدرك ماوراء الايمان والتقوى والاخلاص والمحبة الى أشباه ذلك من مقامات عظيمة ودرجات عند الله تعالى علية كما هو مدلول الكتاب العزيز والسنة النبوية الشريفة فتعمل رامية واثقة بنوال منازل القرب ودرجات الاعزاز والاكرام ونعمة الغاية ونعمة الواسطة الموصلة لها من العمل حتى قال ابن عطاء الله السكندرى رحمة الله عليه في حكمه المشهورة فى تعريف الرجاء الحق «الرجاء ماقارنه عمل والا فهو أمنية»

أما تلك الحال الشائنة من التمنى بلا عمل كالذى يقول فى مثلها من أمر الدنيا الشاعر :

وما طلب المعيشة بالتمنى ولكن إلق دلوك فى الدلاء

فلا ثمرة منها البتة ولا هى بذات جدوى وشر منها تلك الحال الزرية من اقتحام الموبقات واقتراف الذنوب ركونا الى عفو الله ونوال مغفرته فهى جهل وحمق وضلال مبين وذنب من الذنوب لانه جرأة على الله والجزاء كما بينه تعالى من جنس

العمل والثمر من نوع البذار ويقول الشاعر

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها ان السفينة لا تجري على اليبس

ولقد قال الصوفي الكبير معروف الكرخي رضي الله عنه « طلب الجنة بلا عمل ذنب من الذنوب وارتجاء الشفاعة بلا سبب نوع من الغرور وارتجاء رحمة من لا يطاع جهل وحمق »

فالتمسك بالعمل بالاسباب من حسية ومعنوية نفسية ينتج السلامة ويقوى الرجاء بعكس حال التمادى في المعاصى مع الاصرار والتمني ورجاء العفو بلا ندامة على التفريط فى جانب الله تعالى وهذا لا ينافي ما جاء فى فضل الرجاء رجاء غفران الذنوب الذى هو من حق الله تعالى وحده المطلع على السرائر والذى يخاطب عباده التوابين الاوابين بقوله تعالى « يا عبادى الذين اسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعا » فمع وجوب عدم القنوط من رحمة الله وعفوه وغفرانه ووجوب الرجاء وحسن الظن بالله مع هذا كله لا بد من التوبة بالاقلاع عن المعاصى والذنوب ظاهرها وباطنها وصريح الآية «انما التوبة للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب» أما التمني والتمادي فى الغرور والشرور بنفوس متصلبة وقلوب

مصرة على الخطايا فله قسطه من الحساب والمناقشه كما أن للنفوس اللوّامة والوجدانات الاوّابة نصيبها من رحمة الله وعظيم غفرانه للخطايا والذنوب « ومن يغفر الذنوب الا الله » بشرط عدم الاصرار والاقلاع عنها بتاتا بتوفيق الله وعزيمة النفس وارادتها حتي تستكمل النفس شروط التوبة النصوح خوفا من الله تعالى ومخافة الله كما جاء في الاثر الشريف رأس الحكمة .

وحال هذا الفريق من عظيم أحوال «الخوف» من الذنوب والخطايا الذى هو في مقابل الرجاء في استقامة احوال الآدميين وحسن سلوكهم الديني والدنيوى لانه لعلم المرء المتأدب بالادب الديني والمتصف بالايمان اليقيني بما جعل الله عزوجل فى مقابل ارتكاب المعاصى والذنوب والمظالم من العقوبات الشديدة الاخروية والدنيوية فبحسب معرفته بعيوب نفسه وشعور وجدانه الديني بها يخاف الله رب العالمين ويتقيه في نفسه فيكون له من ثمّ رادع وزاجر منها اليها عن الاقدام على اقتراف مايقبح الاتيان به من الافعال الحسية والمعنوية فينجو بذلك من عذاب الله ويستقيم له من ثم عوده . على ان حال الخوف ومقامه عند العارفين كبير لان لاحوال التقوي والمحبة لذة من نفوسهم

ووقع من قلوبهم يجعلهم أبداً في حال من الاحترام والتعظيم والورع والخشية عظيم جداً فهم أبداً يعملون على رجاء كما يعملون على خوف خوفاً من الحرمان من تلك المقامات العالية فيجدر بالمسلم بمقتضى أدب دينه النفسى أن يشعر قلبه مخافة الله تعالى ويتقى كل مايوجب السخط وغضب الرب تعالى ومن خاف سلم ورأس الحكمة كما تقدم فى الحديث مخافة الله تعالى والذي يخاف الله يلجأ اليه لانه لا مفر منه الا اليه فيعمل بما به أمر وينتهى عما عنه نهى وزجر ولهذا قال الحكيم أبو القاسم الصوفي « من خاف شيئاً هرب منه ومن خاف الله هرب اليه » وهذا الالجاء الى الله تعالى خوفاً من الله يقتضى ولا ريب تزكية النفس بتأديب الجوارح وتطهير البواطن من كل خلق ذميم سواء بحق الخالق تعالى أو بحق الخلق من ذوى الحقوق على الله فتصير المعاصي والرذائل الخفية والظاهرة حيال هذا الخوف مكروهة ممقوتة مستهجنة مطرودة شياطينها عن النفس عند المرء الذى يشعر من نفسه بازاء هاته الشرور والمساوى « انه كالسقيم العارف بدائه فيحتمى مخافة طول السقام » كما قال الحكيم الصوفى المشهور ذو النون المصرى

وهنا يأتى دور «المحاسبة والمراقبة» محاسبة النفس ومراقبتها حيال الاعمال والاحوال التي يجريها المرء أو تتصف بها نفسه لان المرء إذ يعلم ان الله تعالى يحيط بكل شيء علما خافيه كباطنه وفى القرآن «واعلموا ان الله يعلم ما فى أنفسكم فاحذروه». والآية الاخرى «ويعلم خائنة الاعين وما تخفي الصدور» فلهذا وجب على كل امريء عاقل أن يحاسب نفسه ويراقب ربه حتى ينال السعادة وتكثر حسناته «يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم» «يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو ان بينها وبينه أمدا بعيداً» ناهيك أن فى هذه المحاسبة وتلك المراقبة استصلاح حال الدنيا وهو سر تجويد كل الاعمال الاجتماعية فيها فتنتظم للمرء حال دنياه وتصفو له موارد الحياة من الاكدار والمكورات الذميمة كما تعظم له الحسنات في الآخرة.

وهذه المحاسبة للنفس إنما تكون عادة للعقل المتعلم المثقف المسيطر عليها لانه لما كان هذا العقل الكسبي قد جعل بفضل الله كالسلطان الوازع الذى يحسن سياسة ملكه ويتقن تدبير دولته فهو يوظف للنفس الوظائف المبينة فى الشرع والادب

النفسى ولا يكتفى بذلك بل لمعرفته بعظم المسؤولية يراقبها ويحاسبها حساباً دقيقاً إذا هى قصرت أو أهملت أو خالفت أو خانت وهذا العمل من العقل الرشيد له أسوة بالاعمال الدنيويه فيما بين الخلق وبعضهم فيما هم مسوقون فيه من الارتباطات العملية بل هو أدق منه فيما يجب ان يكون بين المرء ونفسه لان الفلاح والنجاح مقرونان بهذا مرتبطان به فى كل تلكم الشؤون فلذلك كان سبب كل خير ومفتاح كل سعادة وهناء فيجب على كل انسان عاقل يؤمن بالله واليوم الآخر والحالة هذه أن يقوم بمحاسبة نفسه التى بين جنبيه والتى هي كما فى الحديث الشريف تحطب عليه ولقد حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات فلا ينبغي للمرء ان يغفل أمر مراقبة نفسه فى هذا العالم ويدقق فى مراقبتها ومحاسبتها ومجاهدتها فى كل حركاتها وسكناتها وشهواتها ونزعاتها الاجتماعية إذ كل نفس من أنفاس عمر الانسان جوهرة نفيسة لا عوض لها ويمكن ان يشترى بها كنز من الكنوز لا يتناهى نعيمه فانقضاء هذه الانفاس ضائعة أو صرفها فيما يوجب الخسران والهلاك لا تسمح به نفس عاقل فوجب المراقبة والمحاسبة والمعاتبة والزجر والتوبيخ

للنفس على تقصيرها وانزجاجها في المفاسد حتى ترجع عن غيها وتؤوب الي الصواب والرشاد من قريب لان المرء لا يعلم أجله الا الله تعالى فاذا أصبح المرء فليشارط نفسه على عمل الخير واذا أمسى فليحاسبها على ما أتت من عمل ويوبخها على التقصير والتفريط وليعلم ان عليه من الله رقيباً عتيداً وأنه مجزى بعمله وأنه تعالى شاهد أمره قائم على كل نفس بما كسبت ولقد جاء في الحديث الشريف «أعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك» شعر

ولا تحسبن الله يغفل ساعة ولا ان ما تخفيه عنه يغيب

وهذا الحال حال المحاسبة والمراقبة للنفس يقتضي ويوجب بالطبع تلك الحال الاخرى العظيمة من «التوبة» مما قد يقترف من الخطايا والذنوب، ومقام التوبة وتجديدها والاستغفار من الخطايا والدعاء والضراعة الي الله لكشف العيوب والعون على تسديد الاعمال وتجويد الافعال أمر منصوص عليه في القرآن المجيد والسنة النبوية الكريمة (وتوبوا الى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون) وانما للتوبة آداب وشروط أهمها اصداق العزيمة واخلاص النية ورد المظالم وغسل الذنوب بماء الندم ودموع

الاسف والاشفاق والاستغفار والضراعة الى الله بقلب مملوء الخشوع والانابة والاستحياء من الله تعالي فيما قد فرط من النفس وبدر من الجوارح والتوبة النصوح تخرج العبد من حال البعد الى حال القرب بل تجعله يلقى الله وليس عليه شاهد بذنب، وباعث التوبة بعد هداية الله ان الذنوب حجاب تحجب القلب وتحرمه حلاوة الايمان الذى يزيد وينقص تبعا لاحوال النفس في تشبثاتها وتحرمه ثمرة الاعمال وحبوطها فاذا كان الوجدان ممن ذاق لذة الشعور والاحساس بواسطة ما هو حاصل لديه من قوة الايمان والمعارف الذوقية المكتسبة تألم لوقوع الذنب واقتراف الخطيئة فحصل الندم وكثر التوبيخ الوجدانى للنفس بقدر معرفته وحكمه على الاشياء وسموم المعاصي واحباطها للاعمال فيسرع من ثمّ الى التوبة ويبادر بها من قريب وهذا كله داخل فيما عرفنا الله عنه بقوله تعالى « وليست التوبة للذين يعملون السيئآت حتى اذا حضر أحدهم الموت قال انى تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار » (انما التوبة للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب) فالتوبة التى أوجبها الله على عباده ويحبها منهم ويحبهم من أجلها هى التى

تكون على القدرة هى تلك التوبة النصوح التى لا يعود المرء بعدها الى ما اقترف من الاثم ثانية لانه ليعد من أقبح أنواع الجرأة على الله والتعرض لكبير سخطه قال يحي بن معاذ الرازى «زلة واحدة بعد التوبة أقبح من سبعين بعدها» فالتوبة النصوح كما قال الاستاذ أبو بكر الواسطى رحمه الله «أن لا يبقى على صاحبها أثر من آثار المعصية سراً وجهراً» وقال ذو النون المصرى ذلك الصوفي الكبير «الاستغفار من غير اقلاع توبة الكذابين» على ان من قد يمتلك قلوبهم نور الايمان وتملأ أفئدتهم امور التقوى على أشرف أحوالها مدركين لذلك المبدإ الذى يرتكز على قول رسول الله صلى الله عليه وسلم «ترك الخطيئة أهون من طلب التوبة فاغتنم غفلة المنية» قد يكون لهم من ذلك أعظم درع وحرز حريز يقيهم شر الوقوع فى كبائر الذنوب وصغائرها وانما لما يعرض عادة على النفس البشرية فى هذا العالم من العوارض لزم أخذ الحيطة ولزم اشعار النفس دائما بالتوبة والاستغفار مصداقا للآية الشريفه «وتوبوا الى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون» ولقد جاء فى الحديث عن سيد المعصومين من رسل الله قال «انه ليغان على قلبي واني

لأستغفرن الله في اليوم سبعين مرة » وليس في هذا الا زيادة قرب من الله وهداية في سبيله وتمسك بالخير ونفض الايدى من الشر والغفلة لتستيقظ به النفس دائما الى تجنب الشر خوفا منه مهما صغر ومهما حقر والمحاسبة والمراقبة على ما يفرط منها والقيام بهذا الحصن النفسانى المنيع في وجه الاحوال الكبيرة التي تطرأ على القلوب والنفوس من مجريات الاحوال الاجتماعية التي قد تصادف الانسان أو هي في الواقع من ملازمات العمران البشرى بالندم والتوبة حتى لا تعود النفس الى مثلها ابدا وتعتاد من ثمّ الكمال النفسي آزاء حكم الوجدان الشريف والشرع المنيف وهذا البحث طويل قد وفاه الامام الغزالي حقه في الاحياء وصاحب غنية الطالب الشيخ عبد القادر الجيلانى فى كتابه المشار اليه وغيرهما من اجلة أئمة الاخلاق الدينية

أما الصبر ذلك الذى ذكر الله تعالى فى محكم التنزيل ومدحه وبشر من يدرع به «واصبر وما صبرك الا بالله» و«بشر الصابرين» «إنما يوفي الصابرون أجرهم بغير حساب» الخ فهو من أرفع المقامات في أدب الدين الاسلامى النفسي وهو خصيص بالانسان لتوسطه في خلقته بين الملك المستغنى عنه لكماله والبهيمة التى

لا تقدر عليه بارادتها فاذاً قد خص فضله وفضيلته بالانسان كما خص اجره به وبشر بذلك أيما بشارة فمن صبر وملك نفسه فى جميع أحوالها ونزعاتها بعزيمة ثابتة وإرادة قوية وقلب منيب دخل فى جملة الصديقين والملائكة المطهرين ومن انعكس أمره انخرط فى سلك البهائم وباء بالخسران وبعد عن صفة الكمال .

والصبر يكون بحفظ الحواس والجوارح عن الاندفاع فى الشهوات المنهى عنها وتحمل مشاق الامور التى لا حيلة لدفعها بجنان ثابت وجأش رابط بلا تململ ولا تسخط على الاقدار الجارية من قبل الله تعالى وتصاريفه فى خلقه خصوصاً من حيث الارزاق والامراض على أن التزام الصبر والرضى عن الله مع التحايل على دفع الامور بالتى هى أحسن من مثل السعي والتداوى بما أرشد اليه الشرع والعرف الحسن قد ينتج للمرء الخير كل الخير دنيا واخرى فبالصبر عن الشهوات تنال الدرجات وبالصبر على المكاره توفي الاجور بغير حساب .

ولعظم فضل الصبر دينيا جعل شطر الايمان كما جعل شطره الآخر (الشكر) وهذا الحال الاخير حال الشكر لله تعالى قد يرى لعين المؤمن المخلص لله انه تعالى حقيق به على كل حال

لان نعمه المتواصلة على الانسان قد تكل عن حصرها وشكرها الالسن البليغة وأن له تعالى شأنه حتى في الضراء عند التمعن وتدقيق الفكر الطافاً خفية وحكما تحار فيها العقول وتقضى عند ذوى النهى واولى الالباب غاية الحمد وغاية الشكر طلباً للعفو والعافية وتحصيل الأجر في نعمه المتواصلة بالحق علينا ولقد قال الله « وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها » وقال تعالى في زيادة النعم بالشكر عليها « ولئن شكرتم لأزيدنكم » وقال تعالى فى جزاء الشاكرين « وسنجزى الشاكرين »

ومقام الشكر ينتظم ككل المقامات الدينية والاحوال النفسانية من علم ومن حال ومن عمل، فالعلم بالعلم بأن كل النعم الكونية المتواصلة على الخلق من الانشاء والايجاد واخراج الارزاق والاقوات حتى الهواء والنسيم العليل الذى نستنشقه ثم تنمية الابدان وتقوية العقول وهدايتها الى أحسن الامور الاجتماعية والعلمية وارسال الرسل الى آخر ما في الباب من النعم المتواصلة بما لا يحيط به العد أو يحصره الوصف فكل هذا من جلائل النعم التي يجب شكر الله عليها وحمده والثناء عليه من أجلها بما هو أهله من المحامد والتنزيه لذاته والتمجيد لاسمه

تعالى فمن ثم يكتسب الحال اى الاتصاف ورسوخ ملكة المبدإ الموجب عند المرء العمل أى القيام باداء الشكر الجميل والحمد لله تعالى بالجنان الذى هو مصدره واللسان الذى هو مورده غالباً ، وهذا الحال من الشكر ومقامه الجليل تتفاوت فيه الهمم بحسب اتساع نطاق عقول الخلق وفهمهم للصنع العظيم والتدبير المحكم الذي يتمتعون بنعمه ويرتعون في بحابحه من فضل الله الحكيم العليم الذى يجازى الشكور ويشكر لعباده المؤمنين وتشمل رحمته العالمين ويثيب الحسنة بعشر امثالها ، فالشكر واجب على كل حال لله تعالى رب العالمين رب القوة والعظمة رب الرحمة والعطف والحنان لانه اذا كان الانسان مهما انحط أدبه وسفلت نفسه قد يشكر الى من يحسن اليه أدنى احسان للقاعدة المشهورة شرعيا وأدبياً من ان شكر المنعم واجب فالرب تعالى مع كل هذه النعم والرحمات والالطاف المتواصلة الصادرة منه تعالى الى خلقه أحرى وأجدر بأن يشكر ويحمد لدى أهل الايمان بانواع الشكر لانه المستحق بما نصب من دلائل عظمته وفيوضاته العميمة لجميع المحامد والثناء والشكر ولذلك جاء فى الآية «اشكر لى ولوالديك» ولكن كثيرا من بنى آدم للجهالات

الغالبة والضلالات اللاحقة ينأى بجانبه ويعرض عن شكر المولى أو لا يشعره نفسه بالمقدار اللازم كما قيل

ومن الرزية أن شكرى صامت عما فعلت وأن برك ناطق
وأرى الصنيعة منك ثم أصرها إني اذاً ليد الكريم لسارق

والشكر للناس فيما يستحقون عليه الشكر والثناء واجب لحق الله تعالى فيه ولذا جاء في الاثر الشريف « لم يشكر الله من لم يشكر الناس »

ومن أجل المقامات واجمل الاحوال النفسانية مقام «التوكل» وقد قال الله تعالى « وعلى الله فليتوكل المتوكلون» و«من يتوكل على الله فهو حسبه » وهذا الادب النفسانى ككل أحوال النفس الاخرى الواجب التأدب بها بحق الله تعالى يبنى على علم راسخ بقدرة الله تعالى العظيمة الغالبة وجميل صنعه وتدبيره للاشياء كلها بما لا يمكن لعقل انسان ان يستكنه على التمام دقيق الطاف الله وعظيم رحمته وعونه وعنايته بخلقه فترى النفس ان هنالك منه تعالى لا من سواه سنداً اقوى وعضداً نصيراً يجب ان يعتمد عليه ويستعان به في كل الاحوال والاعمال والجهادات الحيوية لا ما يفهمه بعض جهلة المتصوفة من الاستغراق في

رسوم العبادة وترك العمل والسعي والانقطاع جملة عن ذلك
وترك التداوى من الامراض مثلاً وكذلك تلك الاحوال
والاعتقادات الفاسدة من العوام بالنظر الى الاستعانة بالاولياء
والصالحين ورمى الحول عليهم وهم يبرءون الى الله من تلك
الضلالات الى أشباه ذلك من أحوالهم الفاسدة فان هذا وذاك
كله ليس من التوكل فى شىء بل هو من البله والتمنت بالنسبة
الى أحوال جهلة المتصوفة هؤلاء ومن شر أنواع الجهل والضلال
والجرأة على الله تعالي بالنظر الى أحوال العوام بل هو ضرب
من الشرك الخفى وعدم التوكل وصرف الوجوه عن غير المعبود
الأعظم جل جلاله الذي له وحده التصريف الاعلى ولا شفيع
الا من بعد اذنه لمن ارتضى فالمراد بالتوكل على الله إنما هو قيام
الناس بتدبير مصالحهم واثقة نفوسهم مع ذلك بمعونة الله لها
فى كل أمورها وحلول بركته تعالى فى جميع أعمالها ومساعيها
وظفرها بمبتغياتها الحقة المبنية على المبادىء الصحيحة الشرعية
فى القيام بكل الاعمال وهذا قد يرشد اليه بالنظر الى ما أنا
بصدده الآن من حيث المساعى العملية معنى الحديث الشريف
« لو توكلتم على الله حق التوكل لرزقكم كما يرزق الطير تغدو

خماصاً وتروح بطاناً، فان للطير بل وكل ذي حياة في سعيها على أقواتها وأرزاقها حركات موزونة وطباع منتظمة تبكر لها بكور الغراب وتجرى فيها كخيل الرهان ثم تؤى في نهايتها الى أوكارها وأعشاشها ولعمرى ان هذا لهو ألذ وأسعد حال ترتاح اليه النفوس ويوافق ناموس الله في خلقه مما قد تجد فيه الانفس الانسانية المتدينة راحتها ومعونة الله حقيقة لها فيها ولذا جاء في الحديث الشريف للحث والترغيب (بارك الله لامتي في بكورها) فالتوكل لا ينافي البتة ملابسة الاسباب التي لا تنكر وحديث أعقلها وتوكل مشهور مبين لفضل الاسباب غير قادح في فضل التوكل ولا معناه الديني لانه خروج عن الاسباب في الباطن ورجوع اليها في الظاهر وهذا منتهى درجة الكمال في التوكل عند أرباب هذا الكمال الديني فشواهد الكتاب العزيزة كلها ألسنة ناطقة دالة على الاسباب ثم على مسبب الاسباب فالاتصاف بالتوكل عمل بالاسباب وركون الى مسبب الاسباب وهذا هو المبدأ الصحيح في استصحاب التوكل الذي يأمر به الله ويجب اشعار القلب به في جميع الاعمال والاحوال وان كان ركونا الى الله ذى الطول والحول وحده، ولا ريب ان هذا الحال من

الاتصاف بالتوكل مثمر لأجل النتائج في كل الامور الحيوية الحسية والمعنوية وهو من الامور الخفية ككل الآداب النفسانية مع الخالق فيكون القلب معلقا بالخالق وحده مسبب الاسباب ومعين العباد متوكلا عليه واثقاً تمام الوثوق بعظيم فضله وكبير عونه والجوارح متأدبة بأدب الشرع في التمسك بالاسباب عاملة بها ونعم رأس المال التوكل ونعم مايجنى من ثماره وفوائده بالاسباب وأرباحه ولقد قال الله تعالى « وفى السماء رزقكم وما توعدون » وقال تعالى « فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه » وقال تعالى فى اشعار القلوب الاطمئنان ومبدء التوكل «ألا بذكر الله تطمئن القلوب» والآيات الاخرى الصريحة فى التوكل وأمثالها لتدلنا صريحاً على حقيقته المطلوبة له تعالى منا من حيث وضع ثقتنا بفضله وعونه ونصره فى كل أمورنا وهو تعالى نعم العون ونعم العضد ثم العمل بالاسباب ليتم أمره في خليقته بحسب ما جعل من سنن لها ونظام مما لا سبيل لتبديله ولا تغييره

ومن أشرف المقامات الناتجة عن التقوى ومعرفة النفس لحقارة هذا العالم وحياته الفانية وشعورها بعظم جلائل النعم في الدار الآخرة «الزهد» الذى هو انصراف الرغبة الحقيقية

النفسية عن حظوظ هذا العالم الفانى وملذاته غير الباقية انصرافا قلبياً بتقصير الأمل بالمعنى الصحيح والزهد فيها بما ترى آثاره في الاحوال العملية بمراعاة البساطة والزهادة فى سائر مقامات الحياة وحظوظ النفوس فيها اذ للتفخل والتأنق مساويهما وكراهيتهما فى الدين كما أن للزهد والتزهد حكمهما وفضلهما رغبة فيما عند الله من الثواب العظيم والنعيم المقيم وصرفاً للنفس عما يفسد عليها أحوالها الادبية وأعمالها المادية ويباعد بها عن سلوك طريق الآخرة وحسن السلوك فى الدنيا .

والزهد كالتوكل ليس معناه ترك الاسباب أوكل حظوظ النفس فى هذا العالم بل قد يكون المرء غنياً وزاهداً قانعاً فى وقت واحد كما قد يكون لا غنياً ولا متورعا زاهداً ولكن حشو قلبه ونفسه الطمع والشره والجشع والغل والحسد وحب السرف فى زينة الدنيا وزخرفها اذا هى أقبلت مع قلة همته في العمل وحب البطالة والكسل وهذا هو شر حال للناس عن بعض الصحابة رضي الله عنهم قال: قلنا يارسول الله «أى الناس خير قال كل مؤمن مخموم القلب صدوق اللسان قلنا يارسول الله وما مخموم القلب قال التقى النقى الذى لا غل فيه ولا غش ولا بغى ولا حسد —

قلنا يارسول الله فمن على اثره قال الذي يشنأ الدنيا ويحب الآخرة»

والاخبار والآثار في فضل الزهد كثيرة كقوله عليه الصلاة والسلام اذا رأيتم العبد أعطي صمتا وزهداً في الدنيا فاقتربوا منه فانه يلقن الحكمة وقال تعالى « ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيرا » ولقد قيل ان المطلوب من الزهد في الدنيا مايفهم من الآية الشريفة « لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم » اذ الزاهد حقيقة لا يفرح بموجود من متاع الدنيا ولا يتأسف على مفقود منها بحسب المراد منه هنا ، وفسر الامام الثوري الزهد بقصر الامل في الدنيا فقال « الزهد في الدنيا قصر الامل ليس بأكل الغليظ وليس العباء »

وليس قصر الامل أو بغض الدنيا النفسي الذي فسروا به هـذا الزهد هو ابطال العمل أو الكف عن النعيم المباح والاستعمار المطلوب الدنيا وفي الحديث الشريف «أعمل لدنياك كأنك تعيش ابداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً » بل هو حالة تقوم بالنفس المتدينة ترى صاحبها الدنيا على حقيقتها وحقارتها وقصر حظوظها ومتاعها القليل مهما كانت ومهما وجب وندب الشارع الى السعي فيها والعمارية لبقاء الجنس وحفظ

النوع معززاً مكرما فيرغب المرء من ثم فيما عند الله ويعدل بخاطره وأمله وعواطفه الى تحرى ثواب الله ومشيئة الله ، الى تلك السعادة الحقيقية رامياً فى كل مطلوب أعماله الدنيوية ومساعيه العملية الى مايجنى من الربح العظيم في الآخرة ولا ريب أن من يبلغ تلكم الدرجة العظيمة من الزهد أتصف بالاحسان وفاز بأجل المقامات والآداب النفسانية بل والراحة البدنية مصداقا للحديث الشريف «الزهد فى الدنيا يريح القلب والبدن» لان الذين مهاجاهد في الدنيا وحصل من متاعها ونعيمها الحلال المطلوب فهو وان عد ذلك كله من اكبر نعم الله عليه الواجب شكرها يراه ايضاً صغيراً وحقيراً بالنظر الى مايستقبله من نعيم الجنة الذى أعده الله لعباده المؤمنين وصريح الآية الشريفة تقول « فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قره أعين جزاءً بما كانوا يعملون»

وآخر ماقصدت عده من تلك المقامات الأدبية النفسانية

ويجدر ان يختم به هذا القسم من أدب النفس مع الخالق تعالى ومالها من أحوال ومقامات يجب إتصافها بحقه سبحانه وتعالى «الفكر» والتدبر والتأمل والاستبصار فى عظمة «الملك والملكوت» لان الاسلام لما كان «الدين الطبيعى» الذى يستند على العلم والعلم

يقتضي انطلاق العقل بالتفكر والتدبر في كل الاحوال والمقامات وسائر الاعمال والمصنوعات الطبيعية والانسانية لذلك جاء في القرآن مطلوبا منه مندوباً اليه في غير موضع من الكتاب العزيز كما في الآية « ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لاولي الالباب الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والارض ربنا ماخلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار » ولذا جاء في الحديث الشريف «تفكر ساعة خير من عبادة سبعين سنة »

ويطلب الفكر ايضاً دينياً عندنا في أحوال النفوس ومعارفها وافعالها قال الفضيل «الفكر مرآة تريك حسناتك وسيآتك» وقال الحسن هذه الحكمة البليغة «ان أهل العقل لم يزالوا يعودون بالذكر على الفكر وبالفكر على الذكر حتى أستنطقوا قلوبهم فنطقت بالحكمة» وقال وهب «ماطالت فكرة امرىء قط الا علم وما علم قط الا عمل» وقال عمر بن عبد العزيز «الفكرة في نعم الله عز وجل من أفضل العبادة» وقال حاتم « من العبرة يزيد العلم ومن الذكر تزيد المحبة ومن التفكر يزيد الخوف» وقال ابن عباس «التفكر في الخير يدعو الى العمل به والندم على الشر يدعو الى تركه »

وقال الشافعي رضي الله عنه « أستعينوا على الكلام بالصمت وعلى الاستنباط بالفكر» وقال أيضاً «صحة النظر في الامور نجاة من الغرور، والعزم في الرأى سلامة من التفريط والندم، والرّوية والفكر يكشفان عن الحزم، والفطنة ومشاورة الحكماء ثبات في النفس وقوة في البصيرة، تفكر قبل ان تعزم وتدبر قبل ان تهجم وشاور قبل ان تقدم » وقال الشاعر :

اذا المرء كانت له فكرة ففي كل شيء له عبرة

ولا غرو فانه بأطالة الفكرة والتأمل يحصل للانسان العلم اليقيني والحكم القطعي أو الذى ترتاح اليه النفس فيبعد عن التقليد الاعمى في الاحوال والافعال والعلم وكلما أتسع نطاق علم الانسان ومعارفة المكتسبة ومعلوماته التي يحصلها ويستفيدها من مجريات هذا العالم وحوادثه كلها كلما سما فكره وعلا في أرتفاع الاذواق الاجتماعية والاحوال والمقامات الدينية كعبه فجنى من ثم دينياً ودنيوياً أشهى الثمار الفكرية والتأملات العقلية والسعادات والاذواق فازداد بهذا كله قربا من الله وبعداً بالنفس عن مساوى حالاتها وسفاسفها المستفادة من شرور العالم فينير الله بصيرته ويجلى عن قلبه ويرفع من شأنه ويسدد كل أعماله ويملأ بين جوانحه

نوراً وحكمة روحانية يستلذ بها ويطيب بما لا يمكن ان تمادلها
عنده لذة أخرى ولا إيملوها سرور ثان ولقد قال الامام الجنيد
ذلك الصوفى الكبير هذه الحكمة العالية والموعظة الحسنة العالية
قال «أشرف المجالس وأعلاها الجلوس مع الفكرة فى ميدان
التوحيد والتنسم بنسيم المعرفة والشرب بكأس المحبة من بحر
الوداد والنظر بحسن الظن لله عز وجل ويا لها من مجالس ما
أجلها ومن شراب ما ألذه طوبى لمن رزقه [1] »

﴿ الباب الثامن ﴾

(خلاصة)

مبادىء الاسلام فى التوحيد والاعتقادات — الطهارة والصلاة — الزكاة
— الصيام — الحج — القرآن — العلم — العمل — شأن الحكومة —
النفس وآدابها مع الخلق ومع الخالق

رأى القارىء الكريم مما سبق أن الاسلام قد توفرت
له في اعتقاداته أسمى المبادىء التوحيدية والتنزيهية بما يمكن
أن يفتخر أهله به لانه مبنى على اعتقاد اله واحد عظيم هو

---

١ الاحيا للغزالى

صانع الكون الاعظم ذلك الاله تعالى الذى طالما بهرت عقول الفلاسفة والحكماء من المتقدمين والمتأخرين أمام ماله من آثار العظمة والجمال فى الابداع والاتقان :

تسبح ذرات الوجود بحمده ويسجد بالتعظيم نجم وأشجار
ويبكي غمام الغيث طوعاً لامره فتضحك مما يفعل الغيث أزهار

فالقرآن المجيد دلنا بأجمل عبارة وألطف اشارة الى أن لانعبد الا هذا الاله العظيم والصانع الحكيم وحاج العرب وغير العرب بأن ماهم عليه من الشرك الظاهر والخفى والابهام والايهام في المبادىء والاصول الاعتقادية ليس مما يرضاه الله لعباده وليس من كمال الدين الحق دين الفطرة التي فطر الله الناس عليها في شيء ، فتنزيه الله تعالى فى الاسلام هو من أسمى ماترمي اليه العقول الكبيرة وتقبله الفطر السليمة متى ماعلم على حقيقته كما أن قوله في القضاء والقدر من أوسط ما يعتقد بالنسبة الى أفعال العباد وخلق رب العباد :

وقامت بها الاشياء ثم لحكمة بها احتجبت عن كل من لاله فهم

ولا ريب ان الله تعالى لما تفضل على العقل البشرى بالادلال على نفسه بواسطة رسله الذين اصطفاهم واختارهم مبشرين

ومنذرين لخلقه وجب بالضرورة الايمان بهم واتباع ماجاؤا به من عنده وأمروا بتبليغه من الشرائع للناس والذى جاؤا به معززاً بالحجج مؤيداً بالمعجزات سهلا بسيطا يمكن لكل انسان أن يعتقده ويعمل به ليسعد سعادة كاملة بيدان للذين يخالفون عن أمره ويعملون السوء عذاب أخروى والجزاء من جنس العمل ولا تزر وازرة وزر اخرى ٠

* * *

والعبادة الاسلامية هي كاعتقاد هذا الدين بسيطة وسهلة ومفيدة، فالطهارة ليس أحسن ولا ألطف منها فى النظافة وصحة البدن والله تعالى يحب المتطهرين، والصلاة تضرع ودعاء وخشوع وخضوع أمام رب العالمين وفى حضرته وما يجب أن يعمر المرء به باطنها وهى عماد الدين من استحضار القلب عظمة الرب والاخلاص له تعالى مثمر للفوائد الروحية ومفيض على الجوارح النعم واللذة والتقوى فى كل الاعمال والشؤون، وكونها خمس صلوات فى اليوم والليلة ليس أفيد ولا اجلب للراحة القلبية من عناء الاعمال منه اذ يفتتح المرء نهاره بصلاة ويعمر وسطه عند الزوال بصلاة ويأتى في عصره كذلك بصلاة ويختمه عند

الغروب بصلاة ثم واخيراً يستقبل ليله وأخذ راحته من الهجوع عند غروب الشفق ودخول العتمة بصلاة العشاء، وما زاد عن ذلك من الصلوات المكتوبة والتطوع فكله حسن وكله مفيد، فالجمعة لها فضلها، والعيدان لهما مزيتهما وكذلك باقي ما اشرنا اليه من السنن في الجنازة والكسوف والخسوف والتطوع الخ

وفرض زكاة الاحوال أرانى لست في حاجة الى تبيان كبير فوائده وجودة مبدأ تقريره دينيا على المسلمين فهو هو عين ماتقوم عليه عمار الممالك من تحصيل الاموال من الافراد الموسرين لتدبير الشؤون وتنظيم المصالح العمومية ومساعدة الفقير والمحتاج في الهيئة فزكاة الاموال والصدقات اسلاميا من أفيد الاصول التى روعي فيها مصلحة الهيئة الاجتماعية

وكذلك فرض الصيام فى شهر رمضان الذى انزل فيه القرآن له مزيته على النفس البشرية فان امساك الانسان ومخالفته عادته في الاكل والشرب ونحو ذلك نهاراً كاملاً مع صون الجوارح وحفظها عن اللغو والهذيان فيه كسر لغائلة شهوات النفس وتهذيبها وتذليل جماحها وبعبارة أخرى القرب بها الى افقها الأعلى والبعد بها عن طبيعتها الارضية الحقيرة

ولذلك جاء في الحديث الشريف « صوموا تصحوا » وقال تعالى « وان تصوموا خيراً لكم »

وفرض الحج الى بيت الله الحرام وكعبة ابراهيم الخليل عليه السلام فضله أيضاً لا ينكر لان فيه اجتماع خلق كثير من المسلمين سنويا في صعيد واحد لذكر الله تعالى واقامة شعائره ومناسكه في أيام معلومات وهذا كله أيضاً له الفوائد الجلى من حسن التأليف بين جماعات المسلمين والخروج بالنفس عن أوزار الدنيا وغرورها بما يرمز اليه من خلع ثيابها المخيطة ولبس لباس الاحرام وذكر الله بالتلبية وعدم قتل الصيد أو الاشتغال بشواغل الدنيا وجدالاتها حتى تصح للمرء حجته ويبر نسكه ولذلك جاء في الحديث « من حج فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه »

ولما كان القرآن هو المحور الذى تدور عليه شؤون المسلمين الدينية والتعبدية والتعاملية والآداب النفسية لذلك كان من الضرورى لكل مسلم تلاوته وتدبره لانه مدد العقول ووسيلة الهداية وعماد الاخذ بالشريعة المطهرة عند المسلمين حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أفضل عبادة أمتى تلاوة القرآن »

وآداب هذه التلاوة مفصلة فيما سبق من هذا الكتاب كما ذكر فيه كذلك أدب الذكر ذكر الله تعالى والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم لقول الله تعالى « يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما »

* * *

ولما كان العلم نوراً والجهل ظلمة وأى ظلمة لذلك جاء الاسلام حاثاً على طلب العلم مبيناً فضل العالم على الجاهل آمراً بالعمل به كما قال الشاعر

العلم نور فلا تهمل مجالسه وأعمل جميلا يرى فالفضل فى العمل

ولا غرو فان العلم بدون العمل كالشجر بلا ثمر وأى عاقل يحب أن يتصف بذلك « كثير علمه قليل عمله » فالعلم يطلب اسلامياً لان يترقى به أهله وتعلو بواسطته بين الناس منزلتهم وأقدارهم بالنفع ويفخر بهم الدين الذى ارتضى الله تعالى لهم وجعلهم أمة «وسطاً» ينبغى أن تكون بين الامم ذات علم قائم وشرف وفخار وأعمال صالحات يردون بها عن العالم الجهالات وكثيف الشبهات « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » « ولتكن

منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر واولئك هم المفلحون »

وفى الباب باب أدب العلم عندنا معشر أهل الاسلام آداب جميلة جمة ومبادىء في العلم الذى هو فرض عين والعلم الذى هو فرض كفاية غاية فى السداد وكذا فى آداب التعليم والتعلم ولقد قال الامام ابن تيمية « ان الخير والسعادة منحصر فى نوعين فى العلم النافع والعمل الصالح ولقد بعث الله محمداً بافضل ذلك وهو الهدى ودين الحق كما قال تعالى هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً » (١)

*
* *

والعمل فى الدنيا على المعاش — والدنيا دار عمل وكدح — لم يقرر الاسلام بالنسبة اليه الا أجود المبادىء والقواعد بالنظر الى السعى على المعاش وتقرير المساواة في الحقوق وعدم التحكير فى الاعمال المباحة شرعاً من الصنائع والتجارة بل انه راعى في كل حق الافراد واحاط أعمالهم وحرياتهم فيها بأحسن القيود

(١) رسائل ابن تيمية

وأجود النظامات العامة .

ولم يحرم البتة التمتع بالدنيا من حلال وأنحى على الكسل والتبطل والاحتكار وحث على الاتقان وتجويد الصنائع والاعمال والحذق فيها وتدبير الارزاق وذم الاسراف وهجى المبذرين وسماهم «اخوان الشياطين» كما ذم البخل والشح فى اداء الحقوق فى المال وأمر بحسن معاملة الخلق والنصفة حتى من النفس وعدم الغش في الكيل والميزان الخ

*
* *

وإذ كان الانسان فى العالم — وهو سلطانه وأشرف خلق الله فيه — له نظام طبيعى فى الاجتماع لا يمكن أن يعيش بدونه فلذا جاء الاسلام بأحسن الآداب بالنسبة الى العشرة والخالطة في مثل الزواج والارتباطات العائلية والتعاملية والصداقة وتربية البنين والبنات بالقدوة الحسنة ومعاملة سائر الخلق بالعقل والأدب والتسامح لغير أبناء الملة ممن لهم مالنا وعليهم ماعلينا فى الحقوق المتبادلة والشؤون التعاملية والروابط الوطنية التي يقتضيها نظام الهيئة السياسية الوطنية والهيئة السياسية الدولية[1] والآداب فى

---

(١) يراجع على هذا كتابى « حياتنا الادبية » الذى سينجز طبعه ان شاء الله تعالى قريباً

العشرة والقرابة والصداقة والجوار الخ مفصلة فيما سلف فلا أعيدها هنا ولقد جاء في الحديث الشريف « من عامل الناس فلم يظلمهم ووعدهم فلم يخلفهم وحدثهم فلم يكذبهم فهو ممن كملت مروءته وظهرت عدالته ووجبت اخوته وحرمت غيبته » وقال تعالى في تحسين هذه المعاملة فى العشرة وما ماثلها « ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي » « ادفع بالتى هى أحسن فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم » وقال فى خلق رسول الله فى معاشرته لقومه « لو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الامر »

وقال تعالى « واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين » وقال رسول الله فى المودة « رأس العقل بعد الايمان التودد الى الناس » وجاء عنه عليه الصلاة والسلام « لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تفرغ من دلوك فى إناء المستقى وان تكلم أخاك ووجهك اليه منطلق »

الق بالبشر من لقيت من الناس جميعاً ولاقهم بالطلاقة
تجن منهم به جنى ثمار طيب طعمه لذيذ المذاقة

ولقد جاء في الحديث الشريف أيضاً «صلة الرحم وحسن الخلق وحسن الجوار يعمرن الديار ويزدن في الاعمار»

*
* *

ولما كان الناس لا يمكن أن يصلحوا فوضى بلا وازع ولا شرع قائم وسياسة يرجعون اليها لذلك جاء الاسلام بأحسن الاصول والقواعد في الحكومة، فنبه في غير ما موضع من القرآن الكريم على أقامة قسطاس العدل، وجعل الاجماع السلطان في مقام الخليفة عن النبي صلى الله عليه وسلم في مستمد السلطة التشريعية والتنفيذية بواسطة الرجوع الى مشورة أساطين أهل العلم من الامة وأكابر عظماء الملة وجعل كذلك من أدب العمال من الوزراء القضاة والولاة ومتولي الشؤون الادارية والمالية الخ أن يكون القائمون بذلك منهم من أعدل الناس وأكفأهم وأنزههم وأورعهم على حد قول الشاعر

كلهم سيد فمن تلق منهم قلت هذا اولى بحل وعقد

ولقد دلت الاحوال انه يجب ان يكون الجند الذاب عن الدولة من خيرة أبنائها وان يكون وقواده على جانب عظيم من الطاعة والتدريب والحمية الملية والشجاعة النفسية لدرجة يمكن

معها حفظ سياج المملكة الاسلامية داخلا وخارجاً وان يعتنى به عناية تناسب شأنه العظيم ، وأن للسلطان فوق ذلك حسن بصارته فى تصرفه فى رعيته واكتساب محبتها ولقد قال بعض «الحكماء طاعة المحبة أفضل من طاعة الهيبة » وهذا لا يكون على أحسنه الا بأقامة العدل على أوسع معانى الكلمة وأحكمها وأسدالوجوه وأحزمها فيشددفي موضع يقتضى الشدة ويرخى فيما لا يضر فيه الارخاء ومادام العدل قائم السلطان والنظام جارياً مجراه بإحكام فلن يضر بعد هذا شذوذ المتسخطين من ذوى الاغراض والمطامع إذ العبرة بخطة السير ومصلحة الجمهور ولقد قال بعض الملوك « انا أملك الاجساد لا النيات وأحكم بالعدل لا بالرضا وأفحص عن الاعمال لا عن السرائر .

وكما أن السلطان ضروري في الارض فالطاعة لنظامه واجبة لانه مهما كان الحال فان في عدم أطاعة السلطان والخروج على النظام اشأم المغاب السيئة التى تضطرب لها أحوال الاجتماع البشرى والناس لا يصلحون فوضي ولذلك قيل «سعادة الرعية فى طاعتهم لملكهم »

*
* *

هذه جملة الآداب الاسلامية في الامور الظاهرية والشؤون العملية وقد أتيت على تفصيل أهمها فيما سبق بالايجاز ولكن هنالك أس ذلك ومحوره الذى تدور عليه رحاه من نفس الانسان المعبر عنها «بأنا» تلك المضغة في القلب والوجدان التى متى ما صلحت صلح معها كل حال للانسان كما فى الحديث الشريف وقد تقدم

فنفس الانسان لهذا وجب ان لا تترك وهواها بل وجب ان تهذب لتصلح . من وراء ذلك أحواله واعماله كلها فى سائر ماهو مطلوب من الانسان في الشؤون العملية والامور المعنوية على نحو ما سلف إذ أى فائدة يجنى الانسان اذا كان ظاهره انيق فى أموره الحسية والمعنوية ولكن باطنه حشوه الخبث والمكر والخداع والكذب الخ مما يفسد عليه ارادته واذواقه فيشقى

وأدب هذه النفس كما تقدم ينقسم الى قسمين أدب للنفس مع الخلق وأدب لها مع الخالق ولولاهما لما نجح للانسان عمل ظاهرى ولا قوى له شأنه الروحانى ، فالاخلاص والصدق والأمانة والعفة والرحمة والتواضع والحلم والترفع والشجاعة الخ كلها لازمة للانسان مثمرة لعمله منجحة لشأنه كله بعكس التخلق

باضدادها وارتكاب الشرور والمعاصى فانها مثمرة حنظلا مخسرة للانسان ثالبة منه مسرات نفسه وملذات وجدانه وان شعر بادىء بدء بانه حاصل على نوع سعادة والله تعالى يقول «قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها» والرسول صلى الله عليه وسلم يقول فى الحديث «بعثت لأتمم مكارم الاخلاق» أى النفسية والعملية التي بعث بها نبينا صلى الله عليه وسلم وبينها القرآن والسنة وما بنى عليهما وقيس بقياسهما ووزن بميزانهما بحسب المقتضيات وتجنب الرذائل والشرور والفساد في الارض المنهى عنه شرعاً وعرفاً هو ما يجب ان نحققه لانفسنا لنحظى بين الخلق بصحيح السعادة وننجح فى معاملاتنا وأحوالنا بين الامم ونحن خير أمة اخرجت للناس لا بأجسامنا ولكن بمبادىء قرآننا وديننا وآدابنا العالية

لقد بان للناس الهدى غير انهم غدوا بجلابيب الهوى قد تجلببوا

أما أدب النفس مع الخالق لقول الرسول صلى الله عليه وسلم «من أحسن فيما بينه وبين الله كفاه الله ما بينه وبين الناس ومن أصلح سريرته أصلح الله علانيته» وهو لا يكون الا من قوة الايمان وتقوى الرحمان فمن بلغ هذا الاوج فقد فاز بأجل

الأرب ونعمة الله التي لاتقدر ونضح له من ذلك على جوارحه فيوضات الآداب السامية المبنية على الورع والخشية والحب والاخلاص وصدق التوكل والتقوى الصحيحة الصادرة من أعماق القلوب .

وتقوى الله أفضل كل زاد لنفس بالهدى عرفت هداها

ولقد تبين لك مما سلف فضل تلك الاحوال والمقامات الرفيعة التي لايشارك فيها الحيوان الانسان بل لايشابه فيها الانسان الانسان فمن الناس من لايكون له من تلك الاذواق والمعارف المعنوية الا بمقدار ما يعلم من أسمائها ويشرح من مسمياتها ويثنى عليها بما هي اهله ولكنها لن تتعدى لسانه ومنهم من تملأ بين جوانحه وهو بعد قد لايعرف ماهي أسماؤها ولله في خلقه شؤون

رب ان الهدى هداك وآيا تك نور تهدى بها من تشاء

وإذ جمل تعالى الاكوان كما قال ابن عطاء الله السكندرى « ظاهرها غرة وباطنها عبرة » لذلك أمرنا الله تعالى بالنظر والتفكير فيها وفي أحوال نفوسنا العجيبة في أعمالها وتصرفاتها وميولها لنزداد إيماناً وتبصرة وعلماً ونوراً

إذا المرء كانت له فكرة ففي كل شيء له عبرة

وليس المقصود بهذا التفكير المعرفة السطحية والنظر الظاهرى وحملقة الابصار مع الذهول وفقدان نور البصيرة فهذا ليس فيه العبرة المقصودة ولا تحصل منه الفائدة العلمية المرجوة من حسن التأمل والتدبر باللذة والشوق والتأثر والخشية مما يفيض على القلب المعارف ويكسب الوجدان أشرف الاحوال والمقامات والواردات

ان شمس النهار تغرب بليل وشمس القلوب ليست تغيب

تم الكتاب والحمد لله تعالى

وصلى الله على سيدنا محمد

وآله وسلم

فهرس لكثير من مواد الكتاب واعلامه
(مرتبة على حروف المعجم)

حرف الألف

حرف الخاء

حرف الصاد

حرف الضاد

حرف الطاء

حرف الظاء

حرف العين

حرف الغين

حرف الفاء

﴿ حرف القاف ﴾

﴿ حرف الكاف ﴾

حرف الميم

حرف الياء

تمت

فهرس

صفحة

﴿ الباب الاول ﴾

(أدب الاعتقاد)

﴿ الباب الثانى ﴾

(أدب العبادات)

﴿ الباب الثالث ﴾

(أدب العلم)

صحيفة

﴿ الباب الرابع ﴾

(أدب العمل)

﴿ الباب الخامس ﴾

(أدب المعاشرة)

صحيفة

﴿ الباب السادس ﴾

(أدب الحكومة)

﴿ الباب السابع ﴾

(أدب النفس)

صحيفة

﴿ القسم الاول ﴾

(أدب النفس مع الخلق)

﴿ القسم الثانى ﴾

(أدب النفس مع الخالق)

صحیفه

﴿ الباب الثامن ﴾

(خلاصة)

« تمت الفهرست »

صحيفه	سطر	خطأ	صواب
٥	١٥	زكية الازيج	ذكية الاريج
٦	١٩	وأري	ولا أرى
١٦	٦	نحى	نحا
٢٨	٣	ذكاها	زكاها
٤٤	٣	سبعة عشر	سبع عشرة
..	١٤	فأربعة عشر	فاربع عشرة
..	..	وأربعة عشر	واربع عشرة
٤٥	٣	الاربعة عشر	الاربع عشرة
٤٩	٩	وخطبتها سنة	وخطبتها كذلك
..	١١	وخطبتها السنة	وخطبتها
..	١٧	من سنة خطبتها	من خطبتها
..	..	سنت	شرعت
٥١	١٢	بسبعين	بسبع وعشرين
٦٠	٣	بالتصرف	بالصرف
٦٨	٤	مافيه	ماهو
٧٠	١	وأبكو	وأبكوا
٧١	٥	زينو	زينوا
٨٣	٦	وأشتمل	ما أشتغل
٨٦	١٤	تبليغ	فى تبليغ
٨٨	١٥	المهذين	المهذبين
٩٤	٣	الاختصاصيين	الاختصاصيون

صحيفه	سطر	خطأ	صواب
١٠٧	١	الأبواء	الأواء
١٠٨	١٥	تناق	تأنق
١٠٨	١٦	المندجة	المنجدة
١١٠	١٠	بالباطن	بالباطل
١١١	٩	التلغراف واللاسلكي	والتلغراف اللاسلكي
١١٥	٧	في مخاطباً	في مخاطبة
١١٨	٩	والمطاهرات	والمصاهرات
١٢١	٧	من لم يستطع	من يستطع
٠٠٠	٦	العيلة	العيال
١٥١	٩	ولايبلغ	لايبلغ
١٥٦	١	وأرهاف	وأرهاق
١٧١	١٧	من أهل	من اهلي
١٧٤	١٤	الملاك	الملوك
١٧٥	٤	للطويل	للتطويل
١٨١	١٢	ذكاها	زكاها
١٨٥	٥	يسحضر	يستحضر
١٩٩	١٩	ويغيطوا	ويغبطوا
٢١١	١	عصيان وسخط	عصيانا وسخطاً
٢١٤	٢	وماكان ربك ليظلم الناس	وما كان الله ليظلمهم
٢١٧	٤	منهم	عنهم
٢٢٢	٤	ومن يؤتى	ومن يؤت
٢٣٥	١	الروحيين	الروحيون

صحيفه	سطر	خطأ	صواب
٢٣٥	٢	الصوفيين	الصوفيون
٢٣٦	١٢	فأتق	وأتق
٢٤٢	١٣	نور وشوق	نوراً وشوقاً
٢٥٤	٤	بعدها	قبلها
٢٧٥	٤	وهجى	وهجا